الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

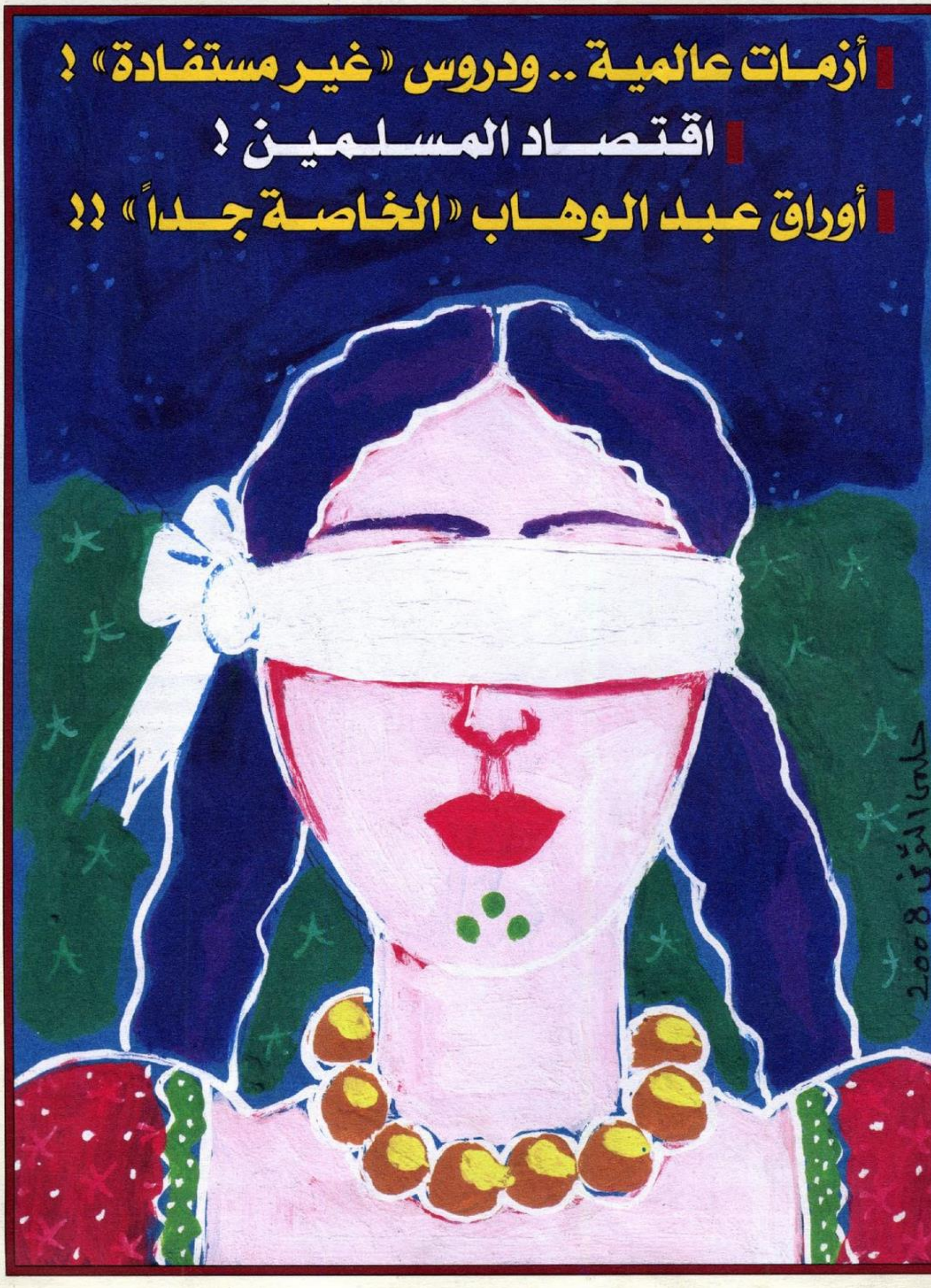
Weghat Nazar - Volume 10 - Issue 119 - December 2008

مجلة شهرية . العدد المائة وتسعة عشر . السنة العاشرة . ديسمبر ٢٠٠٨ . الثمن عشرة جنيهات

أزمات عالمية .. ودروس «غير مستفادة» !

اقتصاد المسلمين !

أوراق عبد الوهاب «الخاصة جداً» !!



السنة العاشرة

العدد ١١٩

ديسمبر ٢٠٠٨

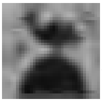
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج

أحمد الزيادى

الكتب

وجهات نظر

في الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:

الشركة المصرية

للنشر

العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير

سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير

أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى

حلمى التونى

محتويات العدد :

كتاب العدد :

- أحمد شهاب.. أستاذ قانون الأعمال الدولى جامعة ليدن.
- بورتون مالكيل.. أستاذ الاقتصاد فى جامعة برينستون.
- بول كروجمان.. أستاذ فى جامعة برينستون.
- جوئل بينين.. أستاذ تاريخ الشرق الأوسط فى جامعة ستانفورد - الولايات المتحدة.
- شريف عكاشة.. باحث فى علم المعجم الحاسوبى.
- علاء بيومى.. كاتب وباحث عربى مقيم فى الولايات المتحدة.
- لؤى الشواربى.. مستشار قانونى ومحاضر فى قوانين الاقتصاد الدولى العام.
- مازن النجار.. باحث وأكاديمى فلسطينى.
- محمد البرادعى.. مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية.
- محمود محيى الدين.. اقتصادى وسياسى مصرى يشغل حاليا منصب وزير الاستثمار.
- الهاشم أسمهر.. باحث أكاديمى فى التراث العربى والإسلامى - من المغرب.
- وليد محمود عبدالناصر.. كاتب وباحث مصرى.
- يوسف الشريف.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى، Kerry Waghorn, Monte Wolverton,

RJ Matson, Manny Francisco, Tak Bui, Jim Fitzpatrick

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠ / ٢٣٩٣٠٤٩٢ / ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)

البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد - داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارا أمريكيا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارا أمريكيا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارا أمريكيا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.

إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص.ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر

هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالا - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهما - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.

Austria, France, Germany and Italy. EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

الحذر والتمهل ضروريان إذا ما أردنا فهم مواقف الرئيس الأميركي الرابع والأربعين

نحن.. وأوباما

علاء بيومي

يهدف هذا المقال إلى رصد مواقف الرئيس الأميركي الرابع والأربعين - باراك أوباما - تجاه عدد من أهم القضايا العربية من خلال ما يتوافر عنها من معلومات ووثائق أولية مثل خطابات أوباما عندما كان مرشحا رئاسيا والمواد المنشورة على موقعه بمجلس الشيوخ الأميركي.

وفي حين نركز على ثلاث قضايا رئيسية: وهي موقف أوباما من عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية، ومن حرب العراق، وتجاه إيران، نحرص على عدم التسرع في إصدار الأحكام على الرئيس الجديد ومواقفه المقبلة تجاه العالم العربي؛ محاولين انارة بعض من الضوء من خلال التركيز على رصد جذور مواقف أوباما وأبعادها وتطورها وما يعتريها من استمرارية أو انقطاع أو تناقض أو أي سمات أخرى تساعد على فهم مواقف الرئيس الأميركي المقبل.

ونؤكد منذ البداية على صعوبة رصد مواقف أوباما والتنبؤ بها بسبب حداثة عهده بواشنطن، وندرة ما يتوافر عن مواقفه السياسية من معلومات خاصة إذا قارناه بالمرشح الجمهوري للرئاسة الأميركية جون ماكين والذي صار عضوا بالكونجرس الأميركي منذ عام ١٩٨٣ أي قبل أكثر من عقدين من الزمن على فوز أوباما بعضوية مجلس الشيوخ الأميركي في أواخر عام ٢٠٠٤.

هذا يعني من البداية أننا أمام شخصية سياسية غامضة بعض الشيء وأن الحذر والتمهل ضروريان إذا ما أردنا فهم مواقف الرئيس الأميركي الرابع والأربعين.

أولا: العراق

في اعتقادنا أن البداية بدراسة موقف أوباما تجاه العراق - كمدخل لفهم مواقفه تجاه باقي قضايا العالم العربي -- ضروري لعدة أسباب، يأتي على رأسها الأهمية التي تمتعت بها قضية العراق في الداخل الأميركي نفسه بين قضايا السياسة الأميركية المختلفة. هذا إضافة إلى أن العراق -- كما سنرى فيما بعد - وإعادة نشر القوات الأميركية هناك هما

للاستزادة
باراك أوباما والعالم العربي
علاء بيومي
مركز الجزيرة للدراسات
الدوحة، قطر نوفمبر ٢٠٠٨

©Yasser Al-Zayyat - AFP 2008



بمثابة نقطة انطلاق رؤية أوباما العامة للشرق الأوسط.

وذلك لأن أوباما عارض حرب العراق قبل بدايتها، حيث أعلن في خطاب جماهيري ألقاه في أكتوبر ٢٠٠٢ عن رفضه لفكرة الحرب والتي اعتبرها حربا «خائبة» أو «غبية» Dumb War؛ لذا تميز أوباما على غيره من المرشحين الديمقراطيين للرئاسة الأميركية بموقفه المعارض للحرب قبل بدايتها، ولهذا السبب نظر إليه معارضو الحرب على أنه المرشح الأكثر «نقاء» بخصوص حرب العراق بين المرشحين الديمقراطيين الرئيسيين وهما جون إدواردز وهيلاري كلينتون واللذان ساندا قرار الحرب.

وقد حاول إدواردز الذي استقال من عضوية مجلس الشيوخ الأميركي في عام ٢٠٠٤ - وصوت لحرب العراق في ٢٠٠٢ - إلى أن يتبنى مواقف متشددة ضد الحرب خلال الانتخابات التمهيدية (٢٠٠٧) معترفا بأنه أخطأ في دعمه للحرب عندما كان عضوا بمجلس الشيوخ، وعلى أنه بات أكثر المرشحين الديمقراطيين جراءة في معارضة الحرب في ٢٠٠٧، أما هيلاري كلينتون فقد حاولت التنصل من قضية العراق برمتها، وحاولت تصوير مواقف المرشحين تجاه الحرب على أنها متشابهة، والقول بأنها كبقية المرشحين تريد الانسحاب من العراق، مع رفضها الاعتذار عن قرارها المساند للحرب في ٢٠٠٢.

ولكن محاولة إدواردز للالتفاف على موقفه السابق ومحاولة هيلاري تجاهل موقفها السابق لم تفلحا في إرضاء الجماعات المعارضة للحرب والتي منحت أوباما ثقتها بفارق شاسع عن أقرب منافسيه وهي هيلاري كلينتون.

المثير هنا أن موقف أوباما من حرب العراق تميز بالوسطية منذ البداية وحتى النهاية، حيث ركز أوباما على تأكيد موقفه المعارض للحرب منذ بدايتها، وعلى أنه امتلك الرؤية والقدرة على التقدير والحكم التي مكنته من معارضة حرب أيدها عدد كبير من الساسة الأميركيين بالكونجرس وخارجه.

ورأى أوباما أن حل مشكلة حرب العراق يكمن في إيجاد مخرج «مسئول» أو «متوازن» يحفظ للعراق قدرا من استقراره ويحفظ لأميركا قدرا من هيبتها الضائعة، لذا عارض أوباما من يطالبون بانسحاب فوري وسريع للقوات الأميركية من العراق، كما عارض من يحاولون وضع جداول زمنية صارمة لانسحاب القوات الأميركية من العراق.

موقف أوباما من حرب العراق تميز بالوسطية منذ البداية وحتى النهاية

في الوقت نفسه عارض أوباما موقف الجمهوريين المطالبين ببقاء القوات الأميركية في العراق بشكل مفتوح وغير محدد من حيث المدة وحجم القوات. كما عارض فكرة بقاء قوات أميركية دائمة في العراق على غرار ما حدث في بعض بلدان أوربا وآسيا بعد الحرب العالمية الثانية، وعارض أيضا فكرة إرسال المزيد من القوات الأميركية للعراق ضمن إستراتيجية زيادة القوات التي طبقت في أوائل عام ٢٠٠٧.

في المقابل رأى أوباما أن الحل يجب أن يكون تدريجيا وسطا يقوم على بداية انسحاب فوري لبعض القوات الأميركية ووضع سقف زمني عام لانسحاب القوات الأميركية المقاتلة والحفاظ على بعض القوات لأغراض تدريب الجيش العراقي ومكافحة القاعدة والمرتدين وضمان عدم وقوع العراق في أتون الحرب الأهلية وحماية المصالح الأميركية الرئيسية بالعراق كالدبلوماسيين الأميركيين.

ورأى أن بدء الانسحاب ووضع مثل هذا الجدول العام لسحب القوات ضرورة لكي يثبت للعراقيين وغيرهم بأن أميركا غير راغبة في البقاء في العراق بشكل دائم. كما رأى أن بقاء بعض القوات الأميركية المحدودة في العراق على المدى المتوسط ضرورة لكي تثبت أميركا لأعدائها بأنها موجودة في الشرق الأوسط وقادرة على البقاء في العراق وحماية مصالحها هناك.

كما رأى أن بدء في سحب القوات الأميركية ضرورة لأنه سوف يضغط على السياسيين العراقيين للبحث عن حلول لمشاكلهم الداخلية وسيرسل له رسالة قوية عملية مفادها أن صبر أميركا نفد.

الانسحاب

يساند أوباما تقرير «مجموعة عمل العراق» الصادر في أواخر عام ٢٠٠٦ والذي ينادي بإيجاد حل دبلوماسي إقليمي لمشكلة العراق تتعاون فيه الدول المجاورة للعراق مع أميركا في ضمان أمن واستقرار العراق، لذا يطالب أوباما بتفعيل الدبلوماسية الإقليمية والعمل مع جيران العراق كإيران وسوريا والسعودية وتركيا للبحث عن حلول لمشاكل العراق بمساعدتهم، حيث أكد على أهمية الحل الإقليمي. وذكر في أماكن أخرى أن دولا كإيران وسوريا تحاول إلحاق الهزيمة بأميركا في العراق ولكنها لا تريد أن تعم الفوضى بالعراق لأنه مثل هذه الفوضى سوف تعود سلبيا على أمن واستقرار سوريا وإيران، لذا رأى أن الحوار معهما وإشراكهما دبلوماسيا في إيجاد حل لمشكلة العراق هو أمر ضروري.

كما يركز أوباما كثيرا على ضرورة إيجاد حل سياسي داخل العراق نفسه مطالبا على وجه الخصوص بدمج الأقليات خاصة السنة في العملية السياسية بالعراق.

ومع دخول أوباما في سباق الانتخابات الرئاسية (٢٠٠٧) بدأ في وضع العراق ضمن تصور أكبر لإستراتيجية أميركا في مواجهة الإرهاب، حيث أكد على أن العراق شغلت أميركا عن الساحة الأهم للحرب على الإرهاب وهي ساحة أفغانستان، وأن العراق أضرت بمصداقية أميركا وبأمنها وبأمن أصدقائها في المنطقة وعلى رأسهم إسرائيل لأن الحرب قوت جماعات كالقاعدة وأعطت الفرصة لدول كإيران لتطوير برامجها النووية وزيادة دعمها لجماعات مثل حماس وحزب الله، كما طالب بصفة عامة بضرورة بناء سياسة خارجية لأميركا تتخطى العراق وتركز على القضايا الأخرى الهامة لأميركا وأمنها وشعبها.

كما رأى أن الحرب باتت بالغة التكاليف للجيش الأميركي الذي بات عاجزا عن مواجهة أي صراعات عسكرية طارئة بسبب انشغال الجنود الأميركيين بالعراق، وأن الجنود الأميركيين باتوا يتحملون تكلفة عجز القادة العراقيين عن إيجاد حل لمشاكلهم الداخلية.

لذا أكد أوباما أنه لو صار رئيسا فسوف يبدأ فورا في سحب القوات الأميركية من العراق في أوائل عام ٢٠٠٩ على أن يقوم بسحب غالبية القوات خلال ١٦ شهرا مع الإبقاء على عدد محدود للقوات بالتشاور مع القيادات العسكرية الميدانية وفقا للمعايير التي رصدناها سابقا، حيث أكد أوباما على أن السياسة الخارجية الأميركية باتت أسيرة لحرب العراق، وأن التخلص من الحرب وتبعاتها وإيجاد حل سريع لها بات ضرورة لكي تتفرغ أميركا لمواجهة قضايا داخلية وخارجية أهم كأوضاع الاقتصاد الأميركي المتردية وحرب أفغانستان.

ثانيا: إيران

وهكذا رأينا كيف يشعر أوباما بتبعات حرب العراق الثقيلة على أميركا وصورتها واقتصادها وجيشها وكيف يريد سحب القوات الأميركية في أسرع وقت لتوجيهها لمهام أكثر أهمية بالنسبة لأميركا وجيشها في الوقت الراهن، وعلى رأس تلك المهام تأتي إيران والتي تعرض أوباما بسببها لأكبر قدر من النقد من خصومه الديمقراطيين والجمهوريين على حد سواء خلال الانتخابات الرئاسية.

ويعود ذلك لتبني أوباما منهجا مختلفا تجاه إيران عن منهج الإدارة الأميركية الحالية، وهو منهج يقوم على الدبلوماسية كأداة رئيسية في التعامل مع إيران في مقابل المواجهة التي اعتمدتها إدارة بوش. وقد صرح أوباما منذ بداية حملته الرئاسية بأنه لن يتردد في فتح الحوار مع إيران واللقاء بالمسئولين الإيرانيين، وهو أمر بدا مؤسفا ومزعجا لعدد كبير من أنصار إسرائيل في أميركا، والذي رأوا أن موقف أوباما من إيران موقف «مهادن» يعبر عن سذاجة من قبل أوباما مما قد يعرض إسرائيل للخطر في حالة انتخاب أوباما رئيسا للولايات المتحدة.

وزاد النقد لأوباما عندما صرح في إحدى المناظرات أنه لن يتردد في الحوار مع قادة دول معارضة لأميركا ومن بينها إيران «بدون شرط»، وهو أمر تعرض بسببه أوباما لانتقادات واسعة حتى اضطر لتحويره قائلا أنه لن يلتقي بقادة تلك الدول دون إعداد كاف لتلك اللقاءات حتى يتأكد من أن تؤتي الدبلوماسية الأميركية مفعولها.

وفي ظل الصراع الانتخابي الشرس الذي شهدته الانتخابات التمهيدية بين أوباما وهيلاري كلينتون، استخدمت الأخيرة ورقة إيران في هجومها على أوباما ورأت أنها علامة على ضعفه وعدم إدراكه الخطر الإيراني. وبالطبع لم يتردد الجمهوريون في استخدام الورقة ذاتها، حتى أن جورج دبليو بوش انتهز فرصة إلقاء خطاب أمام الكنيست الإسرائيلي بمناسبة الذكرى الستين لقيام دولة إسرائيل لشن هجوم على أوباما بسبب موقفه من إيران داخل الكنيست الإسرائيلي نفسه، حيث شبه بوش موقف أوباما من إيران كموقف بعض الدول الأوروبية التي «غضت الطرف» عن ألمانيا النازية في فترة ما بين الحربين العالميتين مما منح هتلر الوقت الكافي لبناء قوته العسكرية التي قادت لويلات الحرب العالمية الثانية وما ترتب عليها من ويلات في حق يهود أوربا.

أما ماكين فقد سار على درب هيلاري وبوش في نقده لأوباما بخصوص إيران وموقفه من الحوار معها، والذي نظر إليه ماكين كعلامة على عجز أوباما عن قيادة أميركا في عصر «الحرب على الإرهاب».

وعلى الرغم من أهمية الدبلوماسية في خطاب أوباما عن سياسته المستقبلية تجاه إيران، فيمكن القول أن حرب العراق نفسها تعد نقطة الانطلاق الأهم في فهم موقف أوباما من إيران. فالواضح أن نظرة أوباما لإيران حاليا وربما للشرق الأوسط تبدأ من العراق.

حيث ذكر أوباما في عام ٢٠٠٤ وقبل أن يصبح عضوا في مجلس الشيوخ الأميركي في مقابلة صحفية أن حرب العراق حدت من خيارات أميركا في التعامل مع إيران، وجعلت الخيار العسكري أو خيار الحرب صعبا في ظل انشغال القوات الأميركية الكبير بحرب العراق، وإن كان أوباما لم يستبعد الخيار العسكري أو ينفيه بشكل كامل، بل أكد مرارا على أن الخيار العسكري يجب أن يبقى على الطاولة في حالة فشل الدبلوماسية في التعامل مع إيران.

ويذكر أوباما في أماكن متفرقة أن حرب العراق كانت خاطئة من حيث هدفها، لأن العراق في ٢٠٠٢ لم يشكل تهديدا لأميركا أو لإسرائيل كالتهديد الذي شكلته إيران التي كانت تسعى لبناء سلاحها النووي في تلك الفترة، ولكن بدلا من التركيز على مواجهة إيران دخلت إدارة جورج دبليو بوش حربا لا داعي لها مع العراق، وإدارتها بأسلوب كارثي أدى إلى انشغال الجيش الأميركي بالحرب، وتقديمه تضحيات ضخمة لا داعي لها، كما أنه أضعف من صورة أميركا ونفوذها ودورها بالمنطقة، ومنح إيران الوقت والفراغ الإستراتيجي المطلوب لبناء برنامجها النووي وتقوية الجماعات الحليفة لها كشيعة العراق وحماس وحزب الله وبسط نفوذها بالمنطقة.

إستراتيجية جديدة

لذا يرى أوباما أن إستراتيجية بوش تجاه الشرق الأوسط وإيران والعراق كانت المشكلة بأعمدتها الرئيسية كحرب العراق وتغيير النظم ورفض الدبلوماسية المباشرة وتفضيل المواجهة على الدبلوماسية بشكل

عام، وأن التعامل الأفضل مع إيران يتطلب إستراتيجية جديدة مغايرة لإستراتيجية بوش لحد كبير. إستراتيجية تقوم على ما يلي:

أولا: سحب القوات الأميركية من العراق لكي تتخلى أميركا مشكلة العراق، وتبحث فيما بعدها وتركز على القضايا المهمة كعملية السلام، ومواجهة الخطر الإيراني، والذي وصفه أوباما في آخر خطبه أمام منظمة الإيباك بأنه «أكبر تهديد لسلام واستقرار المنطقة».

كما أن سحب القوات الأميركية من العراق سوف يكون بمثابة عامل ضغط قوي ضد إيران والتي تشعر بأن انغماس القوات الأميركية في العراق مفيد لها وعامل حماية يدفع شبح الحرب بعيدا عنها.

ثانيا: يريد أوباما تبني دبلوماسية نشطة في التعامل مع إيران، دبلوماسية تقوم على فتح باب الحوار المباشر مع إيران، وفي الغالب سوف يبدأ هذا الحوار على مستويات دبلوماسية منخفضة وحول قضايا كاستقرار العراق وبرنامج إيران النووي، على أن يتبع هذا الحوار بلقاءات دبلوماسية أعلى في حالة حدوث تقدم في الجانب الإيراني خاصة على صعيد وقف برنامجها النووي.

ثالثا: سوف يرسل أوباما رسالة واضحة للنظام الإيراني بخصوص جدية الدبلوماسية الأميركية وحرصها على وقف برامج إيران النووية في مقابل رفع العقوبات الدولية عن إيران وضمها في المجتمع الدولي.

رابعا: سوف تعد إدارة أوباما حزمة قاسية من العقوبات التي سوف تتعرض لها إيران في حالة عدم استجابتها مع الدعوة الأميركية للحوار، سوف تبدأ هذه العقوبات بمبادرات مثل حث الشركات الأميركية على عدم الاستثمار في إيران، وهي مبادرة يدعمها أوباما من خلال تقديمه قوانين تحث الولايات والحكومات المحلية الأميركية على عدم تشجيع تعاون الشركات المحلية للاستثمار في إيران، كما تتضمن حث المجتمع الدولي على عدم التجارة أو الاستثمار أو تصدير الطاقة إلى إيران.

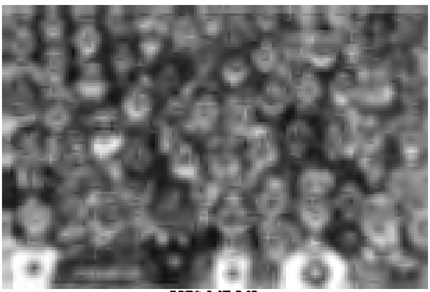
ويقول أوباما أنه سوف يعمل كرئيس لأميركا على إشراك دول الشرق الأوسط كمصر والسعودية في فرض نظام إقليمي لعقاب إيران بالتعاون مع إسرائيل، كما أنه سوف يتوجه لدول كالصين وروسيا ومنظمات دولية كمجلس الأمن الدولي لمساعدته في فرض تلك العقوبات.

في المقابل سوف تقدم أميركا «جزرة»

.. الصحافة الأمريكية ..



قبل..
The New Yorker (July 21)



YES, WE DID.

بعد..
The St. Louis Post Dispatch (Nov 4 2008)

واضحة يمكنها التمتع بها في حالة المضي قدما في مباحثات وقف برنامجها النووي، وتتكون الجزرة الأميركية من مزايا كالتعاون الاقتصادي والضمانات الأمنية والعلاقات الدبلوماسية.

خامسا: يرى أوباما أن تبني أميركا لنهج الحوار مع إيران واستنفادها لسبل الحوار في التعامل مع النظام الإيراني سوف يمنح أميركا المصداقية المطلوبة للمطالبة بتعاون دولي أكبر من المجتمع الدولي في فرض عقوبات على إيران في حالة عدم استجابتها للدبلوماسية الأميركية النشطة.

سادسا: يؤمن أوباما بضرورة عدم استبعاد الخيار العسكري كملاذ أخير في التعامل مع إيران وإيقاف برامجها النووية في حالة عدم استجابة إيران لمبادرات أميركا الدبلوماسية.

ثالثا: عملية السلام

رأينا فيما سبق حرص أوباما على إيجاد حل سريع وإقليمي لمشكلة العراق حتى يتفرغ لمشاكل أكبر في المنطقة وعلى رأسها إيران وعملية السلام، إذ يريد أوباما استخدام الجيش الأميركي المنسحب من العراق كعامل تهديد لإيران، كما يريد أن يستخدم الدبلوماسية الأميركية التي أنهكتها حرب العراق في العمل على تحريك عملية السلام العربية الإسرائيلية.

لذا تأتي عملية السلام في اعتقادي في مرتبة تالية بعد العراق وإيران لدى أوباما، ومع ذلك تعرض أوباما لنقد كبير من لوبي إسرائيل وممثليه في الولايات المتحدة خلال الانتخابات الرئاسية بسبب مواقفه التي مالت للحوار وإلى الرغبة في دفع عملية السلام إلى الأمام هذا إضافة إلى قلة سنوات خدمة أوباما بواشنطن، وكونه جديدا طارئا على الساحة السياسية الأميركية، وسجله السياسي ضعيف مما يجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل التأكد من مواقفه الحقيقية ناهيك عن نواياه ووجهة سياساته القادمة.

هذا إضافة إلى أن أوباما من خلفية فريدة، فهو أفريقي أميركي ولد لأب مسلم مهاجر إلى أميركا، كما أنه تعلم في صباه لمدة أربع سنوات بإندونيسيا - أكبر البلدان المسلمة من حيث عدد السكان، وارتبط بعلاقة صداقة ببعض رموز الفلسطينيين الأميركيين خلال الفترة السابقة على دخوله مجلس الشيوخ الأميركي، حيث تشير تقارير

ويقول أوباما أنه سوف يعمل كرئيس لأميركا على إشراك دول الشرق الأوسط كمصر والسعودية في فرض نظام إقليمي لعقاب إيران بالتعاون مع اسرائيل

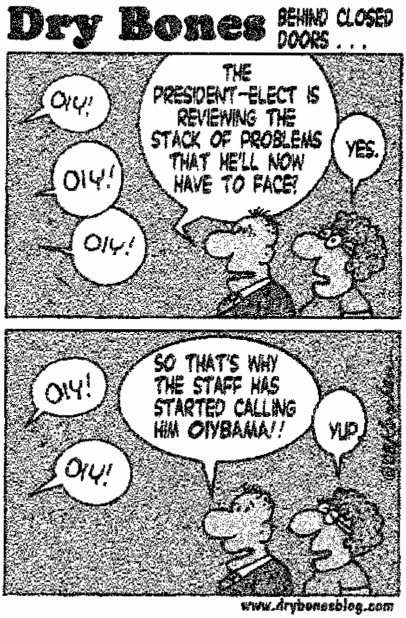
مختلفة على أن أوباما درس في جامعة كولومبيا على أيدي البروفيسور الفلسطيني الأميركي الراحل إدوارد سعيد، والذي يعد أحد أهم الرموز الفكرية الداعمة للحق الفلسطيني بأميركا خلال العقود الأخيرة.

كما ارتبط أوباما بعلاقة شخصية وعائلية بالبروفيسور رشيد خالدي خلال فترة إقامة خالدي بشيكاغو قبل انتقاله للتدريس بجامعة كولومبيا بنيويورك، والمعروف أن خالدي يدور أحد أكبر الناشطين في الدفاع عن الحق الفلسطيني، وتشير التقارير أن علاقة خالدي الوثيقة بأوباما دفعت خالدي لتنظيم حملات لجمع تبرعات لأوباما عندما كان عضوا بمجلس شيوخ ولاية إلينوي.

كما تشير تقارير مختلفة إلى أن أوباما حضر مؤتمرات ولقاءات لناشطين فلسطينيين بأميركا نظم بعضها خالدي، وأن أوباما استمع خلال بعض تلك اللقاءات لأفكار وخطب معادية لإسرائيل، وأنه أبدى تفهمه لوجهة النظر الفلسطينية. وتحدث في تلك المؤتمرات بكلمات طالب فيها بسياسة أميركية «متوازنة» نالت إعجاب الحاضرين من النشطاء الفلسطينيين ونالت سخط بعضهم، وانقسم آخرون حولها.

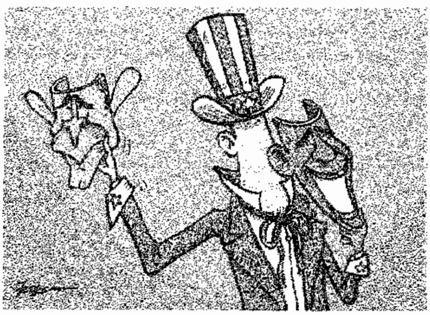
حيث رأى البعض أن أوباما رجل قادر على فهم معاناة الشعوب المختلفة بسبب خلفيته الثقافية والعرقية المختلطة، ورأى آخرون أن أوباما سياسي كلما توغل في الحياة السياسية وترقى في المناصب صار أكثر حذرا، وأكثر حرصا على عدم إغضاب أي طرف من الأطراف خاصة إذا امتلك هذا الطرف نفوذا سياسيا كبيرا قد يؤثر على حظوظ أوباما الانتخابية.

وزادت مشكلة أوباما مع لوبي إسرائيل بسبب بعض المواقف التي تبناها منذ بداية حملته للفوز بالرئاسة الأميركية في فبراير ٢٠٠٧، وعلى رأس تلك المواقف موقفه من إيران، حيث أعرب عن استعداده للدخول في حوار مباشر «غير مشروط» مع الإيرانيين لحل مشكلة برنامجهم النووي، ويضاف إلى ذلك تصريحات أدلى بها أوباما في عام ٢٠٠٧ ذكر فيه «أن لا أحد يعاني أكثر من الشعب الفلسطيني» وكان هذا جزءا من تصريح أطول عن فشل القادة الفلسطينيين في التوصل لاتفاق سلام مع إسرائيل، ولكن بعض أنصار إسرائيل وأعداء أوباما ركزوا على المقطع الأول من تصريح أوباما الذي يتحدث عن «معاناة الفلسطينيين»، وأهملوا المقطع



إسرائيل

The Jerusalem Post Dispatch (Nov 11 2008)



Change of Image

الفلبين

The Philippines, Manila, (Nov 13 2008)

الثاني الذي يعود بتلك المعاناة على القادة الفلسطينيين أنفسهم وفشلهم في «الاعتراف» بإسرائيل، وبالطبع لم يرض معارضو أوباما أن يتحدث عن أن يقول بأن لا أحد يعاني أكثر من الفلسطينيين بأي شكل من الأشكال أو في أي سياق.

وزاد من مشكلة أوباما تصريح أدلى به د. أحمد يوسف المستشار السياسي لرئيس الوزراء الفلسطيني المقال إسماعيل هنية - زعيم حركة حماس في غزة، حيث صرح يوسف لإحدى وسائل الإعلام الأميركية قائلا بأنه يفضل أوباما على غيره من المرشحين الأميركيين في الانتخابات التمهيدية مشبها أوباما بجون كينيدي.

لذا تجمعت عوامل مختلفة دعمت شكوك أنصار إسرائيل في أوباما وهي شكوك ظهرت في كتابات الصحف الإسرائيلية، وفي التقارير الدولية التي تحدثت عن عدم رضا الإسرائيليين عن أوباما وتفضيلهم هيلاري كلينتون خاصة أن الاستطلاعات أظهرت ذلك. كما ظهرت الشكوك ذاتها في أوساط اليهود الأميركيين على المستوى المحلي بالولايات المتحدة، وخاصة في ولايات مثل فلوريدا والتي تعرف تجمعات مهمة للناخبين اليهود الأميركيين.

حيث كشفت وسائل الإعلام عن حملة شرسة وواسعة الانتشار ومؤثرة تعرضت لها أوباما في أوساط الناخبين اليهود الأميركيين، وقد أخذت الحملة أحيانا صورة دعاية ورسائل بريدية إلكترونية ومقالات تهاجم أوباما، وتحاول الربط بين جذوره المسلمة، وعلاقاته ببعض الناشطين الفلسطينيين الأميركيين، وبعض تصريحاته وموقفه تجاه إيران، وغير ذلك من القضايا التي شرحناها سابقا، وذلك للقول بأن أوباما معارض لإسرائيل لا يدعمها بشكل كاف ومناصر للعرب.

وقد وصل نفوذ الحملات السابقة درجة كبيرة دفعت أوباما نفسه لعقد أكثر من لقاء مع الناخبين اليهود الأميركيين على المستوى المحلي لمحاولة شرح مواقفه وكسب ودهم، كما أنه أرسل مبعوثين يهودا أميركيين نيابة عنه وعن حملته للتحديث للمنظمات اليهودية الأميركية، وعلى رأسهم النائب اليهودي الأميركي روبرت وكسلر (ديمقراطي عن ولاية فلوريدا) وعضو رئيسي بحملة أوباما وفريق عمله تجاه الشرق الأوسط، حيث أكد وكسلر أنه ودينيس روس Dennis

Ross مبعوث بيل كلينتون للشرق الاوسط هما أهم مستشارين لأوباما بخصوص إسرائيل.

تفاصيل دبلوماسية

أوباما تجاه عملية السلام

وبعيدا عن الاتهامات السابقة التى سعى أوباما نفسه لنفيها يمكن الإشارة إلى أن أوباما زار إسرائيل لأول مرة فى أوائل عام ٢٠٠٦، أى بعد عام من دخوله مجلس الشيوخ الأميركى فى أوائل عام ٢٠٠٥، ومنذ ذلك الحين وأوباما يعبر عن مجموعة من الأفكار الرئيسية المتعلقة بعملية السلام الفلسطينية - الإسرائيلية التى نلخصها فيما يلى:

أولا: يدعم أوباما التقدم فى عملية السلام القائمة على أساس حل الدولتين، وقد عبر تكرارا عن انتقاده لنهج إدارة جورج دبليو بوش الذى لم يركز بشكل كاف على عملية السلام وانشغل عنها بحرب العراق.

ثانيا: فيما يتعلق بدعم أوباما لإسرائيل، لم يجد أوباما غضاضة فى التعبير عن هذا الدعم بصور مختلفة، حيث عبر أوباما تكرارا عن التزامه بالدفاع عن أمن إسرائيل ضد أعدائها كإيران، كما ساند إسرائيل فى حربها ضد لبنان فى صيف عام ٢٠٠٦، وساند أيضا حق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها ضد هجمات حزب الله وحماس، كما ساند زيادة الدعم العسكرى لإسرائيل من حيث الكم والنوع، وضرورة منح إسرائيل أسلحة أميركية متقدمة تضمن لها التفوق على خصومها.

ثالثا: تحدث أوباما فى مناسبات مختلفة عن تفهمه للتنازلات «المؤلمة» التى تقدمها إسرائيل من أجل السلام، كما وصف مطالب منظمات كحماس وحزب الله بأنها «مشروعة» يضعفها «لجوؤهم للعنف»، كما ذكر فى مناسبات مختلفة أن غالبية الإسرائيليين مجمعون على السلام، وأن الإسرائيليين يريدون التقدم فى عملية السلام فى حالة وجود شريك فلسطينى «مسئول»، وتتماشى التصريحات السابقة مع انتقادات أدلى بها أوباما لحزب الليكود الإسرائيلى وعلى موقفه المعارض للسلام، وعلى موقف الأميركيين الذى يرون أن السياسة الأميركية المساندة لإسرائيل يجب أن تتماشى مع سياسة الليكود، وهى تصريحات أزعجت بعض أنصار إسرائيل فى أميركا، ودافع عنها بعض مستشارى أوباما من اليهود الأميركيين. وبذلك يبدو أوباما مرة أخرى داعما لتقدم عملية السلام رافضا للمطالبين بالتخلى عنها حريصا على الفوز بدعم وتأييد اليهود الأميركيين من خلال التأكيد على دعمه لإسرائيل المتزامن مع دعمه لعملية السلام.

رابعا: فيما يتعلق بموقف أوباما تجاه تفاصيل عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية يؤكد أوباما على يهودية دولة إسرائيل ويعارض حق العودة الفلسطينى، كما يرفض الضغط على إسرائيل، ويتجنب الحديث عن مبدأ «الأرض مقابل السلام»، ولكنه يتحدث عن تنازلات «مؤلمة» يجب أن تقدمها إسرائيل للمضى قدما فى عملية السلام، ولا يدعم أوباما الجدار العازل بشكل واضح، كما يرفض مزيدا من المستوطنات، كما يعارض سياسة حصار غزة والهجوم عليها ويرى أنها لا تعود على إسرائيل بنتائج إيجابية، وإن كان أوباما قد عارض إصدار قرار من مجلس الأمن ينتقد إسرائيل بسبب الحصار المفروض على غزة.

كما يرفض أوباما الحوار مع حركة حماس، وينادى بعزلها حتى تقبل بإسرائيل وبالاتفاقيات السابقة وتتخلى عن العنف، ويؤكد أن موقفه تجاه حماس لا يختلف عن موقف جون ماكين تجاهها، وأنه عارض إرجاء الانتخابات الفلسطينية التى أدت لصعود حماس وسيطرتها على الحكومة الفلسطينية.

كما يعارض أوباما جهود الإصلاح بين فتح وحماس، حيث عارض اتفاقية مكة، ويطالب أوباما فى المقابل الدول العربية بدعم السلطة الوطنية الفلسطينية بزعامة الرئيس الفلسطينى محمود عباس من خلال تقديم الدعم الدبلوماسى والمعنوى له.

كما يطالب أوباما إسرائيل بمساعدة عباس من خلال التقدم فى عملية السلام وتخفيض المعاناة التى يواجهها الفلسطينيون يوميا بسبب الاحتلال، والموافقة على تقديم مساعدات دولية مباشرة للسلطة الفلسطينية.

أما بخصوص القدس وهى أحد أهم قضايا عملية السلام على الإطلاق فقد عبر أوباما خلال خطاب ألقاه فى يونيو الماضى - أمام لجنة الشئون العامة الأميركية الإسرائيلية أو الإيباك AIPAC وهى أكبر منظمات لوبى إسرائيل - عن دعمه للقدس «غير المقسمة» كعاصمة لدولة إسرائيل، ويقول البعض أن الموقف السابق ليس جديدا وأن أوباما سبق وعبر عن دعمه للقدس «الموحدة» كعاصمة لإسرائيل فى خطاب أرسل به لتنظيمات يهودية أميركية فى شيكاغو فى عام ٢٠٠٠.

ويقول آخرون أن وعد أوباما السابق ليس إلا وعدا خطابيا سبق أن التزم به العديد من المرشحين الرئاسيين الأميركيين فى الماضى ولكنهم لم يلتزموا به فور وصولهم للرئاسة الأميركية.

كما ذكرت تقارير إعلامية أن حملة أوباما تراجعت بعد خطاب الإيباك عن فكرة القدس «غير المقسمة»، وقالت أن أوباما كان يعنى قدسا غير مقسمة بجدار عازل، وأن أوباما يؤمن بترك وضع القدس وغيره من القضايا الهامة للمفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

وبهذا يبدو مرة آخرى منهج أوباما الحريص على دعم عملية السلام والدبلوماسية وعلى إظهار دعمه لإسرائيل، كما يظهر ميل أوباما لإرضاء الإيباك وجمهور لوبى إسرائيل مع تقدم حملته الانتخابية ومع اقتراب موعد انتخابات الرئاسة الأميركية.

خامسا: على المستوى الإقليمى، دعم أوباما حرب لبنان وهجوم إسرائيل الأخير على بعض المنشآت داخل سوريا، ولكنه فى نفس الوقت يدعم التقدم فى مباحثات السلام السورية - الإسرائيلية، حيث يرى مستشاره روبرت لايك أن الدخول فى حوار مع سوريا مفيد لعزلها عن إيران، كما يدعم أيضا العمل على «إقناعها» بالتعاون مع إسرائيل والتعاون معها فى مواجهة خطر إيران والحد من الدعم الإيرانى لحماس.

خاتمة

يظهر مما سبق موقف أوباما الحريص بشكل عام على تغليب الدبلوماسية فى التعامل مع قضايا العالم العربى من خلال العمل لإيجاد حل إقليمى لمشكلة العراق ولمواجهة إيران ولدفع عملية السلام العربية الإسرائيلية للإمام.

ولكن ذلك لا يعنى انعدام التناقض من مواقف أوباما، فهو يريد سحب القوات الأميركية فورا من العراق على أن يبقى على عدد محدود ولكنه غير محدد من القوات الأميركية هناك لفترة غير محددة للقيام بمهام غير محددة كذلك، مما يفتح الباب لبقاء القوات الأميركية هناك، كما أن أوباما يريد تغليب الدبلوماسية فى التعامل مع إيران، ولكنه فى نفس الوقت يريد سحب القوات الأميركية من العراق لاستخدامها كعامل ضغط ضد إيران.

ويظهر التناقض السابق واضحا فى موقف أوباما تجاه عملية السلام وذلك لدرجة لجوء أوباما وحملته لتحوير تصريحاته بخصوص القضية أكثر من مرة، فتارة يؤكد أوباما على ضرورة الدفع بعملية السلام إلى الأمام وتارة أخرى يرى أنه لا يثق فى إمكانية حدوث تقدم ولكنه سوف يسعى للمحاولة، كما ينتقد أوباما الليكود ويؤكد فى نفس الوقت على حرصه على عدم الضغط على إسرائيل.

هذا يعنى أن سياسات أوباما تجاه الشرق الأوسط ليست واضحة بعد وأنها مازالت فى طور التكوين وتتطلب مزيدا من البحث والدراسة خاصة مع إعلان أوباما عن إدارته الجديدة والتى قد تمثل وسيلة إضافية هامة لفهم وجهة إدارة أوباما المستقبلية الحقيقية تجاه العالم العربى. ■

يرفض أوباما الحوار
مع حركة حماس،
وينادى بعزلها حتى تقبل بإسرائيل
وبالاتفاقيات السابقة
وتتخلى عن العنف

قـــــــراءة فـــى الوثـــــــائق الأمريكيــــــة

القاهرة وواشنطن



■ ■ سيطر على الكثير من أبناء هذا الجيل هاجس وهو أن العلاقة بين مصر عبد الناصر والولايات المتحدة الأمريكية، خاصة فى فترة الخمسينيات، قد شابها نوع من التوتر والفتور منذ بداية الثورة وحتى نهاية الحقبة الناصرية فى سبعينيات القرن الماضى. وكان مرجع هذا بالنسبة لأبناء هذا الجيل، الذى خُدع بهذه المظاهر، حرب ١٩٦٧، وما ترتب عليها من نتائج فى تصوير وتكريس صورة العداء، وكأن القتامة كانت طابع العلاقة بين الدولتين أو إن شئنا بين القوتين: قوة الولايات المتحدة: كقوة عالمية (global power)، وقوة مصر: كقوة إقليمية (regional power)، متناسية أن العلاقات فى كثير من الأحيان تحكمها محددات رئيسية، وأن هنالك ما يعرف بالدبلوماسية العلنية (the overt diplomacy) والدبلوماسية التحتية (the covert diplomacy) وكل منهما لا تتعارض مع الأخرى فى بعض الأحيان، بل ربما تخدمها لأغراض وأهداف خاصة بهذه الدولة أو غيرها.

وفى عملنا هذا أردنا أن نسلط الضوء على: كيف أن العلاقة، خاصة فى فترة الخمسينيات، كانت عبارة عن تقارب وتباعد، لعب فيها بلا شك صانعو القرار فى كلتا الدولتين دوراً واضحاً، كما أن واقع الأحداث فى الغالب الأعم أثر على هذا التناقض فى العلاقة؟ ونتساءل: هل هنالك قوى خارجية ساهمت فى صناعة هذا؟ وهل الأوضاع الداخلية فى كلتا الدولتين تلعب دورا، وربما يكون أساسياً، فى صنع هذا أيضاً؟ وهل كان التقارب إفرازاً طبيعياً لمصالح الدولتين؟ وهل كان التباعد مقصوداً فى حد ذاته، أم أنه كان عبارة عن ردود أفعال تتماشى وتتفق مع وضع القوتين؟ لقد وضحت المتناقضات والتى تؤدى فى النهاية إلى صراعات وإحباطات.

والدراسة تتناول العديد من الفصول التى تسلط الضوء على نماذج من هذا التقارب والتباعد فى العلاقة منذ بداية الثورة وسيطرة جماعة الضباط على الحكم فى مصر. وكيف عضدت الولايات المتحدة مواقف هذه الجماعة من أجل السيطرة على مقاليد الأمور أملاً فى أن تجد منها صدراً مرحباً بمشاريع الدفاع الغربية، التى كانت جل آمال الولايات المتحدة آنذاك، من أجل احتواء الخطر السوفيتى. وكأن الرياح لا تأتى بما تشتهى السفن: فعوامل كثيرة دفعت بالقوى الإقليمية أن تتباعد حفاظاً على مكانتها وموضعها. لقد كانت القوى الجديدة الحاكمة فى مصر أسيرة ميراث طويل فى دور مصر القيادى الرافض للارتباط بالغرب، مما دفع بالقوى العالمية (الولايات المتحدة) بالسعى إلى شكل جديد لاحتواء الموقف، وكانت مشاريع السلام بين مصر وإسرائيل هى الحل بالنسبة لصانع السياسة الأمريكية، الذى رأى فيها حلاً نموذجياً قد يدفع بالقوى الإقليمية لإيقاف الاقتراب من الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية، وأن صفقة السلاح التى مكّنت الاتحاد السوفيتى من القفز فوق أسوار الأحلاف الغربية سوف تكون أول وآخر صفقة. هكذا لم يكن السلام هو المقصود فى حد ذاته، بل كان احتواء المد الشيوعى. وبالتالى ليزداد التباعد لعدم فهم الطرفين لحقيقة أوضاع كل منهما: فكل طرف بدأ يُقيِّم المواقف تبعاً لمصالحه. فقد كان من الاستحالة بمكان أن يقبل عبد الناصر فى ذلك الوقت فرص السلام تبعاً (للشروط الإسرائيلية).

لقد رفض السلام (المفروض) وأصبحت مصر فى نظر صانعى القرار فى واشنطن من الدول المارقة إذا جاز لنا التعبير. وزاد التباعد واندفعت الولايات المتحدة، حفاظاً على هيبة الغرب، فى عقاب مصر. وقد وضح هذا فى سحب تمويل مشروع السد العالى. وردت عليه مصر بإعلان تأميم شركة قناة السويس. وتوقع الجميع القطيعة إلا أنه حدث عكس ما كان متوقعاً. فقد بدأ التقارب منذ بدايات الأزمة. كلٌ يسعى لتحقيق هدفه: فمصر من أجل الخروج من الأزمة وتفويت الفرصة على المتربصين بها، والولايات المتحدة من أجل إنقاذ مكانة الغرب ومصالحه فى المنطقة، ضاربة الصفح عن علاقتها التقليدية مع حلفاء (الناتو)، متناسية إلى حد ما صداقة إسرائيل. المهم هو عدم إهدار المصالح الغربية، وعدم إعطاء الاتحاد السوفيتى الفرصة للصيد فى الماء العكر، وهذا ما نجحت فيه مصر والولايات المتحدة مرحلياً.

إلا أنه بانقضاء العدوان أصبح لا بد من إعادة رسم الخريطة من جديد. فلقد حدث فراغ فى المنطقة من المنظور الأمريكى وكان لا بد أن يملأ هذا الفراغ، فصدر مبدأ أيزنهاور مع بدايات ١٩٥٧. لقد انقضى شهر العسل، وهنا تبدأ مرحلة جديدة من التباعد بين القوى العظمى والقوى الإقليمية التى اتهمت صراحة بأنها تهدد مصالح الغرب ومن يلوذون بفلكه فى المنطقة. ولم يكن صانع القرار فى الأغلب قادرا على فهم الفرق بين التيار القومى والمد الشيوعى. وتقع العديد من الأزمات فى المنطقة التى كان من أشهرها آنذاك الأزمة الأردنية والأزمة السورية. وقد حاولت الولايات المتحدة أن تنحو منحى بعيداً عن الاقتراب من مصر، باحثة عن حلول قد تتعارض وتتناقض مع سابق سياستها فى أثناء أزمة السويس. وكأنها فى النهاية لم تجد إلا سبيلاً واحداً ألا وهو أن مصر هى القادرة على حل الأزمة بالنسبة للغرب ولنفسها. لقد أثبت مبدأ أيزنهاور واستراتيجيات القوى العظمى عجزهما عن إدارة بعض الأزمات. ووضح أن عبد الناصر بما لديه من مقومات الزعامة وتاريخ مصر الطويل قادر على احتواء هذه الأزمات. وفى النهاية سلّمت الولايات المتحدة بضرورة التقارب ولو مرحلياً، مؤمنة بأن التباعد فى هذا الوقت الذى تتصاعد فيه حمى القومية العربية لا يخدم المصالح الأمريكية بقدر ما يهددها. وكان عبد الناصر من خلال ما أحرزه من انتصارات، ولو على المستوى السياسى، مدركاً لأبعاد اللعبة: فهو لم يتباعد كلية ولم يتقارب بصورة فجة: فلقد ترك الباب موارباً فى التعامل مع الغرب فى هذه المرحلة. لقد أدرك الجميع واعترف صانعو السياسة الأمريكية من أيزنهاور إلى دالاس، بأن مصر عبد الناصر هى القادرة على أن تضع الأمور فى نصابها طالما اعتُرف لها بالريادة والقيادة. وهذا ما سنحاول أن نسلط عليه الضوء من خلال هذا العمل. ■

محمد عبدالوهاب سيد أحمد

من مقدمة:
«العلاقات المصرية الأمريكية.. من التقارب إلى التباعد ١٩٥٢ - ١٩٥٨»
د. محمد عبدالوهاب سيد أحمد
القاهرة، دار الشروق ١٧٢ صفحة - ٢٠٠٧

مسيرة الديموقراطية الأمريكية

الهجوم على العقل

شريف عكاشة

■ صدر هذا العام كتاب جديد بعنوان «الهجوم على العقل» لنائب الرئيس الأمريكي الأسبق آل جور أثار جدلا واسعا في الأوساط السياسية والأكاديمية في الولايات المتحدة الأمريكية لما يتضمنه من تقييم جريء لفترة حكم الرئيس جورج دبليو بوش، ينفذ الكاتب من خلاله إلى إعادة تقييم شامل لمسيرة الديموقراطية الأمريكية على مدى قرنين من الزمان هما عمر هذه القوة العظمى في إطار فكري متكامل يجمع بين التحليل السياسي المستمد من الخبرة والاحتكاك الواقعي المباشر بثوابت ومتغيرات السياسة الأمريكية والرؤية الفلسفية الكلية المتجاوزة للسياق الآني للأحداث والنابعة من سعة اطلاع المؤلف وامتلاكه لناصية العديد من العلوم السياسية والاجتماعية والطبيعية التي استعان بها لدعم آرائه. ويقع الكتاب في مائتين وخمسين صفحة ويتكون من مقدمة وتسعة فصول وخاتمة. وفي مقدمة الكتاب يوضح آل جور أهم الدوافع التي دعته إلى تأليف الكتاب والتي أهمها انحراف السياسة الأمريكية منذ بداية حكم بوش عن ثوابت العقد الاجتماعي الأمريكي كما يجسده الدستور الأمريكي وميثاق الحقوق الذي ظل على مدى قرنين بمثابة ميثاق غليظ في عنق جميع الأمريكيين، نتيجة عوامل عديدة منها سيطرة رأس المال على الحملات الانتخابية وتجاوز رئيس الجمهورية لحدود الصلاحيات التي يخولها له الدستور وتقلص دور المشاركة الشعبية في العملية الديموقراطية مما أدى إلى تراجع دور العقل والحوار الهادئ بين أفراد المجتمع، والذي يعد اللبنة الأولى في أي نظام ديموقراطي. ويوضح آل جور في مقدمة كتابه أنه لا يرمي إلى تحميل الرئيس جورج دبليو بوش وحده تبعات هذا الوضع المتردي الذي آل إليه حال الديموقراطية في أكبر بلد ديموقراطي في العالم، نظرا لأنه في أي نظام ديموقراطي لا يمكن تحميل فرد واحد المسئولية عن جميع الأخطاء لأن النظام الديموقراطي ذاته يحمل من الكوابح والضوابط ما يمكن أن يمنع أي فرد من إساءة استغلال سلطته، إلا أن نواب الأمة الممثلين في هيئتها التشريعية تهاونوا في استخدام هذه الموازنات مما أدى إلى ارتكاب العديد من الأخطاء الفادحة كان أهمها الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ وفي الفصول التالية يوضح الكاتب وجهة نظره حول العوامل والمتغيرات الاجتماعية والنفسية والسياسية التي أوصلت الأمريكيين إلى ذلك النفق المظلم والمأزق التاريخي الحرج.



The Assault on Reason
الهجوم على العقل
Al Gore
320pp, $25.95
Penguin, 2008

سياسة تكريس الخوف

في الفصل الأول الذي يحمل عنوان «سياسة تكريس الخوف» يحلل آل جور علاقة التناسب العكسي بين الخوف والعقل حيث يرى أن «الخوف هو أعدى أعداء العقل، وكلاهما ضروري لبقاء النوع البشري، إلا أن العلاقة بينهما غير متوازنة... إن تفهم هذه العلاقة غير المتكافئة بين الخوف والعقل يمثل في نظر آل جور المدخل لفهم السياسة الأمريكية في الماضي والحاضر. ففي الماضي الأمريكي البعيد نجح «المؤسسون» في تحقيق فهم متزن للمخاطر التي تنجم عن سيطرة الخوف على العقل، لذا فإنهم لم يختاروا للولايات المتحدة الأمريكية صيغة من الديموقراطية المباشرة بل فضلوا الديموقراطية التمثيلية حتى لا تتغلب المخاوف الدهماوية على التفكير المتروي في أوقات المحن. أما عن الماضي القريب، فيتساءل آل جور، هل ما نحن بصدده الآن أشد خطرا مما كنا عليه إبان الحرب العالمية الثانية، وإبان فترة الحرب الباردة حيث كنا بإزاء عدو أيديولوجي يوجه رؤوسه النووية باتجاهنا -تلك الرؤوس التي كان يمكن أن تفني حضارتنا بين طرفة عين وانتباهتها؟ ومع ذلك، لم يظهر بيننا من حاول تكريس هذه المخاطر للسيطرة على العامة وتعبئتهم مستغلا ذلك الشعور بالخوف الذي قد ينجم عن الإحساس بفداحة الخطر... ويستشهد الكاتب في هذا المقام بمقولة فرانكلين روزفلت الشهيرة: إن ما يجب أن نخافه هو الخوف نفسه. وهنا يفرق آل جور بين المخاوف المشروعة التي يمكن التغلب عليها أو مهادنتها عن طريق إعمال العقل والمخاوف الوهمية التي لا تخضع لسلطان العقل بل تخضع العقل لسلطانها إلى حد أنها قد تصيبه بالشلل، وهو ما يمثل الوضع الراهن في المسرح السياسي الأمريكي إذ نجحت طغمة من الساسة الديماجوجيين في استغلال الهواجس المخيفة التي أعقبت صدمة ١١ سبتمبر لتعبئة الرأي العام من أجل الدخول في مغامرات عسكرية ضد أعداء لا وجود لهم. ثم يمضي الكاتب قدما إلى تحليل نفسي عميق لشعور الخوف في الوعي السياسي والاجتماعي الأمريكي المعاصر يجمع فيه بين علم النفس الاجتماعي وعلم نفس الأعصاب حيث إن علم النفس الاجتماعي يختص في شق منه بدراسة المجتمع كما لو كان كيانا فرديا يخضع لنفس المؤثرات ويمر بنفس التجارب والأزمات النفسية التي يمر بها الإنسان الفرد، أما علم نفس الأعصاب فإنه يدرس العلاقة بين المخ وتركيبه الفسيولوجي والجيني من ناحية وبين المستويات المعرفية والانفعالية المرتبطة بهذا التركيب من ناحية أخرى. والجديد في عالم آل جور أنه ينتقل من دراسة المخ الفردي إلى دراسة المخ الجمعي من خلال تشريحه لسياسة تكريس الخوف التي تتبناها الإدارة الأمريكية الحالية. وينطلق آل جور في هذا الصدد من أن الديموقراطية في جوهرها هي نوع من الحوار العاقل بين أفراد عاقلين من أجل اتخاذ قرارات عاقلة، بيد أن الدراسة النفسية تؤكد أن الواقع العملي يختلف تماما عن هذه الفرضية النظرية حيث إن حياتنا العقلية تتحكم فيها مجموعة من العواطف والدوافع والرغبات التي يربطها -ظاهريا- رابط سببي إلا أنها في الواقع تحدوها بواعث مغايرة تماما.



أي خلل في العلاقة بين السلطة والثروة يهدد النظام الديموقراطي

والانفعالات لها من القدرة على التحكم في العقل أكثر من قدرة العقل على التحكم في الانفعالات. ومن بين هذه الانفعالات انفعال الخوف الذي يعد مركزه في المخ منطقة اللوزة المخية أو «الأميجدالا» amygdala وهي عبارة عن لفيفة من الأعصاب مسئولة عن إنتاج ردود أفعال نفسية مهمة لبقاء نوعنا البشري أهمها الشعور الشديد بالخوف عند الإحساس بالخطر، وهو ما يمثل مرحلة قديمة وبدائية في تطور الوظائف الانفعالية للمخ، أما التفكير العقلاني وهو التطور الأحدث، فإنه يعتمد على عمليات مخية أكثر تعقيدا توازن بين التهديدات الحقيقية والتهديدات الزائفة ويقوم فيها العقل بفلترة مشاعر الخوف. وفي حالة سيطرة مثير الخوف، يلجأ المخ الى طرق مختصرة يطلق عليها «حدسيات الانفعال» حيث تساعدنا هذه الحدسيات على تجنب مواطن الخطر، إلا أنه في حالة اشتداد تأثير المنبه الخارجي فإن اللجوء إليها يمكن أن يطغى تماما على عملية العقلنة. أما الذاكرة، فإنها ليست كما يعتقد البعض ذلك الصندوق الكبير الذي يحتكره العقل وحده وإنما هناك وحدات للذاكرة خاصة بكل انفعال على حدة، وبوجه عام، فإذا ما تم نقل حدث ما إلى الذاكرة فإنه يأخذ «بطاقة زمنية» يحدد عليها الزمن الذي وقع فيه؛ إلا أنه في حالة الأحداث المفجعة مثل الاغتصاب مثلا تتم إزالة هذه البطاقة الزمنية ليصبح الحدث ماثلا على الدوام في الوعي بحيث إن أية خبرة تالية تتشابه معه ولو بشكل سطحي فإنها تثير فينا نفس الشعور الذي انتابنا وقت وقوع الحدث ذاته رغم كل محاولات العقل للتغلب على هذا الشعور المزيف نتيجة تفوق انفعال الخوف على هذه المحاولات. وعلى المستوى المجتمعي، فإن الأحداث المؤلمة في تاريخ المجتمعات، حتى وإن مرت عليها مئات السنين، تظل ماثلة في الذاكرة الجمعية كما لو أنها وقعت بالأمس القريب. ويضرب آل جور أمثلة عديدة لذلك مستشهدا في واحد منها بالخطاب الذي ألقاه ميلوسوفيتش على جمع هائل من الصرب والكروات عام ١٩٨٩ ذكرهم فيه بالأحداث الدامية التي تعرضوا لها منذ ستة قرون، فأحدثت هذه الذكريات تنشيطا للأميجدالا من خلال ما يعرف بالتألم التعاطفي وهو الإحساس بالخبرات المؤلمة عند الآخرين كما لو كنا نحن الذين نمر بها حيث أثبتت الأبحاث أن ثمة خلايا مخية تعرف بالخلايا العصبية العاكسة تصدر عند المريض الذي يشاك بإبرة نفس الاستجابة التي يصدرها إذا ما شاهد زميله يتعرض لنفس هذا المثير. ان لا زمنية الذاكرة الجمعية للأحداث المأساوية-قياسا على الذاكرة الفردية- مع نقل مشاعر التألم التعاطفي الى مستوى الوعي الجمعي هو ما جعل نفس شعور الفزع الذي تلبس الصرب في الماضي يتلبسهم في الحاضر فاندفعوا تحدوهم مشاعر من الانتقام المشوب بالخوف في حملة محمومة من التطهير العرقي والإبادة الجماعية ضد مواطنيهم. أما بالنسبة للواقع الأمريكي الحالي، فإن الأداة التي يستخدمها الإعلام السياسي الأمريكي في تثبيت شعور الخوف الناتج عن التألم التعاطفي ولا زمنية الذاكرة الخاصة بأحداث سبتمبر المفجعة هي التليفزيون حيث يشاهد المواطن الأمريكي التلفاز بمتوسط أربع ساعات ونصف يوميا وتكرار مشاهدة هذه الأحداث يؤدي إلى تدعيم مشاعر الخوف وتراجع دور العقل وهو ما جعل أكثر من نصف الأمريكيين لا يزالون يصدقون أن صدام حسين كان يمتلك أسلحة دمار شامل برغم معرفتهم العقلية بعد ذلك بأن كل الأدلة التي ساقها جورج دبليو بوش في هذا الصدد ثبت أنها ملفقة.

تضليل المؤمنين

وفي الفصل الثاني الذي يقع تحت عنوان «تعمية المؤمنين» يضيف آل جور بعدا جديدا للعلاقة بين الخوف والعقل ألا وهو الإيمان الغيبي؛ فالخوف يعمل على إزاحة العقل، كما أن العقل هو الثائر التقليدي على الإيمان، فإذا ما تراجع دور العقل فإن الإيمان يستغل في القضاء على الخوف وتهدئته وهو ما فعله الرئيس الأمريكي الحالي جورج دبليو بوش. فقد حرص بوش في خطابه الشهير الذي ألقاه عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر أن يصور نفسه للأمريكيين وكأن الله قد اختاره ليخلص العالم من الشر وقسم العالم ببساطة إلى قسمين: محور الخير الذي تمثله أمريكا وحلفاؤها ومحور الشر الذي يمثله العراق وإيران وكوريا الشمالية. وبهذه الاختزالية التي ينتقدها آل جور بشدة مضى بوش يسحب قواته من أفغانستان حيث معقل تنظيم القاعدة وبن لادن ليعيد نشرها في العراق الذي لا يمثل أي تهديد واقعي لأمريكا. ويشهر آل جور مسدس هجائه في وجه بوش حيث يقول إن كل ما حدث بعد ذلك يتناقض بشكل صارخ مع المبادئ التي أقرها المؤسسون العظام في إعلان الاستقلال وأقاموا عليها الدستور وميثاق الحقوق. حيث نص تصريح الرئيس الأمريكي جون آدامز عام ١٧٩٧ على أن المجتمع الأمريكي «ليس مجتمعا مسيحيا. وبنفس القدر أيضا، ليس مجتمعا يهوديا أو إسلاميا». وهذا المبدأ الراسخ يهدف إلى فصل الدين عن السياسة للحيلولة دون تركز السلطة في يد أية طائفة وليس بهدف إلغاء دور الدين من الحياة؛ أي أنه لا يوجد حق إلهي مقدس لفرد بعينه في الحكم، وإنما كل فرد من أفراد المجتمع له حق إلهي مقدس في المشاركة في الحكم. ثم يواصل آل جور تحليله النفسي لثالوث العقل-الخوف-الدين بقوله إن الجهاز المناعي الأساسي للديموقراطية الأمريكية متمثلا في الكلمة المطبوعة ولاسيما الصحافة قد أصابه الضعف والمرض فأصبح عرضة لجراثيم البث التليفزيوني الدعائي الذي يعمل على تكريس شعور الخوف واستغلال الدين لصالح السياسة. وهنا يشبه الكاتب الجهاز المناعي للمجتمع بالجهاز المناعي البيولوجي إذ قد ثبت علميا أن هذا الجهاز يعتمد في قوته ونموه على التعلم الذاتي؛ ولهذا السبب فإن حقن الطفل بكمية كبيرة من المضادات الحيوية يؤدي إلى فقده مناعته وجعله عرضة لكثير من الأمراض غير المعهودة في بيئته. وبالمثل، فإن حقن الجهاز المناعي للمجتمع بحقن البث الإعلامي الدعائي يؤدي به الى أن يصبح دائما عرضة لأدواء مثل الخوف المرضي والارتكان اللاعقلاني الى الغيبيات وينجم عن هذا الخلل إما استجابة مبالغ فيها لأمور عادية أو استجابة أقل من المستوى المطلوب لأمور خطيرة. ومن بين أمثلة هذه الأمور الخطيرة التي يسوقها الكاتب سكوت الأمريكيين على ما شاهدوه وسمعوه من قيام جنودهم بتعذيب المدنيين في السجون برغم ما يمثله هذا من انتهاك صارخ للدستور الأمريكي؛ وكذلك ما أقره الكونجرس من سماح للسلطة التنفيذية بالتجسس على المواطنين الأمريكيين برغم ما يمثله ذلك من اعتداء سافر على وثيقة الحقوق الأمريكية في الوقت الذي لاقت فيه أسلحة صدام المزعومة ردود فعل عاطفية مبالغا فيها حتى بعد أن ثبت كذب ادعاءات بوش.

سياسات الثراء

تحت عنوان «سياسات الثراء» يتناول آل جور في الفصل الثالث من الكتاب العلاقة بين السلطة والثروة حيث يرى أن أي خلل في هذه العلاقة لا بد أن يقابله خلل في النظام الديموقراطي. وقد أدرك المؤسسون أهمية المحافظة على توازن هذه العلاقة فحرصوا على أن يكون أساس صنع القرار هو التداول الحر للمعلومات، وهو نفس الأساس الذي بنى عليه رائد الاقتصاد السياسي آدم سميث نظريته في الاقتصاد الحر. لذلك فليس بمستغرب أن يتزامن إعلان الاستقلال مع ظهور كتاب «ثروة الأمم» لآدم سميث. إن الرأسمالية والديموقراطية في رأي آل جور يحكمهما منطق داخلي واحد هو التداول الحر: للسلع في حالة الأولى وللآراء في حالة الثانية بناء على قرارات رشيدة من قبل مواطنين أحرار ومستنيرين. ويشبه آل جور البنية الداخلية للحرية بالشكل الحلزوني المزدوج حيث يمثل أحد طرفيه الحرية السياسية ويمثل الطرف الآخر الحرية الاقتصادية وكلاهما يتجهان إلى أعلى في مسار واحد. وإذا ما حدث نوع من التداخل بين الطرفين الحلزونيين في شكل تزاوج غير مرغوب فيه بل وغير شرعي بين السلطة والثروة تفسد الأمور فسادا عظيما، وهو في رأي آل جور ما تشهده أمريكا حاليا، إذ يتجه الحلزون إلى أسفل نحو عقدة التشابك السلبي بين السلطة السياسية والاقتصادية. وسبب ذلك في نظر آل جور هو غياب ما يسميه ببنية المنتدى العام الذي يتمثل في المشاركة الحرة لجميع أفراد المجتمع في صنع القرار، وذلك نظرا لسيطرة فئة محددة من الرأسماليين على هذا

المنتدى. ويعد آل جور هذا الاتجاه جديدا وغريبا على المجتمع الأمريكي الذي يفخر بأنه المجتمع الوحيد في تاريخ الإنسانية الذي لم يشهد تركزا للسلطة في يد فئة محدودة من البشر، بل كانت القرارات الهامة دائما تتخذ بناء على إجماع المحكومين. أما الآن فقد تأثر هذا الإجماع سلبا بهيمنة أصحاب رؤوس الأموال الذين يمكن أن يشتروا أصوات الناخبين بإعلانات تليفزيونية باهظة الأثمان يزيفون بها وعي الناس، وأصحاب المصالح الذين يمولون الحملات الانتخابية للمرشحين ويحصلون على المقابل فيما بعد في شكل منافع وخدمات يقدمها لهم هؤلاء المرشحون بعد فوزهم في الانتخابات. وفي هذا الصدد يقول الكاتب: «إذا لم يكن المنتدى العام مفتوحا للجميع، فإن أولئك الذين يملكون حق الدخول يصبحون بمثابة حراس على بوابته فإذا ما فرضوا رسوما على الدخول، فستصبح إمكانية المشاركة مقصورة على الذين يمتلكون المال لدفع هذه الرسوم، وبالتالي سيحرم الرأي العام من الآراء الرشيدة للرجال والنساء الذين ليس بمقدورهم دفع ثمن الدخول إلى المنتدى. وإذا ما حدث هذا، فإن الأفضلية القائمة على الجدارة سوف تنهار وينهار معها البناء الديموقراطي برمته».

ضلالات مريحة

أما الفصل الرابع فقد اختار له المؤلف عنوان «ضلالات مريحة» وفيه يستعين بعلم آخر يبسط من خلاله أفكاره هو علم تكنولوجيا المعلومات، ولكن هذه المرة على سبيل المجاز لا على سبيل التداخل الفعلي بين العلوم. وبداية يشرح لنا آل جور الجهود التي بذلها في محاولة فهم نظرية «التوازي الشامل» وهي نظرية المعلومات الأساسية التي مثلت حدا فاصلا بين عصر الكمبيوتر العملاق الذي يعتمد على وحدة معالجة واحدة وذاكرة ضخمة ملحقة بها والوضع الحالي للكمبيوتر الذي يتمثل في توزيع طاقة وحدة المعالجة الأساسية على وحدات فرعية لكل منها مجال الذاكرة الخاص بها. وعند تصدي العقل الإلكتروني لحل مشكلة ما تتم معالجة البيانات وتحليلها في كل وحدة على حدة حيث تقوم كل وحدة فرعية بمعالجة جزء من البيانات الخاصة بالمشكلة، ثم يتم تجميع كل أجزاء الحل في الوحدة المركزية، وهذا من شأنه أن يوفر الكثير من الطاقة والوقت على الحاسوب والمستخدم البشري معا.

ويشبه آل جور مركزية السلطة وصنع القرار في النظم الشمولية بالنظام القديم للكمبيوتر حيث يتم الاعتماد على وحدة معالجة مركزية تملي جميع الأوامر، ولذا فإن اقتصاد الاتحاد السوفيتي قد انهار نظرا لاعتماده على هذه الوحدة المركزية في صنع واتخاذ القرار مما يؤدي إلى غياب المبادرة الفردية وتفشي الفساد. بعكس النظام الرأسمالي -الديموقراطي الذي يعتمد بصفة أساسية على التدفق الحر للمعلومات من جهات متعددة مما يجعل هنالك مناطق متنوعة خارج المركز لاتخاذ القرار تعمل -في ظل الديموقراطية التمثيلية- على إحداث التوازن فيما بينها من خلال الانتخاب الطبيعي للأصلح في السوق المفتوحة للأفكار التي يناظرها على الصعيد الاقتصادي السوق المفتوحة للسلع. وما يلبث آل جور أن يرتدي نظارته السوداء في رؤيته للواقع الأمريكي الراهن: إذ برغم إيمانه أن نمط «التوازي الشامل» كان هو دائما ما يميز النظام السياسي والاقتصادي في أمريكا، إلا أن الإدارة الأمريكية الحالية قد اتخذت إجراءات تؤذن بالانزياح التدريجي عن هذا الخط التاريخي الذي رسمته الولايات المتحدة لنفسها منذ نشأتها. ففي ظل تركز السلطة في يد الطبقة الثرية التي تملك بدورها طرق الوصول إلى مصادر المعلومات ووسائل نشرها المتمثلة بصفة أساسية في الإعلام المرئي، ومع الانحسار الواضح في دور القراءة والكلمة المطبوعة، مارست إدارة بوش ما يرى آل جور أنه أكبر عملية خداع وتضليل في تاريخ أمريكا وهو اقتياد أكثر من سبعين في المائة من الأمريكيين إلى الاعتقاد بأن صدام حسين كان هو المسؤول الأول عن هجمات ١١ سبتمبر، وليس ذلك فحسب، بل على أن له صلات قوية بابن لادن وتنظيم القاعدة، رغم كل الاستخبارات التي تلقاها بوش قبل عملية غزو العراق والتي أكدت عدم وجود أية علاقة بين صدام وتنظيم القاعدة. ويستهدي آل جور هنا بشهادة ريتشارد كلارك، مسؤول مكافحة الإرهاب في الإدارة الأمريكية الذي صرح بأن الرئيس جورج دبليو بوش أمره في اليوم التالي لهجوم ١١ سبتمبر بإيجاد رابطة بين صدام وهذا الهجوم، ولما أكد كلارك عدم وجود أي دور لصدام في هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ما كان من الرئيس الأمريكي إلا أن تجاهله تماما كما تجاهل كل تقارير الـ«سي. آي. إيه» والـ«إف. بي. آي» في هذا الصدد ومضى قدما في إقناع الرأي العام الأمريكي بضلوع صدام حسين في أحداث سبتمبر. وقد اعتمد بوش في دعايته على خرافة كبرى عمل على الترويج لها دائما وهي أن صدام حسين سعى للحصول على خام اليورانيوم من النيجر وتخصيبه في معامل تخصيب خاصة وقدم وثيقة مزيفة لإثبات ذلك. وهنا يشير المؤلف إلى الدور الذي لعبه محمد البرادعي، المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية، في كشف زيف هذه الوثيقة. ثم يطرح آل جور سؤالا جوهريا على قرائه قائلا: لو كنت رئيسا للولايات المتحدة ووقفت في الكونجرس يشاهدك بليون مواطن لتقدم وثيقة تثبت بها تورط صدام حسين في أحداث سبتمبر، وثبت بعد ذلك أنها كانت وثيقة ملفقة، فهل ستشعر حينئذ بالحرج؟ ويجيب آل جور بنفسه على هذا السؤال من واقع الموقف الحالي للإدارة الأمريكية بأن بوش ما زال يحاول إقناع شعبه بأن ثمة «دليلا كاسحا على تورط صدام» كما لو كان محصنا ضد أي نوع من الخجل أو الندم. ويخلص آل جور من هذا كله إلى أن كارثة غزو العراق لم تكن نتيجة سهو أو خطأ في الحساب من جانب إدارة بوش وإنما هي نتيجة تضليل متعمد تمثل في قرار تم اتخاذه مسبقا وتفصيل الرأي العام الأمريكي على مقاسه لاحقا.

الهجوم على الفرد

يناقش المؤلف في الفصل الخامس «الهجوم على الفرد» الوضع الذي آلت إليه الحريات الفردية في الولايات المتحدة على المستوى الاجتماعي والسياسي والتشريعي. فعلى المستوى الاجتماعي، أدى طغيان البث المرئي على المادة المقروءة إلى أن أصبح الفرد أسيرا للدعاية المضللة حيث إن نمط التواصل المعتمد على التلقي السلبي من خلال مشاهدة التليفزيون يأتي على حساب المشاركة في المنتدى الحواري العام من خلال الكلمة المكتوبة أو الحوار المباشر بين أفراد المجتمع. ورغم ذلك، فهنالك بارقة أمل يتطلع إليها الكاتب متمثلة في عالم الإنترنت حيث يؤمل في أن تبادل المادة المكتوبة عبر الإنترنت من خلال المدونات يمكن أن يؤدي إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة والمضللة التي قد تتسرب إلى عقل الفرد من خلال شاشة التليفزيون الذي يعتبره آل جور الحلقة الوسطى بين الكلمة المطبوعة والإنترنت إلى أن تتبلور معالم هذه الأخيرة كوسيط أساسي للحوار. وعلى المستوى السياسي، يقول آل جور إن الممارسات الحالية للإدارة الأمريكية تمثل اختراقا غير مسبوق للحقوق الفردية التي رسخها الدستور الأمريكي على مدى قرنين من الزمان والتي تتمثل في حق المحاكمة العادلة وكرامة الفرد والمعاملة المتساوية في ظل القانون وعدم التعرض للتفتيش أو الاعتقال بدون سند قانوني وعدم الرقابة المخلة بالحرية.

وبعد ١١ سبتمبر بات من حق الإدارة الأمريكية أن تأمر بالقبض على كل من تخلع عليه وصف «مقاتل غير شرعي في صف العدو» وأن تعتقله لمدة غير محددة ودون علم ذويه بل ودون أن يكون له الحق في التشاور مع محاميه أو حتى معرفة التهم المنسوبة إليه. وعلى المستوى التشريعي، صدر مؤخرا في الولايات المتحدة ما يعرف باسم «القانون الوطني» الذي يعطي العملاء الفيدراليين سلطة «التلصص والتسلل» في حالات الجرائم العادية التي لا تنطوي على أية دوافع إرهابية، وهي سلطة يمكن لهؤلاء الموظفين الفيدراليين بموجبها اقتحام أي منزل دون الحاجة إلى إذن قضائي بل والمكث فيه دون علم صاحبه للتجسس عليه بحجة التحقيق في مسألة لها علاقة بالتخابر مع دولة أجنبية. ورغم تعهد البيت الأبيض بعدم استغلال هذه الحقوق التي يخولها إياه القانون إلا عند الضرورة القصوى، يقول آل جور إن الإدارة الأمريكية هي واقعيا الجهة الوحيدة التي تحدد طبيعة هذه الضرورة، ويرى أن مثل هذه الممارسات لن تنقضي بانقضاء فترة الرئاسة الحالية لبوش، بل إنها ستمثل سابقة وسندا لممارسات مماثلة من قبل الرؤساء

لعل أهم درس يمكن أن نخرج به من كتاب آل جور هو أن لأية حضارة شقين: شقا ماديا عمرانيا وشقا روحيا قيميا

القادمين للولايات المتحدة الذين يشك آل جور في ضوء كل التحليلات السابقة أنهم سينتمون إلى منظومة القيم التليدة التي قام على أساسها العقد الاجتماعي الأمريكي. ونلاحظ على الكاتب ميله إلى استخدام لواحق التضاد التي تعبر عن ضد اللفظ دون اختفاء اللفظ نفسه بدلا من استخدام المتضادات ليحافظ على المقارنة بين الوضع القديم والوضع الجديد في ذهن القارئ من خلال اللعب بالكلمات، لذا نجده مثلا يستخدم تعبير «اللاحقائق» بدلا من «الأكاذيب»...

اللا أمن القومي

وبنفس الكيفية، يختار المؤلف عنوانا مثيرا للفصل السادس هو «اللا أمن القومي»، وتحت هذا العنوان المستفز يحدد آل جور مقومات الأمن القومي الأمريكي التي طالما حافظت على أمن الولايات المتحدة واستقرارها الداخلي وساعدت على نشر القيم الأمريكية وتقبل العالم لها إلا أنها من ناحية أخرى بدأت تتزعزع في ظل الإدارة الحالية. وأعم هذه المقومات على الصعيد الدولي هو التعاون مع الدول الأخرى في اطار الشرعية الدولية من أجل إنهاء النزاعات التي تهدد الأمن الدولي والقضاء على الإرهاب. وقد انتهك بوش هذا المبدأ بارتكابه عدة مخالفات للقانون الدولي وتجاوزه سلطة الأمم المتحدة واعتبار أمريكا سلطة أحادية الجانب، مما أورث تجاهها نوعا من العداء والكراهية وعدم الرغبة في التعاون من جانب الدول والشعوب الأخرى. وهنا يستدعي آل جور قانون نيوتن الثالث الذي ينص على أن لكل فعل رد فعل مساويا له في المقدار ومضادا له في الاتجاه حيث إن أي عمل أحادي الجانب تقوم به الولايات المتحدة ضد أي طرف خارجي يقابله رد فعل مضاد من القوى المعادية لأمريكا يؤدي إلى تقوية شوكة الإرهاب وخلق أنوية لتنظيمات إرهابية جديدة. ولكي تتخلص أمريكا من هذا المأزق، لا بد أن تسعى في سياستها الخارجية إلى التميز النابع من احترام الآخرين لها وانصياعهم الطوعي لقيادتها بدلا من السعي إلى الهيمنة. ثم يقدم آل جور في هذا الفصل إعادة صياغة لمفهوم الأمن تخرجه عن الإطار الضيق للحرب والسلام وذلك لأن جوهر الأمن هو حماية الحياة أيا كان نوع الخطر الذي يتهددها؛ فهناك الأمن البيئي الذي يؤدي غيابه إلى تقويض أية جهود يتم إحرازها في مجال الأمن القائم على القوة العسكرية وينبه آل جور-وهو رجل البيئة المعروف-إلى تزايد معدل الفيضانات والأعاصير في الولايات المتحدة في الآونة الأخيرة وأزمة المياه المتفاقمة الناتجة عن الاحترار العالمي وما يسببه من تسريب لمخزون المياه الكامن في جبال الثلج وخزانات الثلوج الطبيعية. وهنالك الأمن الصحي للفرد الذي أصبح مهددا بسبب انتشار أوبئة جديدة مثل الإيدز وفيروس نقص المناعة حيث يتوقع بانتهاء العقد الأول من القرن الحادي والعشرين أن يفوق عدد الذين يموتون بسبب الإيدز من يموتون في الحروب؛ وكذلك استعصاء الأمراض القديمة على العلاج التقليدي الذي لم يعد ناجعا معها حاليا.

أزمة الكربون

وفي الفصل السابع وتحت عنوان «أزمة الكربون» يضع آل جور كارثة الهجوم على العقل في سياقها البيئي ويرى أن ثمة علاقة وثيقة بين مشكلة المناخ والبترول ذات أبعاد بيئية وسياسية معا. ويتمثل البعد البيئي في أن المزيد من حرق الوقود الحفري المتمثل في البترول والفحم له آثار مناخية سيئة من بينها تزايد نسبة ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي وما يتمخض عنه من مشاكل بيئية مثل زيادة أشعة الشمس تحت الحمراء في هذا الغلاف وظاهرة الاحتباس الحراري، مما يبرز أهمية إيجاد مصادر بديلة من الطاقة المتجددة. أما البعد السياسي فيتمثل في بناء الاستراتيجية الأمريكية منذ زمن بعيد على أساس البترول كمصدر أول للطاقة وبالتالي السعي إلى السيطرة على مناطق الاحتياطي البترولي العالمي وأهمها منطقة الخليج العربي وارتباط ذلك بنمط الهيمنة الأمريكية على مقدرات شعوب هذه المنطقة الذي سعى بوش لتدشينه طوال فترة حكمه وقد أدى ذلك إلى تقاعس إدارته عن تنفيذ البرامج البيئية التي من شأنها أن تحد من تلوث البيئة كنتيجة للحد من استهلاك الوقود الحفري والتسويف في إيجاد بدائل جديدة للطاقة يمكن أن



تؤدي إلى تجفيف منابع الإمبريالية الأمريكية الجديدة في الشرق الأوسط.

الديموقراطية في الميزان...

ويخصص المؤلف الفصلين الأخيرين من كتابه لتقييم شامل للأداء الديموقراطي في الولايات المتحدة على المستوى السياسي المتعلق بعلاقة الحكام بالمحكومين وعلى المستوى الاجتماعي المتصل بالديموقراطية كأحد عناصر المنظومة القيمية للمجتمع. ففي الفصل الثامن «الديموقراطية في الميزان» يستعرض آل جور مسيرة الديموقراطية الأمريكية منذ أن وضع المؤسسون اللبنة الأولى للدستور الأمريكي وحتى الوقت الحالي. إن الدعامة الأساسية لهذه الديموقراطية من وجهة نظر المؤلف كانت وما تزال هي الحرية الفردية التي يقيدها في المجال السياسي عدد من الكوابح والموازنات التي يقرها الدستور. ومن بين الحريات الفردية التي يقيدها الدستور سلطة رئيس الدولة من خلال التشريعات التي يصدرها الكونجرس ويلتزم رئيس الجمهورية بالانصياع لها بموجب الدستور. وقد أدرك المؤسسون ما لشهوة السلطة من تأثير على الرجال، ولذا فقد وضعوا مسؤولية صيانة الديموقراطية على عاتق السلطة التشريعية وليس التنفيذية؛ فبموجب الدستور فإن رئيس الجمهورية، وإن كان القائد الأعلى للقوات المسلحة، إلا أنه لا ينفرد وحده بقرار شن الحرب وتحديد موعده وطبيعة المهام العسكرية التي تكلف بها القوات المسلحة، إنما يتقاسم هذا كله مع الكونجرس الذي يتدخل في أدق تفاصيل الحرب مثل حجم القوات وعدد الجنود. ومع التطور الذي شهدته الحروب الحديثة التي لم تعد تمنح الأمة ترف انتظار مداولات الكونجرس حيث لا يكون الفاصل الزمني بين الإنذار بالحرب وشنها إلا دقائق معدودة في ظل الترسانات المتطورة من الأسلحة النووية وما يعرف بالأسلحة الذكية، فقد انفرد رئيس الجمهورية بسلطات عملية أكبر فيما يتعلق باتخاذ قرار الحرب. ومع ذلك، فقد حرص أعضاء الكونجرس دائما على ألا يتجاوز ذلك حدود الاستجابة للأزمات الطارئة وألا تتعدى صلاحيات رئيس الجمهورية على سلطة الكونجرس باعتباره الممثل الشرعي للأمة. وفي ظل الوضع الراهن، فقد تجاوزت الإدارة الأمريكية كل الخطوط الحمراء في الانفراد بسلطة اتخاذ قرار الحرب وتجاهل قرارات الكونجرس الخاصة بالتخويل باستخدام القوة العسكرية عندما ارتأى الرئيس الحالي جورج دبليو بوش أنها لا تعطيه الصلاحيات الكافية التي كان يتطلع إليها فتحايل عليها سرا وفي غفلة من الجميع ليحصل على الصلاحيات المطلوبة، وعلل ذلك فيما بعد بأن حماية الشعب يجب أن لا يعلو فوقها أي صوت آخر مستغلا حالة الفزع التي انتابت الأمة من جراء إمكانية وقوع هجوم إرهابي جديد. ويرى آل جور أن الأمريكيين باتوا في حاجة إلى صيغة جديدة من الديموقراطية «تواثم فيما بين حماية أمننا وحماية حرياتنا التي أقرها الدستور». ويضرب مثالا تاريخيا بالإمبراطورية الرومانية القديمة التي انهارت فيها الديموقراطية حينما جمع قيصر بين سلطتين في وقت واحد كحاكم مدني للبلاد وكقائد للجيش فانثلم صرح الديموقراطية على مدى عشرات القرون إلى أن أعادته أمريكا للعالم؛ فهل يتهدم مرة ثانية على يد الأمريكان الجدد؟ هكذا يبدو آل جور متسائلا.

هيئة مترابطة من المواطنين

وفي الفصل التاسع والأخير بعنوان «هيئة مترابطة من المواطنين» يصول آل جور ويجول مرة أخرى في ميدان علم النفس الاجتماعي-هذه المرة في ذلك الفرع منه الذي يختص بعلاقة الفرد بالمجتمع في نشأته الأولى ألا وهو علم نفس النمو

ليستمد منه بعض الاستبصارات الخاصة بنمو الطفل في الجماعة ثم يعود إلى ميدانه الأصلي ليطبقها على نمو الوعي السياسي للفرد في المجتمع الديموقراطي. يستعين آل جور في هذا المضمار بنظرية الاتصال، إحدى النظريات الهامة في علم نفس النمو التي ظهرت في الستينيات من القرن الماضي وتتلخص في ان الطفل يكون موقفه من العالم في المراحل الأولى من حياته وفقا لنمط الاتصال القائم بينه وبين والديه أو من يقوم على رعايته،فإذا كان هذا النمط قوامه التواصل التبادلي بين الطفل ومن حوله، فإن هذا يؤدي إلى نشأة طفل سوي نفسيا واجتماعيا. وترى هذه النظرية أن الطفل في المراحل الأولى من عمره يحاول أن يؤثر في العالم الخارجي من خلال تعبيره عن نفسه بأشكال مختلفة كالبكاء والمرح والغضب، فإذا تمت الاستجابة السليمة لهذه الأنماط من التعبير، فإن ذلك يؤدي إلى تنشئة شخصية قوية وناضجة تستطيع أن تؤثر في العالم مستقبلا. أما إذا تم تجاهل هذه الإشارات التي يرسلها الطفل أو التعامل معها بشكل غير سليم بالتفريط أو الإفراط في الاستجابة، فإن ذلك يؤدي إلى نشأة طفل انهزامي واعتمادي ولديه نوازع عدوانية وانسحابية ويتخذ من الهروب أو السلوك المنحرف وسيلة لحل المشكلات التي يتعرض لها. وينقل المنظور إلى صعيد العلاقة بين الفرد والمجتمع. يرى آل جور أن الفرد في ممارسته لحقوقه السياسية في مجتمع ديموقراطي يمر بمراحل شبيهة بتلك التي يمر بها الطفل: فإذا ما تمت الاستجابة لتوجهات الفرد بشكل إيجابي من خلال الحوار التفاعلي المعتمد على حضور طرفي الاتصال، فإن ذلك يؤدي إلى بناء جسور متينة من الثقة بين الحكام والمحكومين وإلى مزيد من الارتياح إلى النظام الديموقراطي القائم ومزيد من المشاركة في العملية السياسية. وعلى النقيض من ذلك، إذا كان الحوار عبارة عن مونولوج من طرف واحد مرسل يبث رسائله إلى مستقبل واحد عبر شاشة التلفاز بحيث لا يستطيع المواطن أن يشارك كطرف ثانٍ في عملية اتصالية ثنائية الاتجاه، فإن هذا النمط يخلق مواطنا سلبيا لا يبالي بالإدلاء بصوته في الانتخابات بل قد لا يرى فيها جدوى أو نفعا ومن ثم يفقد ثقته في العملية الديموقراطية بأسرها. وهو ما يرى المؤلف أن المواطن الأمريكي في طريقه إليه نظرا لسيطرة نموذج الاتصال الأحادي عبر التلفاز على الاتصال التبادلي الذي تدعمه الكلمة المكتوبة التي ستظل هي دائما في رأيه الجهاز المناعي الأول الذي يحمي النظام الديموقراطي.

نتائج ودروس

وبعد هذه الجولة، فقد يحق لنا أن نتساءل: ما هي التعميمات النظرية والكليات الفلسفية التي يمكن أن نستخلصها من الكتاب وراء التحليل الجزئي للأحداث والمواقف؟ والواقع أن الكتاب يمدنا بذخيرة ثرية من الدروس الفلسفية والتجريدات النظرية والأطر المنهجية التي يمكن أن تفيد أي باحث أو مفكر أو قارئ مهتم بنوعية القضايا التي يثيرها الكتاب. ولعل أهم درس يمكن أن نخرج به من كتاب آل جور هو أن لأية حضارة شقين: شقا ماديا عمرانيا وشقا روحيا قيميا يتمثل في منظومة القيم الروحية و الأخلاقية للمجتمع سواء كانت مستمدة من دين معين أو من عقد اجتماعي محدد المعالم مثل العقد الاجتماعي الذي قامت عليه الولايات المتحدة الأمريكية وتميزت به عن باقي الغرب الذي لم يعرف نفسه حضاريا إلا بتفوقه على الشرق «اللاعقلاني» أو «المتخلف». ولهذا ظلت الحضارة الأمريكية هي الحضارة المتسيدة في العالم عن جدارة واستحقاق على مدى أكثر من نصف قرن بعد أن كشفت الحداثة الأوروبية عن فراغها القيمي. والثقافة هي الإطار المجرد للحضارة،إنها النسق العام الذي بالإضافة إلى احتضانه للهياكل الاقتصادية والمنجزات العلمية للحضارة، يجمع بين القيم الجديدة التي تنتجها الحضارة المادية (الشق المادي)في مسيرة تطورها -سواء القيم الأخلاقية أو السلوكية أو الإبداعية الجمالية-والموروث القيمي الثابت (الشق القيمي) الذي يمثل البنية الأساسية والأرضية التي تحلق فوقها القيم الجديدة مستأنسة بطريقها المرسوم لها على هذه الأرضية .فإذا ما حدث شرخ في البنية القيمية الأساسية واهتزت تلك الأرضية فقدت الحضارة شقها القيمي ولم يبق داخل النسق الثقافي إلا الشق المادي والقيم العابرة التي أفرزها الإيجابية منها والسلبية. ومع غياب المنظومة القيمية الأصيلة وتصدعها يحدث انتخاب للقيم السلبية وتترسب القيم الإيجابية في قاع الثقافة فتأخذ الحضارة في الانهيار كما نجد إرهاصات ذلك الانهيار في تفاصيل تحليل آل جور لأحداثه الجزئية بالنسبة لأمريكا. أما بالنسبة للتجريدات النظرية التي يمكن أن نستخلصها من الكتاب فلعل أهمها علاقة الديموقراطية بطبيعة العقد الاجتماعي الذي يقوم عليه المجتمع. والمجتمع الأمريكي هو نموذج لعقد اجتماعي واع تلازمت نشأته مع نشأة العقد الاجتماعي القانوني أي الدستور الأمريكي المكتوب. فكان نمط الديموقراطية التمثيلية ملائما لما ارتضاه بناة أمريكا لمجتمعهم من نظام الحوار القائم على التوازنات بين الأطراف المختلفة التي يكبح بعضها البعض الآخر بما يصب في النهاية في صالح الجماعة.

وهذا يفجر قضية هامة ألا وهي علاقة نوع الديموقراطية بثقافة المجتمع، إذ عادة ما يستخدم مصطلح الديموقراطية كمفهوم مطلق بينما في الواقع توجد أنواع عديدة من الديموقراطية يجب الاختيار من بينها حسب نوع الثقافة وطبيعة العقد الاجتماعي للجماعة من حيث كونه عقدا قائما على أسس دستورية اختيارية أو على أسس دينية (مثل العقد الاجتماعي للمجتمعات العربية الإسلامية مثلا) أم أن له جذورا ضاربة في أعماق التاريخ لا يمكن اكتشافها إلا بتحليل التطور التاريخي للثقافة. وهذا يقودنا إلى نتيجة هامة وهي أنه حتى لو انهارت القيم التي قامت عليها الديموقراطية الأمريكية فليس معنى هذا أن الشعوب التي تتبع هذه القيم وتعتبرها مثلها الأعلى في الممارسة الديموقراطية ينبغي أن تفقد الرجاء في وجود مرجعية قيمية للمجتمع الديموقراطي الذي تتطلع إليه؛ إذ إنها في هذه الحالة سيكون عليها أن تبحث في موروثها الثقافي عن إطار مرجعي تمزج بينه وبين أحد الأنواع النظرية المطروحة للديموقراطية، ولاشك أن هذا المركب المزجي الجديد سيكون أكثر عمقا وثراء وارتباطا بالحاجات الحقيقية للمجتمع من مجرد استيراد نموذج جاهز نبت في تربة ثقافية مغايرة. ولا ينبغي أن نغفل عما نبهنا إليه آل جور من أن اعتماد الديموقراطية كممارسة سياسية دون الأخذ بها كمبدأ وقيمة تربوية من شأنه أن يؤدي إلى ديموقراطية قصيرة الأجل لا تصمد أمام الأعاصير الثقافية والاجتماعية والسياسية الجارفة. ولنا أن نتخيل لو أن حكام جميع الشعوب المقهورة على مستوى العالم قد أصدروا قرارا مفاجئا بإقامة حياة نيابية وحزبية سليمة في بلادهم وتقديم الدعم الكامل لعقد انتخابات نزيهة نزاهة حقيقية؛ بل أنهم قد نزلوا جميعا عن عروشهم وكراسيهم ليتيحوا الفرصة لشعوب هذه المجتمعات المقهورة كي تتحرر من أغلالها وتختار من يحكمها ويمثلها في الهيئات التشريعية المنتخبة. فهل معنى هذا أن هذه المجتمعات التي تربت على القهر والخوف ورضع أفرادها لبان السلبية والانهزامية -سوف تتحول إلى ديموقراطيات حقيقية بين عشية وضحاها؟ لا أظن أن ذلك يمكن أن يحدث دون ظهور مصلحين يعيدون بناء الفرد والأسرة على أسس نفسية وتربوية سليمة. يبقى الحديث عن مسألة منهجية هامة يبرزها لنا الكتاب وهي اعتماد الكاتب في تحليله للواقع السياسي على علوم عديدة إما لوجود علاقة مباشرة بين هذه العلوم وبين هذا التحليل مثل علم النفس والاجتماع والبيئة أو على سبيل المجاز الذي يعمل على توضيح مفهوم في علم ما بالاستعانة بمفهوم في علم آخر يتشابه معه في السمات البنيوية عن طريق الربط الذهني بينهما على نحو ما رأينا من ربط آل جور بين بعض مفاهيم تكنولوجيا المعلومات والاقتصاد السياسي. إن التداخل بين العلوم أصبح حقيقة لا يمكن المزايدة عليها؛ إلا أننا لا نجد ذلك متحققا في كثير من التحليلات والأدبيات السياسية وخاصة في عالمنا العربي مما يعكس وجود فجوات معرفية خطيرة عند محللينا السياسيين وأخرى مفهومية تعجز عن التوصل للخيوط التي تربط العلوم ببعضها البعض والتي أبرزها هو أن موضوع كل العلوم الإنسانية والطبيعية واحد هو:الإنسان وعلاقته بالمجتمع والكون. وأخيرا، فإن كتاب آل جور «الهجوم على العقل» يمكن أن نصنفه ضمن أدبيات النقد الذاتي أو ما يعرف بالهجاء الاجتماعي ويتميز هذا النوع من الكتابة بالنبرة اللاذعة والمبالغة المشروعة التي قد تعلو قليلا عن الواقع من أجل إبراز عيوبه؛ فهي تعمد إلى جلد الذات واتهامها تمهيدا لإعادة تطهيرها كخطوة نحو تبرئتها. ■

لينين الرملي: زعماء العالم في مدرسة



حكاية لكل العصور
شريف قنديل
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٨، ٢٣٨ صفحة

في المرحلة الإعدادية نشرت مجلة «الجيل الجديد» موضوعاً طريفاً. فقد وجد في مدرستنا خمسة من التلاميذ أسماؤهم غير تقليدية: تشرشل، إيدن، لينين، ستالين، ومولوتوف. كان عنوان الموضوع «قادة العالم في مدرسة واحدة».

كانت الأسماء الروسية لأفراد أسرة واحدة: أخوان وابن عمهما، وكانوا ثلاثتهم - إلى جانب زمالة أكبرهم لي في الفصل - يسكنون في المنزل المقابل لمنزلنا من ناحية جاردن سيتي.

قد يكون لكل هذه التسميات دلالات متباينة. فلعلها تمثل إعجاب بعض الأهل ببعض كتل العالم السياسية متمثلة في قادتها. أو تمثل تبعية دفينة في وجداننا للشرق أو الغرب، حيث كان الصراع وقتها على أشده بين أيديولوجيات اشتراكية أو رأسمالية. أو هي مهادنة وتواؤم مع الاستعمار الجاثم فوق الصدور، أو خنوع ونفاق لدرجة تسمية الأبناء برموز الاستعمار، أو لعلها إحدى صور الثورة ضد المستعمر من خلال تسمية الأبناء بأسماء مستعمر بديل!!

ارتفعت في مصر موجة رافضة للتبعية، وشهدت وقتها لحظات مضيئة من التاريخ شعرت فيها بالفخر والعزة، ها هو القائد ينفض في وجه الإنجليز والأمريكان، ويؤمم شركة قناة السويس شركة مساهمة مصرية.

توالت الأحداث، مؤامرة شاركت فيها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، اشتباكات في منطقة قناة السويس، إنذار عسكري رفضه الرئيس من فوق منبر الجامع الأزهر.

أوراق زرقاء تغطي شبابيك المنازل، صفارات الإنذار تدوي، والأصوات تتعالى في الشارع محذرة أو آمرة «طفي النور»، أزيز الطائرات يسمع والكشافات المضيئة تطاردها، وطلقات المدافع تتوالى، فلقد تعرضت مصر لعدوان ثلاثي.

صمدنا، وتحدينا، ولم نخضع في معركة كسر الإرادة. وجاء إنذار روسي من الشرق وتقهقر ثلاثي من الغرب، وانسحب الغزاة مدحورين، واحتفلنا بنصر سياسي وعسكري مبين (وإن علمنا فيما بعد أنه كان منقوصاً).

شدا عبدالحليم حافظ بألحان وطنية عذبة، واستمعنا منه إلى حكاية السد العالي، وأخذنا أمنا مصر بالأحضان، وكانت لنا صورة - كلنا تحت الراية المنصورة، وعشنا نشوة وطنية لذيذة حالمة.

أقام المدرس الأول للغة العربية مسابقة صحفية، ورصد جائزة مالية من ماله الخاص للمنافسة بين مجلات الحائط التي تعكس نشوة النصر.

انحصرت المنافسة أو كادت بين مجلتين: إحداهما كان يصدرها لينين الرملي بمعاونة أبناء عمه، اسمها «الأحرار»، والأخرى كنت أصدرها وأسميتها «صوت الطلبة».

مجلة «الأحرار» كانت تحوي من الموضوعات ما يعكس آراء أسرة الرملي وأيديولوجياتها، وخبرة الآباء، حيث كان أحدهما كاتباً صحفياً وأخوه مصوراً صحفياً. فكانت «الأحرار» أكثر نضجاً ودسامة، بينما كانت مجلة «صوت الطلبة» أكثر نظاماً وترتيباً، وأجمل إخراجاً وتبويباً، وبها صور رسمها أحد زملائنا، وكتبنا من خيالنا قصة عن «نبيل منصور» التلميذ الذي أدى دوره في مقاومة المحتلين والغزاة، وعرضناها بما يعبر عن براءة مشاعرنا وإبداعات عمرنا الساذجة.

وجاءت لجنة تحكيم من مدرسي اللغة العربية، ثم أعلن المدرس الأول أن المجلتين تستحقان الجائزة، ولكنه منح مجلة «صوت الطلبة» الجائزة الأولى.

بعد انتهاء المرحلة الإعدادية، انتقلت أسرة الرملي من أمام منزلنا من ناحية جاردن سيتي إلى مكان آخر، وانتقلت أسرتنا هي الأخرى إلى المعادي، فانقطعت الصلة والأخبار بيننا وبين آل الرملي، ولكنها لم تنقطع مع لينين الرملي بالذات. حيث صار فناناً مرموقاً، وتابعت أخباره الفنية على صفحات الجرائد أو شاشات التليفزيون، وشاهدت إبداعاته المسرحية بإعجاب وتقدير، وفي تصوري أن أسرته كلها اتجهت إلى أعمال الفن والإعلام.

وكان آخر عهدي به أن قرأت أنه حصل في عام ٢٠٠٧ على جائزة الدولة التقديرية في أحد فروع الثقافة، ففرحت صادقاً بفوز ابن مدرستي وجارنا القديم بجائزة مستحقة.

فكرت أن أرسل له برقية تهنئة، ولكني قلت لنفسي أغلب الظن أنه لن يتذكرني.

شريف قنديل

كتاب الزاوية

مالكوم إكس
النصوص المحرمة



هذا كتاب جميل(*) تترك قراءته في النفس أثراً طيباً للغاية.

قد يستغرب القارئ في البداية أن يجد المؤلفين الذين ترجمت بعض أعمالهم في هذا الكتاب ينتمون إلى ميادين مختلفة جد الاختلاف. فمنهم المناضل السياسي، وعالم اللغويات الشهير، والمصلح الاجتماعي، والمؤرخ، ورئيس جمهورية سابق، وعلماء أفذاذ، وروائية، ومغن شعبي، وشاعرة. فما الذي يمكن أن يجمع بين هؤلاء جميعاً؟! وهل هناك من القضايا ما يمكن أن يكون هماً مشتركاً لهم؟! ثم ما الذي يدفع كاتباً عربياً أن يترجم كتابات لهؤلاء جميعاً ويجمعها في كتاب واحد؟!

على أن استغراب القارئ لن يطول. إذ بمجرد أن يقرأ فصلين أو ثلاثة سيدرك أن شيئاً مهماً يجمع بين أغلب فصول الكتاب. وأن هذا الشيء هو الذي يجعل الكتاب جميلاً، ويجعله يترك هذا الأثر الطيب في النفس.

جلال أمين

(*) الكتاب صادر عن «دار رياض الريس للنشر».
ترجمة: حمد العيسى

الأزمات العالمية

دروس غير مستفادة!

محمود محيي الدين



■ ■ في الصباح الباكر من أحد أيام شهر مارس في عام ١٩٩٩، اجتمع ممثلو ثلاث وثلاثين دولة في قاعة فسيحة أعدت للاجتماع في مدينة بون الألمانية. ورغم جمال المكان المعد في أجواء قلعة قديمة مشيدة على قمة تل اخضر سفحه ببوادر الربيع، فإن نفراً من المجتمعين شملتهم مظاهر القلق والتوتر، ونفراً آخر ظهرت عليهم علامات الترقب لما سيسفر عنه الاجتماع ونفراً ثالثاً حلت عليهم أمارات أصحاب الحل والعقد وسمات الثقة الظاهرة.

لقد كان هذا الاجتماع لمناقشة آثار الأزمة المالية للأسواق الناشئة فيما عرف بعد ذلك بالأزمة المالية الآسيوية والتي كانت لها تداعيات سلبية اقتصادية عالمية. وكان الاجتماع تمهيداً لاجتماع آخر عقد بعد شهر واحد في واشنطن لاتخاذ إجراءات المساندة للأسواق الناشئة والدول النامية.

وأسوق ذكر هذا الاجتماع لإظهار ما سيبين للقارئ من أن ثمار الأزمات الحالية تحمل بذوراً لأزمات قادمة وأن هناك أمرين مشتركين في كافة الأزمات. أولهما: انه رغم كثرة الحديث عن دروس مستفادة من أزمات ماضية وضرورة الاتعاظ بأخطاء هنا وتدارك تجاوزات هناك، فإن الأزمات تتكرر بقدر من الابتكار المحدود في مسبباتها. وثاني الأمور المشتركة أن كل الأزمات مهما بلغت في حدتها وخطورتها وطول أمدها تنتهي، وأن هذه النهايات غير عادلة في نتائجها إذ يدفع الثمن الأكبر لهذه الأزمات غير المتسببين فيها.

أعلم أنه مع كل أزمة مالية أو اقتصادية كبرى يذهب البعض إلى التأكيد على أنها عارض غير مسبوق، ويحاول اقتصاديون وضع مجموعة من الافتراضات عن المسببات الفريدة للأزمة المعنية، ويجتهدون في البحث عن منابعها، ويسعى البعض لصياغة تدابير وإجراءات جديدة للخروج من الأزمة ومحاولة منع حدوثها مرة اخرى. هكذا تنبئنا الأزمات المالية والاقتصادية السابقة على مدار القرون الأربعة الماضية...... من أزمة زهرة التيوليب (الزنبق) الهولندية في القرن السابع عشر إلى فقاعة بحر الجنوب في القرن الثامن عشر، ثم تدهور سوق القطن الأجلة في القرن التاسع عشر. وإذا استعرضت عقود القرن العشرين فلا يكاد يمر عقد أو عقدان منه إلا وشهد أزمة مالية أو مصرفية أو ائتمانية أو في أسواق النقد الأجنبي. ففي عام ١٩٠٧ حدثت فوضى مالية كبرى بعد انهيار الأسواق وتسابق المودعون على البنوك لسحب ايداعاتهم من البنوك الأمريكية. وقد جاء أحد المعلقين في كتاب نشر له عام ١٩٠٨ بإيضاح لأسباب هذه الأزمة[1] فتجد مشكلة التلاعب في سوق الأوراق المالية في المقدمة، وتدفق رؤوس الأموال دون ضوابط إلى القطاع العقاري، والانفلات في قواعد منح الائتمان، وشح السيولة وفقدان الثقة بين المؤسسات المالية.

ثم تمر السنوات قصارا أو طوالا في تقدير من عاشها، لتأتي الأزمة المالية العالمية الكبرى المعروفة بالكساد الكبير ليشرح الاقتصادي جون كينيث جالبريث في كتابه المعنون «الانهيار الكبير ١٩٢٩»[2] وهو دراسة كلاسيكية عن الخراب الاقتصادي الذي تسببت فيه هذه الأزمة المالية والذي امتد لعشر سنوات بعدها. ورغم تأكيد جالبريث على أن علم الاقتصاد لا يكاد يعطي إجابات شافية عن مسببات الانهيار المالي في عام ١٩٢٩ فإنه يظهر في تحليله مشكلة التلاعب في سوق الأوراق المالية: المدفوع والمتبوع بمقامرات مالية وليس مضاربات محسوبة، وتيسر ذلك بمنح سهل للائتمان دون ضوابط وإفراط في الثقة من جانب المؤسسات المالية لحد الغرور في اتخاذ القرار الائتماني، وشعور بتدفق غير محدود للمدخرات وتدفق رؤوس الأموال دون حساب لتذهب إلى أوعية مالية غير مساندة لأنشطة إنتاجية، فمجالات الاستثمار محدودة وعوائدها متواضعة لا تتناسب وطموح المدخرين الطامعين في عائدات عالية. وقد جاءت هذه التطورات على نحو مشابه لما حدث في أزمات سابقة، ومنها فقاعة «بحر الجنوب» في القرن الثامن عشر عندما كانت تنهمر المدخرات على أنشطة ذات عائد مالي ظاهر دون عمل اقتصادي منتج يبرر هذا العائد.

وعندما أتت لحظة المراجعة المحتومة وعدم القدرة على السداد تبدأ سلسلة الانهيارات كقطع «لعبة الدومينو» المتراصة في تتابع لبعضها البعض، حيث وقوع واحدة منها يؤدي إلى وقوع باقي القطع، التالية لها والسابقة عليها .. وهذا ما يعرف بالمخاطر النظامية، فانهيار مؤسسة في هذه الحالة خطرد غير مقصور عليها وحدها ومع ظروف عدم الثقة وعدم توفر السيولة، بعد عهد من الإفراط في الثقة وإتاحة السيولة النقدية والمالية الرخيصة، يتحول القلق إلى هلع وفي صناعة المال والائتمان، التي تعتبر الثقة عمادها، سرعان ما تحدث الفوضى المدمرة التي تقضي على مؤسسات مالية وتنسحب الأزمة من الدوائر المالية في شارع «وول ستريت» إلى الدوائر التجارية والاقتصادية في أسواق الصناعة والزراعة والاستثمارات فتزداد البطالة وينتشر الفقر وتشيع الجريمة.

قد لا يتكرر التاريخ في شأن الأزمات المالية والاقتصادية حرفيا، ولكن أوجه التشابه بين الأزمات تجعلها وكأنها في إطار قافية شعرية بائسة ممتدة ذات سجع تام. ألم تر هذا التكرار والاشتراك في المسببات لهذه الأزمات؟ إفراط في الائتمان غير المنضبط وزيادة في السيولة ومبالغة في الثقة بين المؤسسات المالية سرعان ما تتحول إلى انحسار في الائتمان ونقصان حاد في السيولة وانعدام في الثقة بين المؤسسات.

ولننظر في عدد من الأزمات الحديثة التي شهدتها الأجيال المعاصرة: الأزمة المالية في تشيلي عام ١٩٨٢، وأزمة المديونية الخارجية لدول أمريكا اللاتينية في الثمانينيات، وأزمة المكسيك المالية في عام ١٩٩٤، والأزمة الآسيوية في عام ١٩٩٧، ثم الأزمة الروسية وأزمة جنوب أفريقيا في التسعينيات من القرن الماضي، وأزمة الأرجنتين في مطلع هذا

الكتاب تحت عنوان «خمسون عاما في وول ستريت» للمؤلف هنري كلوز
Clews, Henry (1908), "Fifty Years in Wall Street, Irving Publishing Company
2 - Galbraith, John Kenneth (1954), "The Great Crash: 1929, Penguin Books
3 - Minsky, Hayman (1986), "Stabilizing an Unstable Economy, Yale University Press.

لقد تراخت مؤسسات الرقابة فى عدد من الدول المتقدمة فى عملها مدفوعة بتفاؤل فى معدلات النمو التى ستجبر الأخطاء، وتفاؤل بزيادة فى تدفق الأموال التى ستغمر الأسواق بما لا يكشف عن العورات

القرن .. بل والأزمة المالية العالمية الراهنة. ألم تجمعها مسببات الأزمات السابقة؟ فأين ذهبت قوائم الدروس المستفادة؟ وأين فقدت تقارير التوصيات بإصلاح المؤسسات المالية الدولية وتحديدا صندوق النقد الدولى والبنك الدولى؟ وأين ذهبت نتائج المؤتمرات الدولية ومجموعات العمل التى شكلت خاصة فى أعقاب أزمة جنوب شرق آسيا التى أشرت إليها فى مطلع هذا المقال؟

إن المطالع اليوم لنتائج قمة دول العشرين التى عقدت فى نوفمبر ٢٠٠٨ فى واشنطن لا يجدها تختلف شيئا يذكر عن توصيات مجموعة أل ٣٣ التى عقدت اجتماعاتها فى مارس وأبريل عام ٢٠٠٨. والمطلع على توصيات مجموعة الدول الثمانى الكبرى فى ٢٠٠٨ لا يجدها تختلف كثيرا فى توصياتها بشأن إعادة بناء النظام المالى العالمى عن تلك الصادرة عن مجموعة الدول السبع الكبرى الصادرة فى عام ١٩٩٩. ففى كل هذه التوصيات تكرار عن أهمية متابعة حركة رؤوس الأموال قصيرة الأجل، وإعادة إحياء دور مؤسسات بريتون وودز فى ظل عالم جديد يتزايد ارتباط أطرافه اعتماداً على بعضها استثمارا وتجارة، وشكوى من تراجع دور المؤسسات الاقتصادية المعنية بالتنسيق الدولى ووضع المعايير والقواعد ومتابعة تنفيذها .. فقد شهد العالم زيادة حادة فى السنين العشر الماضية فى تدفقات رؤوس الأموال والسلع والخدمات بين الدول فى الوقت الذى شهدت فيه المؤسسات المالية الدولية تدهورا مستمرا فى الأداء، وقلة حيلة فى التعامل مع الأزمات وعدم قدرة على التنبؤ بها أو التحوط ضدها أو التحذير المبكر منها.

ورجوعا إلى حديث اجتماع القلعة فى بون عام ١٩٩٩ وإشاراتى إلى انقسام المجتمعين إلى ثلاثة نفر: الأول نفر من القلقين من الدول الآسيوية صاحبة الأزمة والثانى نفر من المراقبين المتتبعين من الدول النامية ذات الأسواق الناشئة ومنها مصر ودول عربية وأفريقية لما سيسفر عنه الجدل والنقاش لعلاج الأزمة، والثالث نفر من ممثلى الدول المتقدمة الذى تفرغ وقتها لإلقاء الدروس والعظات عن كفاءة الأسواق وأهميتها. وفاعلية الرقابة المالية وضرورتها. ومن عجب أن تجد الأزمة المالية العالمية الراهنة قد تشكلت وظهرت أسبابها وكان محدثيها قد اطلعوا على هذه الدروس التى كانوا يلقونها فخالفوا كل نص فيها.

فأين كفاءة الأسواق مع غياب للمعلومات والشفافية وقواعد الإفصاح، والسماح بالتدليس بخلط الغث والمشبوه والفاسد من العقود المالية بالجيد والمقبول منها؛ وأين قواعد الرقابة الداخلية فى المؤسسات من هذا الانفلات فى منح الائتمان لمن لا يستحق من المقترضين المدفوعين دفعاً إلى الاقتراض بأسعار فائدة متدنية ورهون عقارية اقترض فيها الارتفاع المستمر فى الأسعار؟ فلما ارتفعت أسعار الفائدة بسبب القلق من التضخم وانخفضت أسعار العقارات خيفة تراجع معدل النمو ظهرت العقود على حقيقتها رغم الاجتهاد فى إخفاء معالمها بحزم مالية صيغت بغطاء تأمينى ليمعن فى إخفاء ما فى داخل هذه الحزم من عقود فاسدة. ولم يكن الأمر فقط فشلاً فى الأسواق التى عطلت آلياتها وأدواتها عن العمل بسبب غياب المعلومات الدقيقة وعدم الشفافية، بل تزامن معه فشل فى قواعد الرقابة المالية الفعالة. فكان هناك تهاون فى الإشراف وإفراط فى الثقة فى أن الكبار من المؤسسات المالية الكبرى فى الدول المتقدمة لا يقعون فى أخطاء الصغار من المؤسسات المالية المحدثة فى الأسواق الناشئة والدول النامية على النحو الذى حدث فى آسيا عام ١٩٩٧.

لقد تراخت مؤسسات الرقابة فى عدد من الدول المتقدمة فى عملها مدفوعة بتفاؤل فى معدلات النمو التى ستجبر الأخطاء، وتفاؤل بزيادة فى تدفق الأموال التى ستغمر الأسواق بما لا يكشف عن العورات. فلما ظهرت نذر التراجع فى معدلات النمو فى الولايات المتحدة بداية من عام ٢٠٠٦ وتكرر الحديث وقتها عن احتمالات أن تهبط طائرة الاقتصاد الأمريكى هبوطاً اضطرارياً عنيفاً أو على الأقل ستهبط هبوطاً يسيراً، فى إجماع على الهبوط واختلاف على شكله، تصاعدت حمى القلق دون إفصاح من قبل المفرطين فى قواعد كفاءة الأسواق وفاعلية الرقابة.

وبدلاً من أن يلجأ مسئولو المؤسسات المالية المتورطة إلى اتخاذ إجراءات احتوائية مبكرة، استمروا فيما بدءوا فيه من عمل ائتمانى ومالى منفلت وأصبحوا كالمقامر التعيس الذى يظن فى كل مقامرة جديدة يقدم عليها علاجاً لخسائر لحقت به فى المقامرات السابقة. فانتشرت هذه الأوعية المالية الفاسدة بين المؤسسات المالية فى أرجاء الأرض إلا قليلاً. وفتشت المؤسسات المالية فيما تحمله منها ومدى جودته بداية من عام ٢٠٠٧، فظهر ما أمعنوا فى إخفائه وزادت عملية التخلص العشوائى من هذه الأوعية وإعلان لخسائر كانت محدودة فى بدايتها بما اضطر الحكومة الأمريكية والنظام الفيدرالى المالى للتدخل فى إنقاذ بعض المؤسسات بالدمج القسرى لها وانتقلت المشكلة لأوروبا، فتم الاستحواذ على أحد بنوك الرهن العقارى فى بداية عام ٢٠٠٨، وظن البعض أن الأمور الصعبة قد تم احتواؤها ولكن ظهرت التداعيات الأكبر للأزمة فى شهرى سبتمبر وأكتوبر من عام ٢٠٠٨ الماضيين عندما تركت السلطات الأمريكية واحداً من أقدم بنوك الاستثمار فيها وأكبرها يسقط، فكان ذلك نهاية لبداية المحاولات البائسة للإنقاذ وبداية لسلسلة من الإجراءات اليائسة لاستعادة ثقة فقدت ولن ترجع أبداً فى ذات الأشخاص أو المؤسسات.

وقد يكون من طالع الولايات المتحدة أن تتبدل الإدارة الأمريكية ويأتى نفر جديد للحكم، لم يشاركوا فى أحداث الأزمة المالية الراهنة بما ييسر من الخروج منها. ولكن هذا الخروج سيكون مكلفاً كما كان حال كل خروج من كل أزمة سابقة. ولن يتحمل التكلفة من تسببوا فيها وحدهم ولكن سيشاركهم أناس لم يسمعوا مجرد السمع عن أسماء مثل «ليمان براذرز» أو «الإخوة ليمان»، وهو اسم لمؤسسة قديمة التاريخ وكبيرة الفشل التى سمح سقوطها فى الولايات المتحدة بالإعلان الرسمى عن بداية الأزمة المالية الكبرى الراهنة. لن يدفع ثمن هذه الأزمة أصحاب المرتبات الخيالية السنوية الذين فقدوا وظائفهم ولكن بعدما حصلوا على أموال تؤمن مستقبل أحفاد أحفادهم مالياً. ولن يدفعها دافع الضرائب الأمريكى أو الأوروبى وحده، ولكن سيدفع التكلفة الفادحة لها أناس يعيشون فى دول نامية لم يعرفوا «الإخوة ليمان» ولكنهم عرفوا إخوة متعطلين سيزدادون عدداً، وعرفوا إخوة لهم من الفقراء سيزدادون فقراً من جراء التداعيات السيئة الاقتصادية للأزمة المالية العالمية.

فالكساد الاقتصادى تجاوز مرحلة التنبؤ والتخرص به واستبعاده واستقرابه إلى واقع تشهده أسواق أمريكا وأوروبا الغربية بتوقعات نمو للعام ٢٠٠٩ تقل عن الصفر واحتمالات لاستمرار الكساد لما لا يقل عن عامين، وسيكون لذلك تأثيره السلبى على النمو العالمى رغم معدلات النمو المتوقعة لدول آسيوية بما فى ذلك الصين التى تعتمد حركة النشاط الاقتصادى فيها على صادرات إلى الأسواق الأمريكية والأوروبية واستثمارات منها.

وسيزيد من حدة المشكلة عدم قدرة المؤسسات المالية والائتمانية فى ظل الأزمة على القيام بعملها، وعندما سئل أحد رؤساء البنوك الأوروبية الكبرى عن السبيل إلى الخروج من الأزمة فذكر ثلاثة من المتطلبات .. الأولى استعادة الثقة، والثانية عودة السيولة المالية والثالثة الحفظ

ظهرت التداعيات الأكبر للأزمة فى شهرى سبتمبر وأكتوبر من عام ٢٠٠٨ الماضيين عندما تركت السلطات الأمريكية واحداً من أقدم بنوك الاستثمار فيها وأكبرها يسقط

حين طالبت دول متقدمة بأن تقوم الأسواق الناشئة بخضوع قطاعاتها المالية للفحص والمتابعة من خلال البنك وصندوق النقد الدوليين. امتنعت هي عن الخضوع لهذا الفحص

الطيب. وهي متطلبات لو توفرت لأي مؤسسة في أي مكان أو زمان لقامت بعملها على خير وجه.

من الواضح أن بعض البنوك الكبرى فقدت قدرتها على القيام بدورها الأساسي وهو الوساطة المالية بتعبئة المدخرات وتوجيهها للاستثمار والنشاط الإنتاجي والاقتصادي.. وهو ما لا يظهر بوادر للتحسن بشأنه في الأجل القصير مما جعل أحد المعلقين الاقتصاديين هو جون كاي في جريدة الفايننشال تايمز يطالب البنوك البريطانية بالقيام بدورها فوراً بعدما تمتعت بهذا السخاء الحكومي في انقاذها في حين تركت مؤسسات اقتصادية مثل أكبر المتاجر البريطانية وهو «وول وورث» ذو المائة عام من النشاط الحافل يواجه شبح الإفلاس.

والسبب في التمييز لصالح البنوك مقابل أي مؤسسة أخرى هي قيامها بالوساطة المالية ومسئوليتها عن نظام الدفع وتسوية المستحقات في المجتمع.

ويبدو أن بنوكاً قد اعتادت على هذا السخاء الحكومي بإنقاذها بأموال الناس فتكررت أخطاؤها بل زادت فداحة هذه الأخطاء مع الوقت، فيما يعرف بين الاقتصاديين «بأثر الخطر المعنوي» الذي يشجع المؤسسة التي تعلم أنها ستنتشل في النهاية من عثرتها بعدم توخي الدقة ومراعاة الانضباط في منح الائتمان، وسيكون ذلك في تقديري أحد بذور الأزمة المالية القادمة ولو بعد حين.

يعزز هذا الرأي ما أظهره «هايمان منسكي» في إطار كتاباته[٢] عن طبيعة الاقتصاد الأمريكي وإلى حد ما الاقتصاد الأوروبي، المدفوع بحكم مكوناته وآليات عمله إلى أزمات وانهيارات جارفة، لاعتماده على نظام مالي يتأرجح بين القوة والضعف والحركة والشلل، بما يؤدي إلى تقلبات حادة في الدورات الاقتصادية بين رواج وكساد وازدهار وركود، ويزيد من حدة هذه التقلبات وتكرارها ترك الأسواق المالية تعمل دون ترسيخ قواعد الكفاءة وتطبيق فعال لمعايير الرقابة الحصيفة.

فحتى تعمل الأسواق يجب أن تتوافر لها ضرورتان متلازمتان هما الكفاءة وفاعلية الرقابة.. فيما يعبر عنه بأن الاقتصاد حتى يتطور دون حوادث يجب عليه أن يعمل في إطار ترسم حدوده حرف E مرتين ... مرة حرف E الدال على الكفاءة بمعنى Efficiency، ومرة حرف E الدال على الفاعلية Effective والمقصود هنا كفاءة الأسواق وفاعلية الرقابة عليها.. ونجد أن التضحية بأي منهما ناهيك عن كليهما، ولو بقدر يسير يعجل بحدوث الأزمات. فقد أهدرت قبل الأزمة المالية الأخيرة معايير الكفاءة بغياب الشفافية والمعلومات وعدم القدرة على تصنيف المخاطر والعوائد المرتبطة بها، فصنفت أوعية مالية على أنها قليلة المخاطر ومرتفعة العائد خلافاً للواقع. تزامن ذلك مع تواضع تطبيق معايير وقواعد الرقابة والإشراف، وترك الساحة يعبث فيها المغامرون بأعمالهم دون حسيب أو رقيب. وتركت مؤسسات للتصنيف الائتماني تصدر تقارير عن الشركات والمؤسسات أسهمت في التضليل وهي إلى يومنا هذا لا تخضع لأي رقابة أو إشراف، ولا يمكن مراجعة قراراتها أو تقاريرها بآليات عادلة أو من جهات متخصصة محايدة يعتمد عليها.

وفي حين طالبت دول متقدمة بأن تقوم الأسواق الناشئة بوضع قطاعاتها المالية تحت إجراءات الفحص والمتابعة من خلال لجان مشتركة للبنك وصندوق النقد الدوليين فيما عرف ببرنامج تقييم القطاعات المالية. امتنعت دول متقدمة عن إخضاع قطاعاتها المالية لهذا الفحص الذي يسهم في التعرف على المشكلات أولاً بأول وقبل تفاقمها. فالكيل بمكيالين ليس فقط في أحوال السياسة ولكن نجده أيضاً في أمور الاقتصاد وبشكل فج.

وتتداعى إلى الذاكرة كشاهد على اجتماعات بون وواشنطن وما جرى فيها من تلقين لممثلي الأسواق الناشئة الأسيوية في كيفية إدارة الاقتصاد واعتبارات الالتزام بقواعد الرقابة المالية وسبل إخضاع الشركات لقواعد الحوكمة والشفافية، من ملقنين تجدهم وقد خرقوا كل قاعدة ومعيار عن الكفاءة والفاعلية والحصافة في الرقابة ولوازمها ودواعيها.

في غمرة الأزمة المالية الحالية فإن التحدي الأساسي الذي يواجه السياسات الاقتصادية وخاصة في الدول النامية هو تحقيق استدامة للنمو الاقتصادي بدعم قدراتها على مواجهة مثل تلك الأزمات

ورغم ما تشهده اليوم من اجتماعات ومؤتمرات فإنني لا أتوقع إصلاحاً يذكر في النظام المالي العالمي دون مشاركة فاعلة للدول النامية صاحبة الاقتصادات البازغة في صياغة المنظومة المالية الدولية، وإعادة بناء دور المؤسسات المالية الدولية على قواعد جديدة للتصويت والإدارة وتوجيه الأمور فيها وقيامها بدور جديد يتناسب وتحديات ومتطلبات هذا العصر.

فالوضع اليوم مختلف تماماً عما كان عليه عندما تأسست هذه المؤسسات الدولية في منتصف الأربعينيات ولنا أن نطالع ونقارن وضع الدول الخمسين الأكثر تقدماً من الناحية الاقتصادية، حتى بالمعيار البسيط للدخل القومي أو بمعيار معادلة القوة الشرائية، فستجد اليوم عدداً كبيراً من الدول كانت في المقدمة لم تعد كذلك اليوم، وسترى دولاً لم تكن على الخريطة الاقتصادية أصبحت ذات شأن معتبر في تجارة العالم واستثماراته.

وفي تقديري أنه يجب أن تتم الإجراءات الإصلاحية وبمشاركة الدول النامية على وجه السرعة، فبعد نهاية الأزمة عادة ما تعاود الأسواق المالية، ذات الذاكرة الضعيفة، ارتكاب ذات الحماقات والانتهاكات ولكن بأساليب جديدة. وبعد الأزمة تحاول المؤسسات التي فقدت أموالاً كبرى مراجعة حساباتها سريعاً وتحاول أن تعوض ما فاتها من الزمن وما خسرته أثناء الأزمة.

وفي غمرة الأزمة المالية لا ينبغي أن نتجاهل أن التحدي الأساسي الذي يواجه السياسات الاقتصادية وخاصة في الدول النامية والاقتصادات البازغة هو تحقيق استدامة للنمو الاقتصادي بدعم قدراتها على مواجهة مثل تلك الأزمات ويقيها من تبعاتها، ولعل هذا يأتي في إطار عمل شاركت فيه مع مجموعة عمل ضمت مختصين وخبراء ومسئولين انتهت إلى إصدار تقرير هام عن النمو والتنمية في العالم لمدة عامين متصلين، وتحديداً منذ أبريل ٢٠٠٦ وحتى أبريل ٢٠٠٨.

ونسق لمجموعة العمل أستاذ اقتصاد معتبر في جامعة ستانفورد حصل على جائزة نوبل في الاقتصاد عام ٢٠٠١ وهو البروفيسور «مايك سبنس» شاركه أستاذ شهير في علم الاقتصاد ودراسات النمو والتنمية وهو البروفسور «روبرت سولو» أبو نظرية النمو الاقتصادي؛ وفي هذا التقرير بعض الأمور التي أحسبها تراجع مراجعة جوهرية لما عرف «بتوافق واشنطن» وقد نشرت بعض المقتطفات من هذا التقرير في عدد سابق من مجلة وجهات نظر.

سينظر إلى هذا التقرير، في تقديري، باعتباره تطوراً نوعياً في فهم أسباب النمو الاقتصادي وتحرراً من أسر الأفكار الجامدة لإدارة الاقتصاد، إذ يؤكد التقرير على أهمية تبني أسلوب مرن في سياسات النمو والتنمية دون وصفات جاهزة واجبة الاتباع، ويضع التقرير في الوقت ذاته النمو الاقتصادي في مركز الصدارة من حيث الأولوية في السياسات المتبعة، ليس لأهمية النمو في حد ذاته لكن باعتباره معيناً على تحقيق أهداف التنمية من مكافحة للفقر، وإتاحة لفرص العمل، وزيادة الدخول، والإسهام في توفير الخدمات العامة كالتعليم والصحة.

هذا التقرير يستخلص التجارب من عدة دول قد حققت بالفعل انجازاً هاماً في مجال النمو والتنمية، والأهم من هذا أنه يعطي بديلاً لما يعرف «بتوافق واشنطن» ويعين في التعامل مع الأزمة المالية العالمية الراهنة.

في إطارنا العربي هناك مجال كبير لصياغة سياسات اقتصادية عربية في إطار ترسيخ دور الدولة القوية التي تتبع سياسات مرنة. ويخطئ من يظن أن هناك عودة لمذاهب التدخل السافر في النشاط الاقتصادي والدليل على ذلك ما يحدث الآن في حالات الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي فهذا التدخل وفقاً لما أعلن هو تدخل مؤقت مجبرون عليه لإنقاذ المؤسسات، وينتظرون فرصة لطرح ما اشتروه في هذه المؤسسات مرة أخرى للأسواق وللقطاع الخاص. والتاريخ الاقتصادي الحديث للاتحاد الأوربي والولايات المتحدة ملئ بالأمثلة بالتدخل لشراء أصول تتملكها الدولة

لفترة ثم تخرج منها أو إقالة بعض المؤسسات من عثراتها. وكما حدث في أعقاب الأزمة الماليه الكبرى في الثلاثينيات وكما حدث في الثمانينيات والتسعينيات للمؤسسات المالية الصغيرة المعروفة ببنوك الادخار والإقراض في الولايات المتحدة. وكما حدث في انجلترا في شركات التامين ، فمسألة التدخل بالشراء لأصول مالية لا يجب أن يتلقفها البعض كأنها نوع جديد من تدخل الدولة تحيد به عن مسارها في مساندة اقتصاد بما يعتمد بالأساس على مؤسسات القطاع الخاص. هذا هو الواقع دون التمسك ببعض التوجهات المذهبية تعلقا بها.

وفي تقديري إن التعلق الجامد بالمذاهب الاقتصادية قد تراجع بشدة منذ عام ١٩٧٨، من خلال هذه الزيارة التي قام بها الزعيم الصيني دنج زياو بينج إلى سنغافورة وخرج منها مقتنعا بأن شكل الملكية لا يهم وأن قواعد الاستثمار الخاص جنبا إلى جنب مع الاستثمار العام ستحقق النمو والتنمية المطردة فيما اشتهر عنه بعد ذلك بالمثل الذي أطلقه Black cat & white cat، أي أنه لا يهم لون القطة سوداء أو بيضاء ما دامت تصطاد الفئران. فما يهم هو الإطار الحاكم للنشاط الاقتصادي. المنافسة العادلة التي يجب أن تكون في الاقتصاد. وتفعيل القواعد الرقابية الحاكمة للأسواق. هذه المرونة هي السبب وراء الانطلاقة الكبرى في حالة الصين الشيوعية وهذا أيضا ما يقي الآن الأسواق المالية الأوربية والأمريكية من تداعيات الأزمة المالية لأنها لو تمسكت بقواعد حرفية للملكية الخاصة لانهارت الأسواق بشكل أكبر، وأتصور أنه آن الأوان في الحالة المصرية على الأقل أن نتخلص من مسألة شكل الملكية كرهان على النجاح أو الفشل ولا يوجد صراحة ارتباط آلي لشكل الملكية بالكفاءة أو الأداء أو الإنتاجية، فكل منا يعلم في محيطه أنه في حالات كثيرة للملكية الخاصة حدث تدهور في الأداء بسبب عدم كفاءة الإدارة أو عدم كفاءة الأسواق وكذلك الأمر بالنسبة للملكية العامة.

العبرة إذن بكفاءة الإدارة والتنافس في الأسواق وفاعلية الرقابة عليها، وبألا تدخل الدولة في أنشطة يكون فيها أداء القطاع الخاص أكثر تميزاً وتطوراً ومحققا لقواعد الكفاءة.

إن التعلق المذهبي الشديد ببعض المدارس الاقتصادية التي ترجع إلى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر أو حتى القرن العشرين يعلن عن حالة من الإفلاس للمعاصرين، وكأن النظريات الاقتصادية والمفكرين الاقتصاديين وفلاسفة السياسة لم يستطيعوا إخراج شيء آخر يحيد بهم عن التعلق بما تبقى عن المذاهب الرأسمالية أو الاشتراكية.

قد يكون من المستحسن في التعامل مع الأزمة الراهنة أن نستفيد من دروس النمو والتنمية في الدول ذات الاقتصادات البازغة ومنها ما يأتي:

أولاً .. انفتاح هذه الدول على الاقتصاد العالمي والانتفاع بتدفقات الاستثمار الأجنبي وزيادة الصادرات السلعية والخدمية والاستفادة من تطور العلوم والمعارف في الارتقاء بكفاءة العنصر البشري في هذه البلدان.

ثانياً .. تحقيق استقرار في الاقتصاد الكلي خاصة فيما يتعلق بمعدلات التضخم وحسن الأداء المالي.

ثالثاً .. التوجه المستقبلي في السياسات الاقتصادية بمزيد من الاعتماد على معدلات عالية من الادخار والاستثمار.

رابعاً .. الاعتماد على آليات السوق المنظمة والمراقبة في توظيف الموارد وحسن توجيهها للاستخدام الأكفأ لها.

خامساً .. وجود قيادة فاعلة تطبق قواعد الحكم الرشيد الملتزم بتنفيذ السياسات الدافعة للنمو، وحريصة على شمول التنمية لكافة أبناء المجتمع دون استبعاد أو انحياز، ومن خلال جهاز إداري كفء يقوم بأعبائه ومسئولياته على أفضل وجه.

وجدت من الضروري التأكيد على هذه المحاور العامة والأساسية للعمل في نشدان النمو والتنمية خاصة في إطار ما يثار عن أن التعامل مع الأزمة المالية العالمية يتطلب في نظر البعض العودة إلى الدولة المتدخلة في الإنتاج مباشرة والسيطرة عليه والتوجه نحو الداخل وفرض سياج من الحماية في سبيل حركة التجارة.

وفي الإطار المحدد للتعامل مع الأزمة المالية العالمية في مصر هناك خمسة محاور رئيسية للعمل في إطار السياسة الاقتصادية المتبعة، خاصة في ظل أن القطاع المصرفي المصري يتمتع بالأمان والاستقرار وفائض في السيولة يشهد عليها انخفاض نسبة القروض إلى الودائع.

المحور الأول: زيادة الإنفاق العام من خلال ضخ استثمارات جديدة في مشروعات للبنية الأساسية والمرافق العامة، وتشجيع نمط المشاركة بين القطاع الخاص والقطاع الحكومي في انجاز مشروعات الطرق والمدارس والصرف الصحي والمياه.

المحور الثاني: زيادة قدرة قطاع التمويل على القيام بوظيفته في الوساطة المالية وتوفير الائتمان المطلوب للأنشطة الإنتاجية والتصديرية وفقاً للقواعد المنظمة لمنح الائتمان بتكلفة مناسبة خاصة في ظل شواهد انخفاض التضخم، مع العمل على توسيع نطاق إتاحة التمويل للمشروعات المتوسطة والصغيرة لمساندتها على التوسع والإنتاج.

المحور الثالث: تشجيع ومساندة الاستثمارات الخاصة من خلال التعامل مع معوقات الاستثمار والعمل على تيسير الإجراءات المتعلقة بمنح التراخيص والموافقات اللازمة لبدء النشاط، وتبسيط واختصار الإجراءات اللازمة لذلك، وتيسير حصول المستثمرين على الأراضي اللازمة لإقامة مشروعاتهم وفقاً لقواعد معلنة، وتحقيق التوازن والاستقرار في أسعار الطاقة لأغراض الصناعة، ومساندة الشركات ذات التوجه التصديري من خلال حزمة من الإجراءات والحوافز التي تكفل خفض تكلفة المعاملات بالنسبة لخدمات النقل والتخزين وتأمين الصادرات وزيادة تنافسية الصادرات.

المحور الرابع: تنشيط أسواق المال والخدمات المالية غير المصرفية من خلال تنظيم تعامل الشركات على أسهم الخزينة الخاصة بها، بما يتيح لها القيام بدور صانع السوق لأسهمها وكمستثمر طويل الأجل فيها. لتحفيز الشركات الخاصة والمملوكة للدولة للدخول برغبتهم كمشترين في سوق الأوراق المالية. وتفعيل دور نشاط الشركات العاملة في مجال التأجير التمويلي لتمويل المشروعات المتوسطة والصغيرة، والمزيد من المساندة لنشاط التمويل العقاري لتمويل محدودي ومتوسطي الدخل مع مراعاة ضوابط الرقابة والإشراف وتشجيع تكوين صناديق استثمار مباشر من القطاع الخاص والمؤسسات المالية العامة والخاصة تستهدف الاستثمار وليس المتاجرة في الأسهم التي انخفضت قيمتها السوقية عن قيمتها المحسوبة وفقاً لأدائها.

المحور الخامس: تطوير التشريعات الاقتصادية بالعمل على مساندة تطبيق نظام المحاكم الاقتصادية وتوسيع النطاق الجغرافي لممارسة نشاطها، والانتهاء من إعداد مشروع قانون لتنظيم التخارج من السوق وتنظيم الإفلاس، والانتهاء من مشروع قانون جديد للشركات، والتقدم بمشروع قانون لتوحيد جهة الرقابة على الخدمات المالية غير المصرفية.

إن في هذه الأزمة فرصاً كامنة كما أن فيها تحديات ظاهرة.. ومن الفرص ما نجده في انخفاض أسعار السلع عالميا بما يحقق نقصانا في معدلات التضخم المحلية والتي كانت التحدي الأكبر خلال العام الماضي في ظل الارتفاع الشديد في أسعار السلع الغذائية المستوردة وأسعار مواد البناء، سيخفف هذا من الأعباء على الفئات ذات الدخل المحدود والفئات متوسطة الدخول في مصر، ومن الفرص أيضاً ما أراه في ظل اهتمام المؤسسات المالية العربية والشركات من الاستثمار في مشروعات البنية الأساسية ومشروعات إنتاجية في إطار دولها أو في المحيط الاقتصادي العربي خاصة بعدما منيت الاستثمارات العربية بخسائر فادحة في الأسواق المالية العالمية، وليس صحيحاً أن الاستثمارات العربية ستنحسر في المستقبل فيكفي أن نعلم أنه حتى عند سعر ٥٠ دولارا لبرميل النفط ستتحقق للدول العربية النفطية فوائض من اليوم حتى عام ٢٠٢٠ تقدر بمرتين ونصف المرة لإجمالي الفوائض التي تحصلت عليها خلال الخمسة عشر عاماً الماضية. وسوف تبحث هذه الفوائض عن مجالات للاستثمار ذات عائد مناسب ومخاطر وتكلفة محسوبة في مشروعات ملموسة في قطاعات الإنتاج والعمران.

وأرى فرصة للعرب والدول النامية في المطالبة بإعادة تشكيل النظام المالي والاقتصادي العالمي. خاصة أن الأساليب القديمة، الموروثة من عهد الحرب العالمية الثانية، في اتخاذ القرار على المستوى العالمي وفي المؤسسات الدولية ظهر فشلها تكرارا ومرارا بما يجعل الاستمرار فيها دون تغيير جذري وموضوعي من عوامل الفشل المحقق في الاستفادة من دروس الأزمات المتلاحقة بما في ذلك الأزمة المالية والاقتصادية الحالية ويجعل من ثمار الأزمة الراهنة بذور لأزمة قادمة إذا لم نستفد من دروس التاريخ.

فلا بد للعرب وللدول النامية من دور يتناسب ليس فقط مع الوضع الاقتصادي النسبي الجديد فحسب، ولكن بما يتوافق مع حجم ما تتحمله شعوبهم من آثار للأزمات الاقتصادية المتلاحقة التي يسهم في تكرارها وتفاقم تداعياتها السلبية تواضع حال المؤسسات المالية والاقتصادية الدولية بما لا يتوافق مع الهيكل الجديد للاقتصاد العالمي وتغير موازين القوة فيه خاصة بعد هذه الأزمة المالية الراهنة. ■

الاقتصاد العالمي الجديد والاقتصاد السياسي للحركات الاجتماعية الإسلامية

اقتصاد المسلمين

مصارف.. وشركات.. وتوازنات

جوئل بنين





تمكنت المملكة العربية السعودية وأثرياء النفط العرب الآخرون بفضل الازدهار النفطي من نشر نسختهم في الإسلام

* تشكل الفترة منذ أواسط السبعينيات من القرن العشرين وحتى منتصف العقد الأول من القرن الواحد والعشرين منعطفا تاريخيا تضافرت فيه جهود الصفوة في الشمال مع الجنوب لإعادة بناء الاقتصاد العالمي كي يخدم - بصورة مباشرة أكثر سفورا - مصالح رأس المال التي يوجهها «إجماع واشنطون» (مجموعة من عشر وصفات لإصلاح اقتصاد الدول النامية) الليبرالي الجديد. كان صعود نظرية الاقتصاد الليبرالي الجديد من الهامشية إلى الهيمنة رد فعل تجاه أزمة مبدأ «فورد - كينيس» (نسبة إلى الصناعي الأمريكي هنري فورد والاقتصادي البريطاني جون مينارد كينيس) لتراكم رأس المال. لقد ارتكز ذلك النظام على الإنتاج الصناعي الكمي ورواتب العمال المرتفعة نسبيا (مبدأ فورد) وتدخل الدولة لضبط توازن القوى بين العمال ورأس المال والدولة (مبدأ كينيس). وقد حقق مبدأ «فورد-كينيس» ثلاثة عقود تقريبا من الاستقرار الاقتصادي والنمو الثابت في الغرب بعد تطبيقه في مؤتمر «بريتون وودز Bretton Woods» عام ١٩٤٤. وقد أدت الأنظمة الاقتصادية المشابهة المقتبسة محليا في مصر وتركيا وغيرهما في الجنوب، إلى تحقيق معدلات نمو أعلى وتوزيع للدخل أكثر إنصافا خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، أكثر مما حققت بعد تحولها نحو النظام الليبرالي الجديد في الثمانينيات والتسعينيات من نفس القرن.

على الساحة العالمية، كان مبدأ «فورد-كينيس» أحد أوجه إمبراطورية أمريكية غير رسمية ترتكز على قدرة إنتاجية هائلة لم تتضرر أثناء الحرب العالمية الثانية، واستثمار ضخم مباشر بالخارج من قبل مؤسسات تتخذ من الولايات المتحدة مقرا لها، ومكانة الدولار الأمريكي كالعملة الاحتياطية للعالم، وقوة عسكرية عظيمة. كانت قيمة أوقية الذهب أثناء مؤتمر «بريتون وودز» ٣٥ دولارا. وقد بقي هذا التقدير ثابتا حتى تم فك الارتباط بين الدولار والذهب في أغسطس عام ١٩٧١.

لم يستطع تعويم الدولار أن يوقف التدهور النسبي للاقتصاد الأمريكي مقارنة باليابان وأوروبا اللتين يمكنهما الآن تحدي السيطرة الاقتصادية للولايات المتحدة، ولكن ليس التفوق عليها. لقد دشن الكساد العالمي في الأعوام ١٩٧٣-١٩٧٥ عقدا من الركود والتضخم في الدول الرأسمالية الصناعية. وخلال هذا العقد من الركود والتضخم، جرى الاستبدال التدريجي لمبدأ «فورد - كينيس» لتراكم رأس المال بالنظام الليبرالي الجديد للتراكم المرن الذي عكسته سياسات «رونالد ريجان» و«مارجريت ثاتشر» في الولايات المتحدة وبريطانيا، والتي كانت مناوئة للعمال والنقود وموالية للتجارة الحرة وبرامج الاستقرار وتعديل الهيكلة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. والتي جرى تطبيقها بتوجيهات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي.

بداية من منتصف السبعينيات، ظهرت الحركات الإسلامية كالشكل الأكثر شعبية للمقاومة ضد الأنظمة الاستبدادية بالشرق الأوسط والاقتصاد العالمي الجديد. ومن التناقض أن الهوية الإسلامية شكلت في الفترة نفسها صورة لرأسمال اجتماعي يخفف من تقلبات مناخ السوق الجديد، من خلال تكوين شبكة من الثقة والتبادلية لطبقات الأعمال الصاعدة ذات الصبغة الإسلامية.

وقد صاحب التحول تجاه السياسات الاقتصادية الليبرالية الجديدة تحالف بين نخب الدولة والإسلاميين ضد اليسار العلماني. وتشير النزعات الاجتماعية المحافظة لكثير من عناصر طبقة الأعمال الإسلامية وصلاتها بالمملكة العربية السعودية، إلى سبب نزوع الحركات الإسلامية في تركيا ومصر والسودان والمغرب والأردن وغيرها في بداية العصر الليبرالي الجديد إلى التحالف مع الأنظمة الشمولية المشاركة في قهر التحديات التي تواجه تلك الأنظمة من قبل الخصوم اليساريين العلمانيين. ومع ذلك، سرعان ما انقلب بعض الإسلاميين ضد من قاموا بدعوتهم إلى الساحة السياسية.

النفط والإسلام

شكل النفط منذ زمن طويل رابطا هاما بين مراكز وأطراف السوق العالمي، ولكن العلاقة بين النفط والإسلام كانت دوما تعالج بكثير من الجدل.

إن العديد من الغربيين لم يدركوا الطبيعة الهيكلية لأزمة مبدأ «فورد-كينيس»، وقد نسبوا الركود والتضخم خطأ إلى الحظر النفطي العربي القصير وغير الفعال إلى حد كبير والذي أعلن كرد فعل للدعم الأمريكي لإسرائيل أثناء الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٧٣. ومع الأخذ في الاعتبار أن النفط كان أحد عناصر الأزمة، فإن ضعف قدرة التكرير في الغرب كان أكثر أهمية من سعر النفط. وقد حلقت أرباح شركات النفط الغربية بينما تحمل المستهلكون العبء كله، تماما مثلما هو الحال أثناء طفرة أسعار النفط الحالية.

لقد زعم العالم الأفريقي المسلم «علي مزروعي» أن الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٧٣ ربطت بين «برميل النفط» و«هلال الإسلام»، مما أدى إلى إعادة إحياء الإسلام[١]. وكانت لدى كل من أنصار جناح اليمين المعادي للإسلام مثل «دانيال بايبس Daniel Pipes» والمفكرين العلمانيين العرب مثل «فؤاد زكريا» حجج مماثلة[٢]. ولكن تلك الآراء تعجز عن التأريخ للمنعطف الذي امتطت فيه صور محددة للحركات الإسلامية موجة البترو- دولار التي غمرت الشرق الأوسط، بينما عارضت نفس تلك الحركات أو غيرها - في الوقت نفسه - العواقب الاجتماعية والثقافية للازدهار النفطي والليبرالية العالمية الجديدة.

لقد تمكنت المملكة العربية السعودية وأثرياء النفط العرب الآخرون بفضل الازدهار النفطي من نشر نسختهم من الإسلام بمزيد من النشاط ومن تمويل الحركات الإسلامية في العديد من الدول بما في ذلك مصر وتركيا. وقد وجد العمال المهاجرون من مصر والسودان والأردن وفلسطين واليمن فرص عمل في المملكة العربية السعودية والخليج. وقد توفر التمويل للحركات الإسلامية من خلال إعادة تدوير عائدات أولئك العمال من خلال شبكات الصرافة غير الرسمية. وفي منتصف الثمانينيات قامت رابطة العالم الإسلامي التي تمولها السعودية والتي تدفقت عليها دولارات البترول والمساهمات الضخمة من «أرامكو Aramco»، قامت بدفع رواتب الأئمة الأتراك في مساجد ألمانيا الغربية وتمويل بناء المساجد في تركيا، بينما تولت الحكومة السعودية دفع رواتب مدرسي اللغة العربية في الجامعات التركية[٣].

لم يكن من الممكن أن تزدهر تلك الجهود لو لم تمر تلك الدول بأزمات سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية مرتبطة ببدايات تحولها نحو الليبرالية الجديدة. وقد حققت الكثير من الدول ذات الأغلبية المسلمة، سواء المصدرة للبترول مثل نيجيريا أو الجزائر، أو المصدرة للعمالة مثل مصر والسودان واليمن، القليل من المزايا طويلة الأمد من تضاعف أسعار النفط عشرين مرة بين عامي ١٩٧٣-١٩٨١. وبينما مكن البترول العديد من الدول المصدرة للنفط والعمالة من تدشين تحالف هيمن على الحياة السياسية يتشابه المكتسبين من عائد الريع، فإنها لم تتمكن من إرساء بنية اجتماعية راسخة لتراكم رأس المال أو رؤية سياسية جديدة. وقد هيأ هذا الفشل والأزمات المتشابكة المرتبطة بإعادة الهيكلة الاقتصادية الليبرالية الجديدة بالإضافة إلى المشاكل الناتجة عن جماعات الجهاد ضد السوفييت بعد عودتها من أفغانستان، هيأ المناخ لصعود جماعات الجهاد في مصر والجزائر واليمن ودول عربية أخرى وإسلاميين يلجأون للعنف ويمينيين متطرفين في

تركيا خلال السبعينيات والثمانينيات. وقد يسرت الظروف المختلفة قليلا خلال نفس المنعطف التاريخي - في الثمانينيات والتسعينيات صعود الإخوان المسلمين الذين لا يلجأون للعنف في مصر ودول عربية أخرى، وحزب النهضة في تونس، وحزب العدالة والتنمية المغربي، والعديد من الأحزاب الإسلامية التركية التي لا تلجأ للعنف.

الليبرالية الجديدة وظهور طبقات الأعمال ذات الصبغة الإسلامية

تم تنصيب «تورجوت أوزال» كرئيس وزراء لتركيا عقب الانقلاب العسكري في ١٢ سبتمبر ١٩٨٠. وقد اتهم بتنفيذ البرنامج التقشفي لصندوق النقد الدولي الذي جرى بالفعل تبني أول إجراءاته في ٢٤ يناير من ذلك العام. ينتمي «أوزال» إلى عائلة دينية محافظة من مدينة «مالاطيا» التي تقع وسط الأناضول. وللعائلة صلات بـ «النقشبندية» وهي أكبر الطرق الصوفية خلال الحقبة العثمانية والتي حظرها «كمال أتاتورك» بعد إقامة الجمهورية التركية. ومع ذلك، احتفظ النظام النقشبندي بأتباع سريين وبدأ في الظهور ثانية بصورة تدريجية بعد عام ١٩٥٠.

كان الزعيم النقشبندي «محمد زاهد كوتكو» أحد الشخصيات الرئيسية التي ساهمت في إقامة أول حزب إسلامي تركي - حزب النظام الوطني - عام ١٩٦٩ والذي قاده «نجم الدين أربكان». كان «أربكان» أيضا نقشبنديا. وقد حظر حزب النظام الوطني عقب الانقلاب العسكري عام ١٩٧١.

انتقل «تورجوت» وأخوه الأكبر «كوركوت» إلى إستانبول وانضما إلى الزاوية النقشبندية في ضاحية «إسكندر باشا» والتي اشتهرت كمنتدى لصفوة رجال السياسة والأعمال. وقد شجع الزعيم الراحل للزاوية «أسعد جوشان» (١٩٣٨-٢٠٠١) أتباعه على دراسة اللغات الأجنبية واستخدام الكمبيوتر وزيارة الدول الأجنبية. ووفقا لـ «جوشان» فإن «أكثر الناس عملية وعقلانية هم رجال الأعمال والتجار، وإذا كان رجل الأعمال مسلما أيضا، فهو الأكثر انسجاما مع مكانته الدينية في الحياة»[٤]. وقد استخدمت العديد من مؤسسات الزوايا النقشبندية في تركمانستان - الوطن التاريخي للطريقة - والأقطار الإسلامية الأخرى المتحدثة باللغة التركية لتسويق وتصدير المنسوجات والسيراميك.

كانت الزاوية النقشبندية في «إسكندر باشا» أيضا مركزا للمحاولة الثانية لـ «نجم الدين أربكان» لإنشاء حزب إسلامي - حزب الخلاص الوطني - عام ١٩٧٣[٥]. وقد انتمى كل من الأخوين «أوزال» إلى حزب الخلاص الوطني. وخدم «كوركوت» كنائب بالبرلمان وعضو بمجلس الوزراء. وقد تم حظر حزب الخلاص الوطني وجميع الأحزاب الأخرى واتحاد نقابات العمال الثوري بعد الانقلاب العسكري عام ١٩٨٠.

وتروج جمعية «نورجو» الصوفية بزعامة «فتح الله جولين» أيضا لثقافة عصرية موالية لرجال الأعمال. ويعتقد «جولين» أن الإسلام الأناضولي أكثر انفتاحا وتسامحا من الإسلام العربي وأن الدين يجب أن يبقى شأنا خاصا لا يجب فرضه على الآخرين. وبعد أن أصبح «تورجوت أوزال» رئيسا للوزراء قام بتشجيع حركة «جولين».

وقد تلقت الحركات الإسلامية ومؤسسات الأعمال ذات الصبغة الإسلامية في تركيا التمويل والدعم من العمال الأتراك المهاجرين في أوروبا. وقد تأسست جمعية النظرة الوطنية الإسلامية في ألمانيا عام ١٩٧١ وارتبطت منذ ذلك الوقت بكافة الأحزاب السياسية الإسلامية التركية من الناحيتين الفكرية والمالية. وقامت مؤسسة «كومباسان» القابضة الضخمة ومؤسسة «إيمباتش» (مجمع التسوق الضخم الوحيد في تركمانستان) الأصغر حجما، وكلتاهما مؤسسة ذات صبغة إسلامية تتخذان من الأناضول مركزا لهما ولهما صلات بالأحزاب الإسلامية، قامتا بجمع ملايين الدولارات من الاستثمارات الصغيرة من العمال المهاجرين في أوروبا في شكل ودائع تتحاشى إثم الفائدة ولكن بلا ضمان تعاقدي بالحصول على عائد[٦].

مؤسسة البركة التركية للتمويل هى شراكة بين الشيخ «صالح كامل» وعائلتى «أوزال» و«توباش»



وقد راقت سياسات «أوزال» الاقتصادية لكل من طبقات الأعمال ذات الصبغة الإسلامية أو الكمالية (نسبة إلى كمال أتاتورك) العلمانية[٧]. ولكن النخبة الكمالية اتجهت للارتباط بالمشروعات الاقتصادية الأقدم والأكبر والمملوكة للدولة والمتمركزة في إستانبول تحت لواء الجمعية التركية لرجال الصناعة والتجارة التي كانت تهيمن على الاقتصاد في السابق[٨]. كان مبدأ «إجماع واشنطون» معاديا لتلك المؤسسات، ولذلك فقد ساهم في إضعاف تأثير النخبة العلمانية في الحياة التركية. وبالتالي، فقد وجد أصحاب المشروعات ذوو الصبغة الإسلامية فرصا سانحة في النظام الاقتصادي الجديد لم تكن متوافرة لهم في السابق.

قام «تورجوت أوزال» في ديسمبر عام ١٩٨٣ بتعديل قوانين المؤسسات المالية الخاصة للسماح بإنشاء بنكين إسلاميين هما «بنك فيصل» و«مؤسسات البركة التركية للتمويل الخاص» وإعفائهما من تطبيق قوانين الإفلاس التركية. وقد قامت تلك المؤسسات بتمويل واردات النفط التركية، وهو مجال يتردد أن «كوركوت أوزال» كانت له مصالح فيه والذي قدرت قيمته بحوالي مائتي مليون دولار سنويا. وفي الوقت نفسه، أصبح «كوركوت أوزال» أيضا مستشارا للفرع التركي لبنك التنمية الإسلامي.

ومؤسسة البركة التركية للتمويل الخاص هي شراكة بين الشيخ «صالح كامل» المؤسس السعودي لمجموعة «بركة» وعائلتي «أوزال» و«توباش». كما تمتلك عائلة «توباش» أيضا مؤسسة كبرى للمنسوجات. أما الشيخ «صالح كامل» فهو بالطبع أحد كبار المستثمرين في مصر كذلك.

يثير النمو السريع للاستثمارات السعودية في منتصف الثمانينيات، وكذلك الاندماج المشترك عام ١٩٨٨ بين بيت التمويل الكويتي أقدم البنوك الإسلامية ومن أكثرها ثراء، وبنك الأوقاف، يشير إلى أن رأس المال الخليجي قد وضع أولوية خاصة للاستثمار في تركيا. وقد مهدت المصالح المالية لعائلة «أوزال» وحاشيتها الطريق لتلك المشروعات. كما توافقت تلك الاستثمارات أيضا مع الإستراتيجية السياسية لـ «تورجوت أوزال». فنظرا لخلفيته السابقة مع حزب الخلاص الوطني الإسلامي، فقد علم أنه بعد قمع الجيش لليسار عام ١٩٨٠ لم يعد أمامه تحديات سياسية محتملة سوى من الإسلاميين. ومن خلال الترحيب بالبنوك الإسلامية في تركيا وتشجيع الأعضاء السابقين بحزب الخلاص الوطني الإسلامي أو حزب العمل الوطني اليميني المتشدد على تكوين شراكات مع السعوديين، فقد عزل تلك العناصر عن منافسيه ووطد من مكانة حزب الأمة الخاص به[٩].

وعندما سمح بإقامة الأحزاب مرة أخرى عام ١٩٨٣، أيد كثير من الإسلاميين من طبقة رجال الأعمال حزبي الأمة والطريق القويم ذوي الطابع الاجتماعي المحافظ والموالين لطبقة الأعمال. لم يكن أي من الحزبين إسلاميا في العلن، رغم أنهما اعتنقا الهوية الثقافية الوطنية الدينية الجديدة التي روج لها الجيش «التوليفة الإسلامية-التركية». وتضم تلك المجموعة ملاك ومديري العديد من المؤسسات التجارية المنشأة حديثا نسبيا في مجالات البنوك (البركة تركيا وآسيا للتمويل) والإعلام (تليفزيون AK، وإذاعة الأخلاق) والمنسوجات (هوزور جيم، وأيديننلي، وتوباش، وتكبير، ونسيتور)، والسيراميك، والذين يعيشون في ضاحية «أرزورومولار» الراقية في إستانبول ولهم ارتباطات إما بالطريقة النقشبندية أو جمعية «نورجو». ويرأس «كوركوت أوزال» جمعية مسجد «أرزورومولار».

يشكل رجال أعمال آخرون، هم في الأساس ملاك مؤسسات صغيرة ومتوسطة تتركز في المدن الواقعة بوسط الأناضول، يشكلون قاعدة اجتماعية هامة للإسلام السياسي. وقد شعرت تلك المؤسسات بالتهميش والإهمال من قبل الدولة الكمالية، واتبع كثير منهم «نجم الدين أربكان» وانضموا له عندما قاد الأعضاء السابقين في حزب الخلاص الوطني إلى حزب الرفاه الذي تكون عام ١٩٨٣. وفي عام ١٩٩٠ أقام «نمور الأناضول» - كما اشتهروا - الجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة والتي عرفت أولا باسم الجمعية الإسلامية لرجال الصناعة والتجارة. وتضم

الجمعية الآن أكثر من ثمانية آلاف عضو وتصدر نصف الصادرات التركية تقريبا. وهي تروج لقيم الأعمال الإسلامية «من خلال روح الرأسمالية»، وتزعم أن السوق هو إحدى ساحات الجهاد»[10]. وتؤيد الجمعية انضمام تركيا لعضوية الاتحاد الأوروبي وكذلك توطيد العلاقات الاقتصادية مع العالم الإسلامي.

لقد أطاح الجيش بحزب الرفاه من السلطة عام ١٩٩٧ وتم حل الحزب بعد ذلك بعام. وفي عام ٢٠٠١ انضم العديد من أعضاء الجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة إلى الجناح الإصلاحي لحزب الرفاه السابق لتأسيس حزب العدالة والتنمية الذي يحكم البلاد الآن.

تتشابه مع ذلك النموذج طبقة البرجوازية ذات الصبغة الإسلامية التي ظهرت في مصر نتيجة للانفتاح الاقتصادي ولكن بصورة أكثر تنوعا وبجذور تاريخية أكثر عمقا من نظيرتها التركية. يتكون أحد عناصر تلك الطبقة من البرجوازية المرتبطين بالإخوان المسلمين. وطبقا لما ذكرته «سامية سعيد إمام»، فبحلول عام ١٩٨٠ كانت ثمان من العائلات الثماني عشرة المهيمنة على القطاع الخاص متصلين بالإخوان المسلمين. وقد شكلت المشروعات الاقتصادية المرتبطة بالإخوان المسلمين ما يقدر بحوالي ٤٠٪ من القطاع الخاص[11]. واستنتج «روبرت سبرنجبورج Robert Springborg» أنه بحلول العام ١٩٨٩ كان المسيطرون على الإخوان المسلمين من الطبقة البرجوازية للانفتاح الإسلامي الذين «اشتروا المؤسسات بالثروات التي حصلوا عليها من خلال التعاون مع نظام السادات»[12].

ضمت «الطبقة الوسطى للانفتاح الإسلامي» المصرية مؤسسات مالية ضخمة مثل بنك فيصل الإسلامي الذي تم تأسيسه عام ١٩٧٧ بواسطة الأمير محمد بن فيصل، من العائلة المالكة السعودية. ومن بين مؤسسي الفرع المصري كان «عمر مرعي»، وهو أحد أفراد إحدى العائلات العريقة من ملاك الأراضي. وكان لأخيه غير الشقيق «سيد مرعي» صلة نسب بأنور السادات. وقد تعرض عمر للسجن كعضو بالإخوان المسلمين على يد عبد الناصر، وقام بتجنيد آخرين من نفس الخلفية للعمل بالبنك[13]. وبحلول عام ١٩٨٥، كان بنك فيصل الإسلامي ومنافسه الأصغر البنك الدولي الإسلامي للاستثمار والتنمية قد استحوذا على ٨,١٦٪ من الودائع في النظام المصرفي التجاري المصري[14]. ولكن البنوك الإسلامية المصرية لم تقدم في التسعينيات عائدا منافسا، وانخفضت حصتها في السوق إلى ٥٪ تقريبا.

ومن العناصر الأخرى لطبقة البرجوازية المصرية ذات الصبغة الإسلامية شركات توظيف الأموال التي انتشرت في الثمانينيات. كان المصدر الرئيسي لرأسمال تلك الشركات هو ثروات النفط الخليجية. بدأت شركة الريان عملها بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٧٨ عن طريق جمع الودائع وتحويل الأموال من العمال المهاجرين. وفي عام ١٩٨٢ عاد «فتحي» أكبر الإخوة الثلاثة من عائلة الريان إلى مصر وقام بتأسيس شركة الريان التي سرعان ما أصبحت أكبر شركات توظيف الأموال الإسلامية المصرية. وقبل الهجمة الكبرى لسحب الودائع من شركات توظيف الأموال في نوفمبر عام ١٩٨٦، كان رأسمال شركة الريان يقدر بخمسة مليارات جنيه مصري[15].

وقد تعاونت شركات توظيف الأموال الإسلامية مع طبقة «الأثرياء الجدد لعصر الانفتاح». لم يتخرج «فتحي الريان» من الجامعة. وقد هاجر «محمد أشرف السعد» - وهو أحد «الستة الكبار» الآخرين - إلى فرنسا، وعمل هناك كعامل يدوي. وعندما عاد إلى مصر عام ١٩٨٦ كان قد أصبح أكثر ورعا[16].

كان «عبد اللطيف الشريف»، مؤسس ثاني أكبر شركة توظيف أموال إسلامية، عضوا سابقا بالإخوان المسلمين. وكان «أحمد توفيق الريان» - الأخ الأصغر لـ «فتحي» ومدير الشركة أيضا - عضوا بجماعة إسلامية عندما كان طالبا بالجامعة. ولكن لم يكن ملاك ومديرو شركات توظيف الأموال عامة أعضاء في الإخوان المسلمين أو أي منظمات إسلامية أخرى رغم أن العلاقات الظاهرة توحي بغير ذلك.

أكدت تصريحات شركات توظيف الأموال على المساواة والالتزام المشترك والمسئولية المشتركة. ولكن لم يكن واضحا مدى ورع بعض مديري تلك المؤسسات في الواقع. وقد تفاخرت شركة الريان بأن لديها كثيرا من المودعين المسيحيين واثنين من اليهود[17]. وصرح «كليمنت هنري مور Clement Henry Moore» بأن «أصحاب المشروعات ارتدوا عباءة الإسلام بنفس الطريقة التي يتعامل بها مرشحو الرئاسة الأمريكية مع العلم الأمريكي»[18].

من العناصر الأخرى لطبقة البرجوازية ذات الصبغة الإسلامية رجال أعمال مستقلون مثل «رجب السويركي» مؤسس شركة التوحيد والنور. ومن المستقلين الإسلاميين الآخرين «حسين صبور» صاحب مكتب صبور للاستشارات الهندسية. وكان رئيسا لبنك المهندس وغرفة التجارة الأمريكية المصرية ونادي الصيد. وأثناء فترة رئاسته لنادي الصيد، أصبح النادي نقطة الانطلاق للدعاة الجدد أمثال عمر عبد الكافي وعمرو خالد.

في النهاية، فإن أصحاب المؤسسات الأصغر مثل بوتيكات Muhagabat Homeа Flash ، al L'Amour التي تبيع الأزياء العصرية للمحجبات هم أيضا جزء من طبقة البرجوازية ذات الصبغة الإسلامية.

الفلسفة السياسية الإسلامية

كان أهم نشطاء معظم الحركات الإسلامية الحديثة - بما في ذلك جماعة الإخوان المسلمين منذ نشأتها عام ١٩٢٨ وحتى الآن - هم أفراد الطبقة المتوسطة المتعلمة الحديثة. ولكن خلال الظروف التي تعرضنا لها آنفا، امتدت القاعدة الاجتماعية للحركات الإسلامية كثيرا خارج ذلك النطاق، حيث إنها راقت - بطرق متناقضة - للخاسرين والفائزين في الاقتصاد العالمي الجديد. وقد أدى تناقص ميزانيات الدولة وخفض الإنفاق الاجتماعي بإيعاز من النظام الليبرالي الجديد، إلى زيادة اقتصار أنشطة الدولة على الطبقة الوسطى العليا بالمدن وعلى مناطق النخبة. وقد تركز توزيع الدخل، وأصبحت الدولة عاجزة عن توفير نفس مستوى الخدمات السابق أو ضمان إمدادات مناسبة للسلع لكافة المناطق والسكان، مقوضة بذلك شروط الميثاق الاجتماعي الذي وضع في عصر الفلسفة السياسية الشمولية وحركة «التصنيع بدلا من الاستيراد» بقيادة الدولة تحت لواء القومية العربية والاشتراكية العربية أو العلمانية الكمالية في تركيا.

كان «عبد اللطيف الشريف»، مؤسس ثانى أكبر مؤسسة استثمار إسلامية، عضوا سابقا بالإخوان المسلمين



وبتقويض قدرات الدولة، وفرت برامج التوازن الاقتصادي وتصحيح الهيكلة التي قدمتها الحكومة الأمريكية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي فرصة ذهبية للحركات الإسلامية، حيث مكنتها من التحدث باسم المقاومة ضد الهيمنة الأجنبية واستغلال الشعب. وقد أرست تلك الحركات قاعدة شعبية من خلال تقديم الخدمات الاجتماعية التي لم تعد الدولة قادرة على توفيرها. وقد ربطت العناصر المدافعة عن الشعب في الخطاب الإسلامي المتشدد بين فساد واستبداد نخب الدولة وبين عجزها عن توفير الخدمات الاجتماعية وفرص العمل.

في تركيا، كما تشير «جيني وايت Jenny White»، قدم حزب الرفاه لغة مناسبة ثقافيا وشبكات اجتماعية وحكم رشيد واهتمام بالمشاكل اليومية للشعب بهدف ضم عمال المدينة الفقراء في أحياء مثل «العمرانية» و«سلطان بيلي» إلى حركة اجتماعية إسلامية[19]. وقد أخبر سكان «سلطان بيلي» «هاكان يافوز Hakan Yavuz» أنهم يعتقدون أن «الدولة الإسلامية سوف توزع الثروة بينما الدولة الكمالية توزع الفقر». فبالنسبة لهم فإن الدولة الإسلامية تعني دولة عادلة تلبي احتياجاتهم الأساسية للرعاية الصحية والتعليم وتأمين البطالة وتتوفر لأطفالهم فيها فرص متكافئة للتقدم»[20].

ويعد «خالد إيش» الاتحاد النقابي العمالي الإسلامي المؤسس عام ١٩٧٦ تعبيرا آخر عن الفلسفة السياسية الإسلامية التركية. فقد أصبح «خالد إيش» عنصرا بارزا في الحركة العمالية التركية في الثمانينيات، من جهة لأن العديد من الأعضاء السابقين بتحالف اتحاد نقابات العمال الثوري انضموا إلى «خالد إيش»

عندما حظر تحالف الاتحاد العمالي المتشدد في الفترة ما بين ١٩٨٠ إلى ١٩٩٢. ويمثل «حاك إيش» اليوم ما يقارب ثلاثمائة ألف عامل في ثمانية اتحادات نقابية متحدة، مقارنة بـ ٤٥٠ ألف عضو في تحالف الاتحادات العمالية الثورية، وكل من الاتحادين أصغر من اتحاد «تركيا ايش» الكمالي.

ومثل الجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة، ارتبط «حاك-ايش» بكل من حزب الرفاه وحزب العدالة والتنمية. كان «نجاتي شليك» مؤسس «حاك-ايش» عضوا بحزب الرفاه وبقي رئيسا للتحالف إلى أن أصبح نائبا برلمانيا لحزب الرفاه ثم وزيرا للعمل عام ١٩٩٦-١٩٩٧. وبينما يؤكد «حاك ايش» على هويته الإسلامية، فإنه لا يعتقد أن ذلك يمثل بديلا عن التنظيم النقابي العمالي. وقد تبنى «حاك-ايش» بعضا من المواقف التاريخية لليسار، وهو يؤيد الاقتصاد القائم على إعادة توزيع الثروة والملكية والإدارة العمالية للمشروعات، ويعارض خصخصة القطاع العام بالجملة. وقد اتهم «سالم أوزلو» رئيس «حاك-ايش» منذ عام ١٩٩٥، بعض المؤسسات التابعة للجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة بالوقوف في وجه التنظيم النقابي وممارسة أساليب «لا تتفق إطلاقا مع الإسلام عندما يكون هناك نزاع صناعي يهدد مصالحهم الاقتصادية الخاصة»[٢١]. ويقول «سالم أوزلو» أن سجل الجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة فيما يتعلق باحترام حقوق العمال مقارنة بالمؤسسات الأوروبية أو الأمريكية ليس جيدا، وهذا أحد أسباب دعم «حاك-ايش» الكامل لانضمام تركيا للاتحاد الأوروبي.

جاءت العديد من الكوادر الإسلامية المصرية من نفس الطبقات الاجتماعية التي أفرزت الشيوعيين والمتشددين الآخرين قبل منتصف السبعينيات، وقد اتخذت الفلسفة السياسية الإسلامية مواقف مشابهة لليسار التاريخي. وقد تبنى خطاب حزب العمل في الثمانينيات والتسعينيات عناصر من المنتقدين الماركسيين التقليديين للرأسمالية. وكان الراحل «عادل حسين» الأمين العام للحزب ورئيس تحرير جريدة الشعب شيوعيا سابقا.

تعد القاعدة الانتخابية لمرشحي التيار الإسلامي في انتخابات النقابات العمالية نموذجا للفلسفة السياسية الإسلامية. فقد ساند التيار الإسلامي حق الإضراب وانتقد البرنامج الاقتصادي الليبرالي الجديد وعارض تدخل الحكومة في انتخابات النقابات العمالية وتصفية القطاع العام[٢٢]. وقد هاجم التيار الإسلامي زعماء الاتحاد العام لنقابات عمال مصر وطالب باستقلال النقابات العمالية عن الحكومة. كما عارض التيار الإسلامي إلغاء دعم السلع الاستهلاكية وطالب بربط الأجور بالأسعار وعارض المساس بالتعليم المجاني والرعاية الصحية المجانية وكافة الإنجازات الأخرى التي حققتها ثورة ٢٣ يوليو للعمال»[٢٣]. وتتماشى تلك المطالب مع خط اليسار. ويبدو أن التيار الإسلامي قد وافق على أن انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أرسى إطار السياسات الوطنية، وهي وجهة نظر كان الإخوان المسلمون والقوى الإسلامية الأخرى قد رفضاها في السابق.

تجتذب الفلسفة السياسية الإسلامية أيضا من تسميهم «كاري روزفسكي ويكهام Carrie Rosefsky Wickham» «النخبة المفكرة الدنيا» (lumpenbourgeoisie: نخبة مفكرة لا تستطيع ممارسة دورها الطبيعي بسبب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية). لقد تضاعف عدد خريجي الجامعات المصرية ثلاث مرات تقريبا بين عامي ١٩٧٥ و١٩٨٥. ولكن نظرا للخفض في ميزانية الدولة ودعم السلع، لم تعد وظائف القطاع العام تقدم أجورا كافية للزواج وتكوين أسرة.

ضمت «الطبقة الوسطى للانفتاح الإسلامي» المصرية مؤسسات مالية ضخمة



كما قلل انخفاض أسعار النفط منذ عام ١٩٨٢ من فرص الشباب للهجرة إلى الدول الغنية بالنفط. كان معدل البطالة الحقيقي في منتصف الثمانينيات أعلى كثيرا من المعدل الرسمي المقدر بـ ١٢٪، وكان - كما هو الحال الآن - مركزا بين الباحثين عن العمل للمرة الأولى من الحاصلين على درجات متوسطة وجامعية. وقد شعر هؤلاء بأسى عميق لأنه رغم اجتهادهم وإنجازاتهم الأكاديمية لم تتوفر لهم فرص النجاح المادي. وقد أصبحوا قاعدة اجتماعية هامة للحركة الإسلامية بداية من منتصف الثمانينيات[٢٤].

مراجعة الحركات الإسلامية

كانت الحركات الإسلامية التي ظهرت في منتصف السبعينيات محصلة لأربعة تطورات متشابكة:

١- هزيمة القومية العربية العلمانية في الحرب العربية-الإسرائيلية عام ١٩٦٧. والتحديات التي واجهت هيمنة العلمانية الكمالية في تركيا في أعقاب الانقلاب العسكري عام ١٩٨٠.

٢- زوال مبدأ «فورد- كينيس» لتراكم رأس المال وظهور النظام الاقتصادي العالمي الليبرالي الجديد.

٣- التراجع عن القومية الاقتصادية، ممثلا في سياسة الانفتاح الاقتصادي في مصر عام ١٩٧٤ والإجراءات الاقتصادية في تركيا في ٢٤ يناير عام ١٩٨٠.

٤- الازدهار والانهيار النفطيان بين عامي ١٩٧٤ و١٩٨٦.

إن التحليل الوارد هنا للحركات الإسلامية ينظر إليها كعائلة من الحركات الاجتماعية المتنوعة، بل والمتناقضة داخليا. ولا يركز التحليل في الأساس على ما يؤمن به أو يقوله أو يدعيه الإسلاميون في القرآن والسنة كأساس لأنشطتهم. إن فهم الحركات الإسلامية من خلال الرجوع للنصوص الإسلامية أو التصريحات المبرمجة يؤدي إلى المبالغة في تقدير أهمية التواصل التاريخي للأفكار والممارسات الإسلامية وإلى تأويل الحركات الإسلامية المعاصرة كتعبير عن جوهر ديني منفصل عن الزمان والمكان والسياق الاجتماعي. ومن خلال التركيز على الأنشطة الاجتماعية للحركات الإسلامية يمكننا رؤية قدرتها على تأكيد أو تقويض النظام الاجتماعي والسياسي، وقد فعلت الحركات الإسلامية الشيء ونقيضه في نفس الوقت في عصر إعادة الهيكلة الاقتصادية الليبرالية الجديدة. ومع ذلك، فإن المنعطف التاريخي الذي مكن الحركات الإسلامية من لعب ذلك الدور المزدوج ربما يكون قد أوشك على الانتهاء.

بقي حزب العدالة والتنمية في السلطة في تركيا منذ عام ٢٠٠٢. وقد ساند عموما طبقة الأعمال وطموحاتها. وأعلن «رجب طيب إردوغان» زعيم الحزب ورئيس الوزراء دعمه للجمعية المستقلة لرجال الصناعة والتجارة من خلال ظهوره كضيف شرف في مؤتمرها السنوي عام ٢٠٠٦.

لم يتسبب تقارب الحزب مع طبقة الأعمال في حدوث تذمر بين صفوف قاعدته الشعبية نظرا لأن السجل الاقتصادي الشامل للحزب كان ممتازا. فخلال السنوات الخمس الأولى من حكم حزب العدالة والتنمية، كان معدل النمو الاقتصادي يدور حول ٧٪ سنويا، كما تضاعف متوسط دخل الفرد، ووصل الاستثمار الأجنبي المباشر إلى مستوى مرتفع، وارتفعت مؤشرات أسواق الأسهم وانخفض التضخم بصورة كبيرة. ولكن النسبة الرسمية للبطالة تقدر بـ ٩.٧٪، وهناك ٤٪ آخرون لا يعملون بانتظام. وقد انخفضت نسبة الفقر في الريف ولكنها ما زالت مرتفعة جدا عند ٣٥٪ مقارنة بـ ٢٢٪ بين عائلات المدن. وقد عانى القطاع الزراعي من تخفيضات الدعم التي فرضها صندوق النقد الدولي. وازداد تفاوت الدخل حتى أنه أصبح أكثر قسوة مما هو في مصر.

أصبح «ترك-ايش» الاتحاد النقابي العمالي الأكبر أكثر عداء لحزب العدالة والتنمية الذي يواصل برنامج الخصخصة. وقد نظم الاتحاد خمس تظاهرات ضد قانون العمل لعام ٢٠٠٣ الذي أيدته طبقة الأعمال. كما انتقد تحالف اتحاد نقابات العمال الثوري أيضا الحكومة بسبب سياساتها للخصخصة وقانون العمل. ولم يدافع حزب العدالة والتنمية عن حق العمال الأتراك في تشكيل النقابات، كما استخدم سلطته لتأجيل الإضرابات وتقييد حق الإضراب.

أما الموقف في مصر فيعد أكثر غموضا من تركيا، حيث لم يسمح للإخوان المسلمين بتشكيل حزب سياسي، ناهيك عن الوصول لسدة الحكم. ومع ذلك، فقد مارس الإخوان لعبة القط والفأر مع نظام مبارك. ومن المفيد للنظام أن يظهر الإخوان كبديل وحيد لـ «علمانيته»، رغم عدم السماح لهم بالوصول لدرجة من القوة تكفي لتحدي النظام. وفي المقابل، فإن الإخوان المسلمون لا يسعون لتهديد النظام، حيث

قد يؤدي ذلك إلى المخاطرة بشبكة الخدمات الاجتماعية والمؤسسات الأخرى التي تشكل القاعدة الاجتماعية لقوتهم السياسية.

وتفسر تلك اللعبة السبب وراء إحجام الإخوان المسلمين عن المشاركة بفعالية وقوة - كما يليق بهم - خلال السنوات الأربع الأخيرة في الحركات المطالبة بالديمقراطية مثل حركة «كفاية» وغيرها. وباستثناء القليل من تصريحات التأييد على لسان عبد العزيز الحسيني عضو الإخوان المسلمين بالبرلمان من كفر الدوار وزميله صابر أبو الفتوح من الإسكندرية، لم يلعب الإخوان دورا بارزا في الحركات الاحتجاجية الحالية للطبقة العاملة. وقد نبهت محاكمة خيرت الشاطر وزملائه وإدانتهم مؤخرا إلى أهمية مؤيدي وزعماء الإخوان من طبقة الأعمال.

وتشير كل تلك الدلائل إلى أن الحركات الإسلامية في مصر وكذلك في تركيا والمغرب والأردن واليمن، والتي كانت تلقى التأييد من قبل الفائزين والخاسرين في العولمة الليبرالية الجديدة بداية من السبعينيات وحتى التسعينيات، قد اقتربت الآن أكثر من المعسكر الفائز. ولم يمر حتى الآن وقت كاف لمعرفة كيف يمكن حل التناقض الواضح بين خطاب الفلسفة السياسية الإسلامية ومصالح طبقة الأعمال ذات الصبغة الإسلامية. ولقد احتفظ حزب العدالة والتنمية التركي بدعم قطاع من الطبقات الشعبية من خلال ممارسة الحكم الرشيد والإدارة الجيدة للاقتصاد وتعبئة الاستياء ضد النخبة العالمية. وليس من الواضح على الإطلاق إن كانت ستسنح للإخوان المسلمين أية فرصة لتكرار ذلك في مصر أو تحقيق النجاح في تلك الحالة. في الوقت نفسه، فإن النقابات والحركات العمالية في كل من مصر وتركيا - والتي لا يثق فيها الإسلاميون دائما - كانت تؤكد هويتها كممثلة للخاسرين في العولمة الليبرالية الجديدة. ▣

الهوامش:

١- علي مزروعي، برميل السلاح وبرميل النفط في معادلة الشمال والجنوب (نيويورك: نماذج النظام العالمي، ١٩٧٨).

Ali A. Mazrui. The Barrel of the Gun and the Barrel of Oil in North South Equation (New York: World Order Models, 1978).

٢- دانيال بايبس، في سبيل الله: الإسلام والنفوذ السياسي (نيويورك: الكتب الرئيسية، ١٩٨٣)؛ فؤاد زكريا، الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة (القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٦).

Daniel Pipes. In the Path of God: Islam and Political Power (New York: Basic Books, 1983); Fu'ad Zakariyya. Al-Haqiqa wa'l-wahm fi al-haraka al-islamiyya al-mu'asira (Cairo: Dar al-Fikr, 1986).

٣- بيرول علي ايسيلادا، الأصولية الإسلامية في تركيا وصلاتها بالسعودية، تقارير مراسلين ميدانيين، افريقيا/الشرق الأوسط، ١٩٨٨/١٩٨٩، رقم ١٨ (إنديانابوليس: الخدمات الميدانية الجامعية العالمية، ١٩٨٨/١٩٨٩)، ٥، ٩.

Birol Ali Yesslada. Islamic Fundamentalism in Turkey and the Saudi Connection, Field Staff Reports. Africa/Middle East, 1988/89 No. 18 (Indianapolis: University Field Services International, 1988/89). 5, 9.

٤- م. هاكان يافوز، «قالب الحركات الإسلامية التركية الحديثة، الطريقة الصوفية النقشبندية، «النقشبنديين في غرب ووسط آسيا: التحول والاستمرارية، الناشر: اليزابيث أوزدالجا (إستانبول: المعهد السويدي للأبحاث في إستانبول، ١٩٩٩)، ١٤٤.

Hakan Yavuz. "The Matrix of M Modern Turkish Islamic Movements: in ,The Naqshbandi Sufi Order. Naqshbandis in Western and Central Asia: Change and Continuity, ed. Elisabeth ?zdalga (Istanbul: Swedish ١٤٤ ,(١٩٩٩ Research Institute in Istanbul,

٥- م. هاكان يافوز، «الإسلام السياسي وحزب الرفاه في تركيا»، السياسات المقارنة ٣٠ (رقم ١، أكتوبر ١٩٩٧)؛ ٦٦؛ يافوز، «قالب الحركات الإسلامية التركية الحديثة، ١٣٦.

Hakan Yavuz, "Political Islam and the M .Welfare (Refah) Party in Turkey. Comparative Politics 30 (no. 1, October 1997):66; Yavuz, "The Matrix of Modern Turkish Islamic Movements, ١٣٦.

٦- عيسى بوجرا، «الطبقة والثقافة والدولة: تحليل لتمثيل المصالح بواسطة جمعيتي أعمال تركيتين»، الحراك الإسلامي في تركيا، الجريدة الدولية لدراسات الشرق الأوسط ٣٠ (رقم ٤، نوفمبر ١٩٩٨)؛ ١٢٤.

Ay?a Bu?ra. "Class, Culture, and State: An Analysis of Interest Representation by Two Turkish Business Associations. Islamist Mobilization in Turkey.. International Journal of Middle East Studies 30 (no. 4, November 1998):124.

٧- تعرف الكمالية عادة بأنها «علمانية». وينطوي ذلك على سوء فهم، فالمصطلح مشتق من المفهوم اليعقوبي الفرنسي لكلمة «laicite»، كما يفهم من الكلمة التركية المقابلة «laiklik»، والتي تهدف لتأكيد سيطرة الدولة على الدين واستبعاد المصطلحات غير المقبولة من التداول الشعبي.

Kemalism is often characterized as This is a misunderstanding."secular. It is derived from the Jacobin French concept of laicité, as suggested by the la?kl?k. Turkish word for this outlook La?kl?k aims to assert state control over religion and to exclude unapproved expressions from the public sphere.

٨- بوجرا، الطبقة والثقافة والدولة، ٥٢٤، ٥٢٩.

524-.Bu?ra, "Class, Culture, and State, 29.

٩- كليمينت هنري مور، «البنوك الإسلامية والسياسات المقارنة في العالم العربي وتركيا»، جريدة الشرق الأوسط ٤٤ (رقم ٢، ربيع ١٩٩٠).

Clement Henry Moore, "Islamic Banks and Competitive Politics in the Arab Middle East Journal.World and Turkey, 44 (no. 2, Spring 1990).

١٠- م. هاكان ياقوز، «مجالات الفرص والهوية ومعنى الإسلام في تركيا»، الحراك الإسلامي: تناول نظرية حركة اجتماعية، الناشر: كوينتن ويكتوروينكز (بلومنجتون: مطبعة جامعة انديانا، ٢٠٠٤)، ٢٧٨.

Hakan Yavuz, "Opportunity Spaces, M Identity, and Islamic Meaning in in Islamic Activism: A Social .Turkey. Movement Theory Approach, ed. Quintan Wiktorowicz (Bloomington ٢٧٨ ,(٢٠٠٤ Indiana University Press,

١١- سامية سعيد إمام، من يملك مصر؟ دراسة تحليلية لأصول نخبة الانفتاح الاجتماعية، ١٩٧٤-١٩٨٠ (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)، ٢٠٥، ٢١١، ٢٨٠-٣٠٩.

Samia Sa'id Imam, Man Yamluk Misr? Dirasa Tahliliyya Li-Usul Nakhbat al-InFitah al-Ijtima'Iyya. 1974-1980 (Cairo: Dar al-Mustaqbal al-'Arabi, 1987). 205, 211, 280-309.

أصحاب المشروعات ارتدوا عباءة الإسلام بنفس الطريقة التي يتعامل بها مرشحو الرئاسة الأمريكية مع العلم الأمريكي



١٢- روبرت سبرنجبورج، مصر مبارك: تفتيت النظام السياسي (بولدر: مطبعة ويستفيو، ١٩٨٩)؛ ٢٢٤، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، مقتبس من صفحة ٢٣٦.

Robert Springborg. Mubarak's Egypt. Fragmentation of the Political Order (Boulder: Westview Press. 1989). 224, 232, 234, 236. Quote from 236.

١٣- المصدر نفسه، ٦٥.

Ibid., 65.

١٤- مور، «البنوك الإسلامية والسياسات المقارنة في العالم العربي وتركيا»، ٢٣٦.

Moore. "Islamic Banks and Competitive .Politics in the Arab World and Turkey, 236.

١٥- عبد القادر شهيب، الاختراق: قصة شركات توظيف الأموال في مصر (القاهرة: سينا للنشر، ١٩٨٩)؛ ٢٩، ٦٠، ٨٠، ٨٤، ٩٨؛ سبرنجبورج، مصر مبارك، ٤٧، ٤٩.

Abd al-Qadir Shuhayb, al-Ikhtiraq: qissat sharikat tawzif al-amwal fi misr (Cairo: Sina lil-Nashr. 1989), 29, 60, 80, 84, 98; Springborg. Mubarak's Egypt. 47, 49.

١٦- سبرنجبورج، مصر مبارك، ...

Springborg, Mubarak's Egypt, ...

١٧- المصدر نفسه، ٤٨.

Ibid., 48.

١٨- مور، «البنوك الإسلامية والسياسات المقارنة في العالم العربي وتركيا»، ٢٥٠.

Moore. "Islamic Banks and Competitive Politics in the Arab World and Turkey. 250.

١٩- جيني ب. وايت، الحراك الإسلامي في تركيا: دراسة في السياسات الدارجة (سياتل: مطبعة جامعة واشنطون، ٢٠٠٢).

Jenny B. White. Islamist Mobilization in Turkey: A Study in Vernacular Politics (Seattle: University of Washington Press, 2002).

٢٠- ياقوز، «مجالات الفرص والهوية ومعنى الإسلام في تركيا»، ٢٨٢-٨٥.

Yavuz, "Opportunity Spaces, Identity, 282-85.,and Islamic Meaning in Turkey.

٢١- عيسى بوجرا: «العمال ورأس المال والدين: الانسجام والصراع في أنساق الإسلام السياسي في تركيا»، دراسات الشرق الأوسط ٣٨، رقم ٢ (أبريل ٢٠٠٢)؛ ١٩٩.

Ayse Bu?ra. "Labour, Capital, and Religion: Harmony and Conflict Among the Constituency of Political Islam in Turkey," Middle Eastern Studies 38. no. 2 (April 2002): 199.

٢٢- الشعب، ١٠ سبتمبر ١٩٩١.

al-Sha'b, Sept. 10, 1991.

٢٣- مصر الفتاة، ١٢ سبتمبر ١٩٩١.

Misr al-Fatat, Sept. 12, 1991.

٢٤- كاري روزفسكي ويكهام، حراك الإسلام: الدين والحراك والتحول السياسي في مصر (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ٢٠٠٢)؛ ٣٦-٦٢.

Carrie Rosefsky Wickham. Mobilizing Islam: Religion, Activism, and Political Change in Egypt (New York: Columbia University Press, 2002). 36-62.

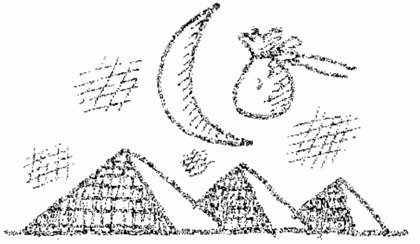
الخبرة المصرية السلبية في التمويل الإسلامي في الثمانينيات لا يجب أن تقف عائقا أمام الفرص الواسعة المتاحة حاليا

مصر

فرص التمويل الإسلامي المتاحة

لــؤى الشـــواربى

أحـمــد شـــهــاب



قد تكون صناعة التمويل الإسلامي في طريقها للازدهار على المستوى العالمي. ويشهد الواقع على ذلك في المراكز المالية الكبرى في العالم. في لندن ونيويورك وزيوريخ وهونج كونج وكوالالمبور ودبي. وتعمل العديد من المراكز الاستشارية المالية العالمية من خلال تلك المحاور وغيرها، وبمشاركة شركات القانون وبيوت المراجعة المالية الكبرى، على بناء الخبرات المالية الإسلامية وركوب موجة التمويل الإسلامي. والتي تعد بأن تقودهم إلى قطاع من صناعة التمويل يحقق نموا بمعدل ثنائي الأرقام مقارنة بالنمو بمعدل أحادي الذي تحققه الهياكل التمويلية التقليدية.

قد انجذب اهتمام أحد كاتبي هذا المقال مجدداً إلى قضية التمويل الإسلامي بفعل الدعوة الكريمة من جانب Red Money of London للمشاركة كمتحدث في منتدى التمويل الإسلامي. بالمشاركة مع Oxford Business Group ضمن متحدثين من ألمانيا وماليزيا وقطر والمملكة المتحدة والإمارات، ودول أخرى. واهتم الكاتب الآخر لهذا المقال بالتمويل الإسلامي باعتباره جزءاً من التقنيات المالية التي جرى تبنيها بهدف تعزيز الأسواق الناشئة مثل السوق المصرية.

واليوم، يمكن اعتبار مصر دولة متأخرة في الولوج إلى هذه الصناعة مقارنة بمواقع استثمارية أخرى، بما في ذلك العديد من المجتمعات الغربية؛ حيث تجد المنتجات التمويلية الإسلامية أرضاً خصبة للنمو والازدهار. الموقع الذي تحتله مصر في هذا المجال التمويلي - كدولة مركزية في الشرق الأوسط - قد تكون له تكلفته على وضعها كمآل للاستثمارات.

يحاول هذا المقال الوقوف على الفرص المتاحة لمصر كي تستضيف وتعزز التمويل الإسلامي داخل إقليمها، كمحفز لجذب استثمارات خارجية مباشرة أكثر خاصة من منطقة الخليج؛ وكذا إدماج أولئك المستثمرين المحليين من ذوي الميل الإسلامي في الأبنية المالية الرسمية المعترف بها من قبل الدولة، على غرار نجاحات الدولة مؤخرا فيما يتعلق بإصدار وإدارة قانون الضرائب الجديد رقم ٩١ لعام ٢٠٠٥.

وفي رأي كاتبي المقال، فإن الخبرة المصرية فيما يتعلق بالتمويل الإسلامي في الثمانينيات، والتي أخذت مناحي سياسية سلبية، لا يجب أن تقف عائقاً أمام تعزيز التطورات العالمية الجديدة على هذا الصعيد. إن التوجهات الدولية الأخيرة بشأن الرقابة على الشركات، والمحاسبة والتي تمت مراجعتها والإضافة إليها بعد مهزلة Enron- يمكن أن تفيد في التوجه نحو تطوير نظام متماسك مالياً دون تداخل في السياسة. (وبطبيعة الحال، يجب التأكيد على استخدام الأدوات المالية كأدوات مالية).

صعود التمويل الإسلامي

على مستوى العالم

في الوقت الحالي، لا تقتصر الرغبة في وجود نظام مالي إسلامي - خاصة على المستوى المؤسسي، متوافق مع الشريعة على المسلمين؛ بل تضافرت عدة عوامل على تطور منتجات التمويل الإسلامي وزيادة الطلب عليها عبر أنحاء العالم، منها الآتي:

أولاً: قد تؤدي طبيعة النشاط المتضمن في هذا النوع من التمويل بجماعات بعينها إلى تفضيله عن غيره؛ ذلك أن التمويل الإسلامي لا يتعامل في منتجات مثل الكحول والتبغ. ثانياً: تواجد جزء من المجتمعات المسلمة المهاجرة في الدول الغربية نشط في العقود الأربعة الأخيرة، وأصبح أكثر اهتماماً بوجود منتجات تمويلية إسلامية كي يستثمروا بها مدخراتهم في الدول التي يعيشون بها، بدلاً من إعادة هذه المدخرات إلى بلدانهم الأصلية في صورة تحويلات. وقد تفسر هذه النقطة إدخال هذه المنتجات التمويلية في النظم القضائية لبلدان ذوات أغلبية سكانية غير مسلمة. ومثال على ذلك الجدل الدائر في أوروبا والولايات المتحدة بشأن تمويل الرهون العقارية للمسلمين.

وفيما يتعلق بالمؤسسات الاستثمارية، قد يكون تنويع المخاطر أحد العوامل الأساسية التي يتم أخذها في الاعتبار عند اللجوء إلى هذا النوع من التمويل؛ حيث إن المنتجات المالية الإسلامية لها سمات مختلفة عن نظيراتها التقليدية. وبنفس الدرجة، فإن الزيادة الهائلة في أسعار النفط وتراكم الثروات المصاحبة من جراء ذلك، خاصة في دول الخليج، جعلا مسألة تشكيل المنتجات المالية بما يتفق مع اهتمامات المستثمرين من تلك المنطقة أمراً مربحاً؛ حيث إن طلبهم على هذا النوع من الاستثمار في تزايد مستمر. والآن أصبح من الشائع أن نجد مؤسسات عديدة كانت تمارس في السابق عمليات التمويل التقليدي، تتبنى مشروعات التمويل الإسلامي سواء في الدول الإسلامية مثل دول الخليج وأندونيسيا وماليزيا، أو في أوروبا والولايات المتحدة وهونج كونج. كما أنه تم استخدام أشكال هجين من مشروعات التمويل التقليدي والإسلامي بنجاح في الصفقات المالية الخاصة بالمشروعات الدولية الكبرى، وذلك بفعل التكافؤ بين مجموعتي التمويل تلك في اتحادات رءوس الأموال في زيوريخ ولندن. ومازال هذا التوجه يتنامى.

ونتيجة ذلك، قد يعزز التمويل الإسلامي وضعية البلدان المتقدمة والنامية فيما يتعلق باستقبال الاستثمارات الأجنبية المباشرة. وبالطريقة ذاتها، يمكن جذب نسبة جيدة من المستثمرين المحليين إلى قنوات التمويل الرسمية في البلدان ذات الغالبية الإسلامية، والتي ليس بها خيارات مالية إسلامية عديدة، خاصة السكان الذين يرتابون في الهياكل التمويلية التقليدية.

التمويل الإسلامي في مصر:

الأســـس والخبــــرات

ترحب الثقافة القانونية المصرية الحالية بالتشريعات الإسلامية رغم أن مصر دولة يقوم نظامها القانوني على القانون المدني، والذي يرتكز منهجياً على تقنين نابليون التاريخي؛ ذلك أنه تم إدخال العديد من التعديلات على نظام القانون المدني المصري، كي تصبح متوافقة مع مبادئ الشريعة الإسلامية. وخلافاً للاعتقاد الشائع، فإن الفقيه السنهوري، المصمم الأساسي للقانون المدني المصري، وهو نفسه خبير في الشريعة، كافح من أجل أسلمة القانون المدني، كي يعكس حداثة التشريع الأوروبي دون أن يتعدى على المبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية. وتعد قوانين المواريث مثالاً في هذا الصدد، بالإضافة إلى حبكات قانونية كثيرة في دهاليز القانون المدني.

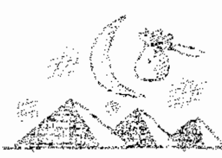
بالنسبة للفائدة مثلاً في القانون المصري، فإنها ليست إلزامية، ويمكن للأفراد أن يتفقوا على عدم أخذ فوائد من بعضهم البعض في التعاملات التي يقومون بها، بما في ذلك التخلي عن الفوائد على الودائع في البنوك. وعلى العكس من ذلك، فإن القانون يقيد بشكل أساسي حدود معدلات أسعار الفائدة في المعاملات المدنية والتجارية، كما أنه يحظر الإفراط في الفوائد المركبة. وقد

فرص التمويل الإسلامي المتاحة

يجادل المرء بأن هذا السلوك التشريعي يلبي احتياجات المسلمين الملتزمين بدينهم بشكل صارم. غير أنه بالرغم من أن ذلك صحيح في أحد جوانبه، فإنه في الحقيقة يحد من اختياراتهم ويفقرهم من حيث يتركهم دون عوائد على مدخراتهم. ونتيجة ذلك، يقع الكثيرون منهم فريسة لمشروعات مريبة خارج الأبنية التمويلية التي تجيزها الدولة وتشرف عليها أو تضمنها. وحدث ذلك لأعداد كبيرة في الثمانينيات فيما سمي لاحقاً بأزمة شركات توظيف الأموال، التي تبنت لغة إسلامية. وعلى الصعيد العملي، فإن تطور أشكال التمويل التقليدية سيطر على المشهد الرسمي في مصر منذ ذلك الحين، ومازال يسيطر عليه حتى الآن.

وفي تلك الأثناء، فإن العديد من المسلمين الملتزمين ظلوا، بدافع من قناعتهم الدينية، يبحثون باهتمام عن هياكل تمويلية تتفق مع الشريعة الإسلامية كي يعتمدوا عليها بارتياح. فالجدل حول ما إذا كانت الفوائد التي تدفع على الودائع في البنوك التجارية تتفق مع الإسلام أم لا، مازال سارياً، بغض الطرف عن الفتوى التي صدرت في هذا الشأن والتي مفادها أن الفائدة (في حد ذاتها) ليست مرادفاً للربا المحرم إسلامياً. وساهم في ذلك الجدل الإجراءات القانونية التي اتخذتها البنوك التقليدية ضد المقترضين المتعثرين عن السداد دون بذل مجهود للتفرقة بين دوافع عدم السداد؛ أي ما إذا كانت تعود إلى نية الاحتيال أو سوء التصرف، أو بفعل ظروف غير متوقعة بما فيها تلك المتعلقة ببيئة الأعمال الدولية أو الخطوات الحكومية أو القوانين غير المتوقعة التي تؤدي إلى نتائج عكسية على المدينين- (حالات التعثر التجاري). ومن الطريف أن البنوك التقليدية في النظم القضائية الغربية لاتخضع القطاع الثاني من المدينين المتعثرين لأحكام القوانين الجنائية؛ بل يتم اتخاذ إجراءات قضائية أخرى تتراوح بين إعادة الهيكلة وإعلان الإفلاس الكلي أو الجزئي.

ظلت الدولة المصرية دائماً رافضة لدعم المبادرات بشأن التمويل الإسلامي بفعل اعتبارات مشروعة تتعلق بتبعات هذه المبادرات على السياسة. وكما ألمحنا في المقدمة، فإن التوجهات التي تم تطويرها مؤخراً بشأن الرقابة على الشركات - خاصة بعد إنرون وساربينز أوكسلي Enron and Sarbanes-Oxley - تحد من هذه الأخطار من خلال ضمانات عملية لمراقبة عدم انخراطها في السياسة. وكذلك فإن مفاهيم التمويل الإسلامي، كما تم تبنيها في عديد من النظم القانونية، كانت ومازالت غير ناضجة في أحسن الأحوال- عندما تجري مقارنتها بنظيراتها الأخرى التقليدية الأكثر رسوخاً. وقد أدت هذه الحقيقة لارتياب الدولة في كفاءة منتجات التمويل الإسلامي من الأساس. وفي حد ذاتها، ينظر إلى منتجات التمويل الإسلامي - أياً كانت النوايا أو الأغراض- باعتبارها تقليدية في جوهرها. والحقيقة أن منتجات التمويل الإسلامي تحتاج إلى وقت وجهد صارم كي تتطور بشكل فعال. وإضافة إلى ذلك فإن منتجات التمويل الإسلامي تعد شاقة ومكلفة، وبمجرد أن يتم إنتاجها بواسطة المؤسسات الخاصة، تميل لأن تظل خاصة أكثر من كونها عامة، وهو ما يحد من فرص انتشارها لصالح جميع قطاعات المجتمع من المهتمين. لكن ذلك لا يجب أن يثني المهتمين بهذا الشأن - الدولة، والمراكز الأكاديمية، ومؤسسات البحث والشركات المالية- عن توحيد الجهود لتطوير التمويل الإسلامي؛ ذلك أن غيابه لفترات طويلة سوف يعني غياب نموذج حقيقي يفيد جمهوراً كبيراً من المنتفعين. وليس هناك حاجة للقول أنه كلما بدأت العملية في وقت مبكر كلما كان ذلك أفضل.



سياسة مصر الاستثمارية:

التمويل الإسلامي كمحفز

خلال السنوات الأربع الأخيرة، لوحظ أن الاستثمارات المباشرة القادمة من منطقة الخليج أصبحت تتوجه إلى مصر، باعتبارها موقعاً استثمارياً مفضلاً. وقد أبدى عدد من القادمين الجدد من المستثمرين اهتماماً إزاء تعاملات التمويل الإسلامي. ويدعم ذلك الحاجة إلى تصميم نماذج تمويلية إسلامية، كما أنه يجعل من صياغة تشريع شامل حول التمويل الإسلامي ضرورة؛ ليعمل جنباً إلى جنب مع نظم التمويل التقليدية الموجودة بالفعل. ويجب أن يخدم المشروع المقترح كمظلة جامعة تنضوي تحتها العديد من منتجات التمويل الإسلامي، ويمكن أن تتطور أو تتم مراجعتها عند الحاجة.

وقد يؤدي هذا التشريع المكتمل إلى فائدة إضافية تتعلق بصياغة العلاقة بين المكونات المختلفة للنظام التمويلي وبين بعضها البعض، والتفاعل مع اللوائح والقواعد الأخرى التي تتصارع وتتداخل معهم، خاصة فيما يتعلق بمجال النظام العام. ومن ثم فإنه من الناحية العملية، سوف يتولى التشريع الشامل حول التمويل الإسلامي مهمة رسم الحدود بين «استقلالية مبدأ التعاقد»، وبين القوانين والأحكام ذات الطبيعة المتصلة بالنظام العام، من ضمن أشياء أخرى؛ حيث إن العلاقات العقدية سوف تراقب تلك الأحكام أو تحد من الأخطار المرتبطة بها. وبنفس الطريقة يجب تسوية القضايا الأخرى الخاصة بالملكية، ومنها المعايير المحاسبية، والتعويضات وأحكام الإفلاس، والصكوك ومراجعة السندات، ولوائح سوق رأس المال وغيرهم.

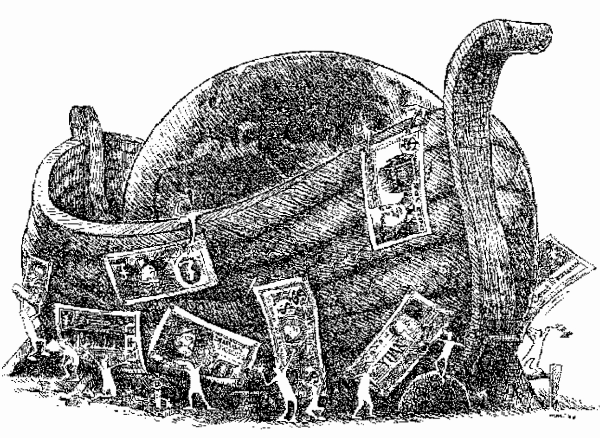
وفي غياب قانون موحد للتمويل الإسلامي، فإن محبي التمويل الإسلامي، ومقدمي الخدمة والعملاء يتركون كي يضطلعوا بالأمر بأنفسهم. إن النظام في شكله الراهن غير المناهض للإسلام، حيث يسمح بخيار ترتيب الصفقات بشكل تعاقدي بين أطرافه، دون أن يكون ذلك تحت إشراف أو تنظيم القانون أو الدولة.

إن هيكلة منتجات التمويل الإسلامي بهذه الطريقة يتوقف إلى حد كبير على المبادرة الفردية والقدرات التمويلية وإدارة تدفق العمل، وهو ما يحد من فرصة بلوغه لأعداد كبيرة من الفاعلين والمهتمين، والذين بغير ذلك لا يكونون قادرين للتعرض لهذه المهمة، بما في ذلك مواجهة التكاليف المرتفعة لتطوير بنى التمويل الإسلامي.

إنه لا يتناقض مع البديهيات أن ننظر إلى التمويل الإسلامي بنفس الطريقة التي ننظر بها إلى الليبرالية الاقتصادية، على الأقل من زاوية أن كليهما يساعد على جذب الاستثمارات الدولية. وفي الوقت الراهن تهتم الاستثمارات بمستوى الليبرالية الاقتصادية في مناطق الاستثمار، وبقدر مساو، يهتم المستثمرون - المسلمون بالأخص- بمدى رقي منتجات التمويل الإسلامي في مناطق جذب الاستثمارات، وتوافقها مع الشريعة، ومدى تكلفتها، ومدى تحديدها وتوفرها. ويسعى كاتبا هذا المقال، بدافع من اهتمام شخصي واعتبارات أكاديمية، لتطوير أطر قانونية للأنواع المختلفة من الصفقات؛ مثل الاستثمار في الأوراق المالية، وغيرها، المتوافقة مع الشريعة، كي تستخدم بواسطة المستثمرين الذين يطرقون باب مصر. ومع ذلك، فإنه لا يمكن التخلي عن تدخل منتظم من جانب الدولة للتشريع في هذا المجال بطريقة تقدم الأمان والثقة لدى المستثمرين؛ حيث إن القيادة في هذا المجال للنظم القانونية التي تنافس مصر على الاستثمارات. وإلى جانب المنافسين التقليديين فيما يخص تلقي الاستثمارات، تسمح السلطات الضريبية في انجلترا والولايات المتحدة بصفقات مبيعات مزدوجة، وهو الأمر الذي قد يكون مطلوبا لاستيفاء معايير الالتزام بالشريعة، كما هو الحال، على سبيل المثال، مع البيع لمرة واحدة لأغراض الضريبية.

مقترح للمستقبل

دخلت مصر عصراً جديداً في سياسة الاستثمار وإصلاح القطاع المالي والمصرفي، وهو ما يعكس التفكير الليبرالي الذي يتبناه صانعو السياسات. وفي هذا العصر الجديد، ومن أجل التوافق مع أهدافه، سوف توجد أدوات جديدة للتوافق مع طلبات المستثمرين؛ والتمويل الإسلامي جزء منها. وبالرغم من أن تبني نماذج المعاملات الإسلامية ليس بالأمر السهل، إلا أنه ليس مستحيلاً أيضاً. وفي المرحلة الراهنة، يمكن للمهتمين بهذا الشأن أن يستفيدوا من المرونة المتاحة في القوانين - كما يسمح بها القانون المدني والدستور نفسه، خاصة المادة ٢ المعدلة- لخلق منتجات تمويل إسلامي. غير أنه على المدى المتوسط يجب أن توجد خطط تشريعية لتنظيم هذا المجال لأجل نفع مجتمع المستثمرين. وبمعنى آخر؛ إن السوق المتنامية للتمويل الإسلامي في مصر سوف تحفز المشرعين على التجاوب مع موجة التمويل الإسلامي الحالية. ويجب أن تتم صياغة تشريع شامل للتمويل الإسلامي، يفيد في جذب الاستثمارات إلى مصر، حيث إن مصر تتنافس على الاستثمارات الخارجية المباشرة مع الدول الأخرى عن المنطقة وخارجها؛ كما يفيد أيضاً المستثمرين المحليين لعقد الصفقات خارج الهياكل والمؤسسات المالية التي تجيزها الدولة. ■



"طريف أيضاً وشيق.." الاقتصاد

بورتون ج. مالكييل

■■ يظن البعض أن علم الاقتصاد «علم كئيب» كما وصفه المؤرخ الأسكتلندي توماس كارليل Thomas Carlyle منذ أكثر من مائة عام، وهذا لأنه - على حد قوله - يبدو مملاً ومبهماً، ويفتقر إلى التشويق، ويعرض الأمرين دون اختيار أحدهما، وتتكرر به عبارة «من جهة ما، ومن جهة أخرى». ولذلك، ذكر هاري ترومان في إحدى خطبه أنه لتجنب الغموض والالتباس يجب تعيين مستشارين اقتصاديين «ذوي جهة واحدة». وفي الواقع، كان يدور في ذهن كارليل فكر مختلف حين استخدم هذا التعبير، فما أراد أن يذهب إليه كارليل هو أن الندرة متغلغلة في شتى جوانب الحياة - أي أننا علينا الاختيار بين إشباع رغبات متبارية، مثل الاختيار بين الإنفاق اليوم والإنفاق غداً، وكذلك الاختيار بين القيم والأهداف المتضاربة. على كل، أكد المؤرخ الأسكتلندي أن لكل شيء تكلفة ولا يمكن تحقيق أي إنتاج دون عمل وتضحية.

وبالفعل يعتقد كثير من الناس أن علم الاقتصاد والمشتغلين به ثقيلو الظل من الناحية الاجتماعية، أي أنهم فاترو الإحساس تماماً. فالبعض يذهب إلى تعريف رجل الاقتصاد بأنه: «شخص يجيد التكلم بلغة الأرقام، ولكن ليس لديه المقومات الشخصية التي تؤهله ليصبح محاسباً». وسادت تلك الفكرة المعتمة عن رجال الاقتصاد؛ بسبب ميلهم للاستخدام المفرط للرياضيات والرسوم البيانية المحيرة دائماً في كتاباتهم المبهمة. إلى جانب أنهم يخفقون في كثير من الأحيان في الاعتراف بما يجهلونه.

لماذا يستهزئ البعض دائماً بعلم الاقتصاد، ولماذا يتجهم الطلاب عندما يتحتم عليهم دراسة علم الاقتصاد كفرع من فروع المعرفة؟ أعتقد أن الأسباب تكمن في أن معظم الكتابات الاقتصادية لا تصاغ بصورة جيدة، بل وتستند دائماً على التلاعب بمسائل الجبر والرسوم البيانية المعقدة، بالإضافة إلى أن هناك القلائل من خبراء الاقتصاد ممن يستطيعون توصيل مدى التشويق الكبير الذي ينطوي عليه تحليل المفاهيم الاقتصادية أو إيضاح مدى ارتباطها بحياتنا اليومية. أما هذا الكتاب الذي نحن بصدده لتشارلز ويلان Charles Wheelan، فيغير كل تلك الأفكار عن الاقتصاد والاقتصاديين. في الواقع يمكن القول: إن ويلان لا يتمتع باللمسة التي تحول التراب إلى ذهب فحسب، بل تلك اللمسة التي تجعل الذهب ينبض بالحياة.

إنه بالفعل كتاب فريد من نوعه؛ فهو لا يحتوي على معادلات أو مصطلحات متخصصة يتعذر فهمها، أو رسوم بيانية معقدة. ومع أن الكثير من الأفكار الاقتصادية تعتمد من حيث الشرح على المعادلات والرسوم البيانية، نجد ويلان قد أثبت أنه من الممكن تيسير كل هذا في لغة واضحة. فهو يعطينا خلاصة علم الاقتصاد بإرجاعه إلى ارتكازاته الأساسية. كما أثبت أن لفظ «رجل الاقتصاد الواضح» ليس فيه تضاد.

وسنرى في صفحات هذا الكتاب أن الانتقادات الموجهة للاقتصاديين ليست في محلها. صحيح أن التحليل الاقتصادي يتضمن صعوبة وتعقيداً، أو هو في كثير من الأحيان أكثر تعقيداً من التحليل في العلوم الطبيعية؛ فقد تقدم العلوم الطبيعية شرحاً جذاباً للأنظمة المنمقة البسيطة مثل الكواكب التي تدور في مدارات حول الشمس، أو الإلكترونات التي تدور حول النواة، ولكن حتى العلوم الطبيعية تتضمن ظواهر في الطبيعة يصعب فهمها. ويدرك ذلك من يعمل في هيئة الأرصاد الجوية. فمع الدلالات التي تسجلها الأقمار الصناعية المتطورة ووسائل التنبؤ بالطقس، ليس بإمكان خبراء الأرصاد الجوية أن يجزموا في مقولة يسيرة أن «الطقس غداً سيكون تماماً مثل الطقس اليوم». بالتأكيد تخفق نماذج القصور الذاتي في الكشف عن التحولات التي يشهدها الطقس، ولكنها تعكس نظرة شاملة ممتازة عن أحوال الطقس بصورة عامة. لذلك، عندما يُطلب من خبراء الأرصاد الجوية إصدار التقارير حول التغيرات المناخية التي قد تنجم عن ظواهر مثل ارتفاع درجة حرارة الأرض، فإن عدم دقة التوقعات التي يحصلون عليها تجعل التوقعات الاقتصادية تبدو دقيقة بالمقارنة بها.

في الواقع، إن علم الاقتصاد أكثر صعوبة من العلوم الطبيعية؛ لأنه من غير الممكن إخضاع الظواهر الاقتصادية للتجارب العملية المحكمة، ولأن سلوك الأفراد لا يمكن التنبؤ به. لذلك، جذب الاقتصاد السلوكي behavioral economics - وهو فرع كامل من فروع الاقتصاد - انتباه الكثيرين، وذلك لأنه يربط بين أفكار علماء علم النفس ورجال الاقتصاد. ولكننا ما زلنا عاجزين عن التنبؤ بسلوكيات الأفراد بأية درجة من الدقة. ولكن لو كان لا يمكننا فهم كل شيء فليس معنى ذلك أننا لا نفهم أي شيء. فنحن نعرف أن السلوك الفردي تحركه الدوافع، كما نعرف أن الضوابط المنطقية تحكم الأنشطة الاقتصادية، وكذلك نعرف الكثير من الأمور من هذا القبيل، مثل معرفتنا أن

Naked Economics
Undressing The Dismal Science
الاقتصاد عاريا: عرض طريف ومشوق للمفاهيم الاقتصادية
تشارلز ويلان
ترجمة زينب حسن البشاري
مراجعة محمد عبد العزيز أبو المجد
كلمات عربية، القاهرة، ٢٠٠٧

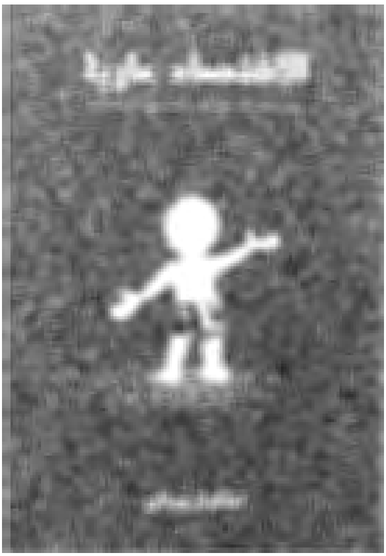
إذا سألت عشرة رجال اقتصاد نفس السؤال ستحصل على عشر إجابات مختلفة

كل عملية بيع تتضمن عملية شراء، وإنه نادراً ما يجري التغاضي عن فرص المكسب الواضحة – وهي الفكرة الأساسية التي تقوم عليها نظرية أن أسواق الأوراق المالية فعالة بصورة كبيرة.

وقد تكون العلوم الاقتصادية لا تتمتع بقدر كبير من الدقة، إلا أنها تؤثر تأثيراً مباشراً على حياتنا. كما أنها تؤدي دوراً مهماً في وضع السياسات؛ حيث يؤثر الاقتصاديون على كل فروع الجهاز الحكومي. فلطالما كان دفع عجلة النمو الاقتصادي، وزيادة العمالة، وتجنب التضخم الشغل الشاغل للمعنيين بالشئون الاقتصادية في الحكومة. هل تتذكر شعار حملة بيل كلينتون الانتخابية عام ١٩٩٢م؟ كان الشعار «الاقتصاد هو المهم، أيها الغبي» It's the economy, stupid فقد كان الحث على المنافسة وتقليل الاحتكار (من جانب وزارة العدل)؛ والحد من التلوث (من جانب وكالة حماية البيئة)، وتوفير الرعاية الصحية (من جانب وزارة الصحة) - تعد أمثلة على الأنشطة الرئيسية المعنية بها مجالس الوزارات، والتي تشكلها عناصر اقتصادية مهمة. وبالفعل من الصعب اتخاذ أية قرارات سياسية سواء أكانت تخص قضايا اجتماعية، أم ضريبية، أم دولية، أم زراعية، أم قضايا خاصة بالإنفاق أو الأمن القومي، دون النظر في عواقبها الاقتصادية. ومع أن السياسيين قد تراودهم الشكوك حول قدرة الاقتصاديين على حل تلك المشاكل، إلا أنهم لا يتجاهلون استشاراتهم الاقتصادية. وكما قال جون ماينارد كينز John Maynard Keynes: «إن ممارسي الأنشطة الاقتصادية، الذين يظنون أنهم متحررون عقلياً من أي تأثير فكري، هم في الغالب أسرى لأفكار اقتصادية من عهود ماضية. كما أن مجانين السلطة يستوحون أفكارهم المجنونة من أنصاف الأكاديميين القدامى».

ويسود تأثير خبراء الاقتصاد تأثيراً متزايداً أيضاً في مجالات الأعمال التجارية والأوساط المالية. فقد ذكر بيتر لينش Peter Lynch ذات مرة - وهو مدير سابق لأحد صناديق الاستثمار بشركة فايدليتي Fidelity للاستثمارات - أنك إذا قضيت أربع عشرة دقيقة تتحدث فيها مع رجل اقتصاد تكون قد أضعت من وقتك اثنتي عشرة دقيقة. وربما يكون من المفارقة أن أداء مديري الصناديق المشتركة المحترفين يجري تقييمهم الآن قياسياً وفقاً للأساليب التي يطورها خبراء اقتصاد المالية. كما يؤثر الاقتصاديون على أعداد لا حصر لها من القرارات التجارية؛ فهم يقدرون حجم الطلب للشركات المختلفة مثل جنرال موتورز وبروكتر آند جامبل. كما تستعين بهم أعداد كبيرة من شركات الاستشارات الاقتصاديه المعنية بالمهام التجارية، بدءاً من التخطيط الاستراتيجي وحتى مراقبة المخزون. ويساعدون الشركات على تشكيل محافظ استثمارات الأوراق المالية عن طريق تحليل سياسات الاستبدال بين العائد المتوقع والمخاطرة، ويقدمون الاستشارة لكبار المسئولين الماليين بالمؤسسات بشأن تحديد النسب المختلفة لعوائد الأسهم، وكذلك ما للديون من تأثير على أسعار الأسهم العادية. في أسواقنا المالية، يحمل المتعاملون في عقود خيارات الأسهم stock options حواسب آلية يقارب حجمها قبضة اليد مزودة ببرمجيات اقتصادية تخبرهم بالأسعار التي يجدر بهم عندها تداول حقوق خيارات البيع والشراء. والحقيقة هي أن التحليل الاقتصادي مفيد للغاية بالنسبة للمستثمرين والمنتجين وكذلك واضعي السياسات الحكومية.

ويتضح للمستهلكين العاديين أن علم الاقتصاد يمكن أن يكشف لهم الكثير من القضايا اليومية المعقدة مثل: لماذا يصعب على بعض الناس الاشتراك في تأمين صحي؟ لماذا نتوقف عند مطعم ماكدونالدز ونحن على أحد الطرق السريعة مع وجود الكثير من المطاعم الأخرى التي قد تصنع شطائر هامبرجر أفضل؟ لماذا يُقدِم كثير من الطلاب على الالتحاق بجامعات «مرموقة» في حين يوجد الكثير من المعاهد الأخرى التي توفر نفس التعليم الجيد وبمصروفات أقل بكثير؟ هل تساءلت يوماً عن علاقة مصطلحات مثل «الاختيار السلبي» و«السلع العامة» و«معضلة السجينين» بحياتنا اليومية؟ تلك إحدى المسائل التي يتناولها هذا الكتاب الرائع.



من المقولات الشائعة أنك إذا سألت عشرة رجال اقتصاد نفس السؤال ستحصل على عشر إجابات مختلفة. ولكن أراهنك أنك إذا سألت عشرة رجال اقتصاد لماذا يصعب العثور على سيارات الأجرة وشقق سكنية في مدينة نيويورك سيتي، سيخبرك العشرة أن الحدود المفروضة على عدد تراخيص سيارات الأجرة، والرقابة على الإيجارات، هي ما يقلل عدد المعروض من تلك السلع والخدمات. هناك بالتأكيد مواضيع كثيرة يجمع عليها رجال الاقتصاد. فهم يتفقون كلياً على أن التجارة الدولية الحرة يمكن أن تؤدي إلى تحسين مستوى المعيشة بالدول التي تعمل بها، وأن التعريفات الجمركية وحصص الاستيراد تقلل من رخاء البلاد تقليلاً عاماً. كما يتفقون في مجملهم على أن الرقابة على الإيجارات تحد من حجم وجودة المساكن. ويجمعون كذلك في توقعاتهم أن مأساة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م المروعة ستؤدي إلى تقليص النشاط الاقتصادي. وقد علمت من تجربتي الشخصية في الجهاز الحكومي أن الاختلاف بين آراء الاقتصاديين وبعضهم (سواء كانوا محافظين جمهوريين أو ليبراليين ديمقراطيين) أقل بكثير من الاختلاف بين الاقتصاديين وبين العاملين في المجالات الأخرى. يتفق الاقتصاديون ذوو الرؤى السياسية المتضاربة فيما بينهم في معظم المسائل. كما يتحد أحياناً الاقتصاديون المنتمون لحزبين مختلفين إذا دخلوا وسط مجموعة من الساسة التابعين للحزبين.

وأعتقد أن السبب في ذلك هو أن رجال الاقتصاد يرون العالم من منظور فريد من نوعه، كما أن لديهم تفكيرهم الخاص عن كيفية حل المشاكل. إذ يستلزم التفكير كخبراء اقتصاديين استخدام سلسلة من أفكار المنطق الاستدلالي عند تفسير مفاهيم سهلة مثل العرض والطلب؛ كما يستلزم التعرف على سياسات الاستبدال، في سياق مقيد، عن طريق



موضوعات صعبة

الاقتصاد

قياس تكلفة الإقدام على خيار ما، بالمقارنة مع المنافع التي كان سيحصل عليها الفرد إذا كان اتبع الخيار الآخر. ويطمح تفكيرهم إلى الفعالية - وهي الحصول على أقصى منفعة ممكنة من الموارد المحدودة. كما يتطلب النظر للأمور من منطلق حدي أو تزايدي. ويسأل عن حجم المنافع الإضافية التي يمكن الحصول عليها إذا تحملنا تكلفة إضافية. بل ويدرك أن الموارد لها استخدامات متعددة، وأنه يمكن أن يجري الإحلال بين الموارد المختلفة لتحقيق النتائج المرجوة، وأخيرا، يذهب الاقتصاديون إلى أن الرخاء الاقتصادي يأخذ في التزايد إذا سمح للأفراد باتخاذ اختياراتهم الخاصة، وكذلك يدعون أن الأسواق المتنافسة تعد بمنزلة آلية في غاية الكفاءة للتعبير عن اختيارات الأفراد. وفي حين تتضمن كل المشاكل الاقتصادية قضايا معيارية - أي منظورات مختلفة عما يجب فعله - فإن التفكير كرجل اقتصاد يتطلب رؤية تحليلية تقوم عادة بتجريد - أو على الأقل تيسير - القضايا المتعلقة «بالقيمة».

يعرض هذا الكتاب الفريد المفاهيم الاقتصادية بطريقة مبسطة ليسهل على القارئ فهمها. فهو يتطرق إلى فوائد السوق الحرة التي تجعل حياتنا أفضل، كما يوضح لماذا تخفق الأنظمة الاقتصادية التي تخضع لأحكام مركزية في رفع مستوى معيشة المواطنين. بالإضافة إلى ذلك، يعرض الكتاب الدور المهم للحكومة في تأسيس البنية القانونية التي تعطي الفرصة لوجود الأسواق وتوفير السلع العامة. كما يشير إلى دور الحكومة في تصحيح الأوضاع عندما تتسبب السوق الحرة في تأثيرات خارجية غير مرغوب فيها، مثل تلوث البيئة، أو عندما تفشل أسواق القطاع الخاص في إنتاج بعض السلع التي يحتاجها المواطنون.

هل تساءلت يوما لماذا كان يحصل مربو ماعز صوف الموهير على إعانات مالية من الحكومة الفيدرالية لعدة عقود؟ يتناول ويلان شرح كيف توصل رجال السياسة والاقتصاد إلى تلك النتيجة. هل تفهمت حقًا لماذا يعتبر دائما آلان جرينسبان Alan Greenspan ثاني أكثر رجال الدولة نفوذا في الولايات المتحدة؟ يزيل ويلان الغموض عن تأثير السياسة النقدية على النشاط الاقتصادي. هل فهمت جيدا المشهد الأخير من فيلم «تريدينج بليسيس» Trading Places، عندما تعرض الأشرار للهزيمة في سوق العقود المستقبلية؟ يضع ويلان نظرية العرض والطلب بين يدي القارئ. هل تساءلت ذات مرة هل كان مناهضو العولمة على جانب من الصواب، وعما إذا كانت الأوضاع الاقتصادية للدول المتقدمة أو النامية ستتحسن إذا قل الاندماج الاقتصادي بين الدول؟ يجعل ويلان كل تلك الامور واضحة كالشمس. وعندما تقرأ في الصحيفة عن الخلافات الخاصة بالقضايا الاقتصادية الجارية، هل دائما ما تنزعج وتتغلب عليك الحيرة من تنافر وجهات النظر التي تقرؤها؟ يحلل ويلان التفاصيل ويخترق جدار السياسة ليكشف النقاب عن أهم النقاط. من هذا المنطلق ينجح في تحويل العلم الكئيب إلى نسيج حيوي مؤلف من الاقتصاد والسياسة يشكل الكيان السياسي والقومي.

لقد أسهم ويلان في إثراء القراء بمرشد اقتصادي ممتع في قراءته على نحو جذاب. فهو يجعل من القارئ مواطنًا أكثر وعيًا ويزيد من استيعابه بصورة أكبر للقضايا الاقتصادية المهمة اليومية عن طريق رد علم الاقتصاد إلى جذوره. ويبرهن على أن علم الاقتصاد يمكن شرحه دون رسوم بيانية، أو جداول، أو معادلات. كما يمكن أن يجعل منه علماً غاية في التشويق. إن هذا الكتاب يمكن استخدامه كملحق تكميلي للمقررات الدراسية في الاقتصاد في الجامعات والمدارس الثانوية. والأكثر من ذلك، يمكن اعتباره كيانًا قائماً بذاته، كمقدمة لهذا المجال. سيغير حتماً آراء الكثيرين ممن يرفضون دراسة علم الاقتصاد باعتباره جافًا ويبعث على السأم. طالما فكرت أنا نفسي في كتابة ما يعد مقدمة أساسية في علم الاقتصاد، ولكن دائماً تعترض المشاريع المنافسة بعضها بعضاً. فلو كنت فعلت ذلك، لكان هذا هو الكتاب الذي أردت كتابته. ■

■ ■ يغلب التصور عن علماء الاقتصاد بأنهم مملون، وما يبرر ذلك أن معظم الناس يبدون مملين، على الأقل عند التحدث عن العمل، وعلى هذا النحو يكون معظم الناس بداية بالعلماء وحتى عارضي الأزياء المشاهير، ولكن السؤال هو لماذا يوصف علماء الاقتصاد بذلك وحدهم؟

الإجابة من وجهة نظري الشخصية هي التعطش لشيء ما ولكن من طرف واحد. فالعلوم الاقتصادية كما صاغها جون ماينارد كينز «شيء خطير سواء للخير أو للشر» وعلى ذلك فهي ليست كما صاغتها الدراسات الأدبية أو حتى التاريخية. فالناس يبحثون لدى علماء الاقتصاد عن شيء يعطيهم الإحساس بالرضا العاطفي أو السياسي ولذلك يصابون بخيبة الأمل، حيث إنهم يجدون نظاماً يبدو كما لو كان كله عبارة عن معادلات ورسوم توضيحية وبعض المصطلحات المبهمة والتي لا تكون معروفة إلا بالنسبة للاقتصاديين فقط.

لكن هنالك بعض المبررات لهذا الغموض، فالاقتصاديات التي تحدث عنها كينز في مواضع أخرى عبارة عن (موضوعات تقنية صعبة)، ولكن ما من شخص سوف يؤمن بها. أما الأفكار الرئيسية للنظرية الاقتصادية فهي بسيطة للغاية حتى إنها تنتهي إلى ما هو أكثر قليلاً من فرضية أن الناس عادة ما يستغلون الفرص، بالإضافة إلى ملاحظة أن الفرص المتاحة غالباً ما تعتمد على أفعال شخص آخر والعكس. لكن تطبيق تلك الأفكار على حالات معينة مثل تأثير التقدم التكنولوجي على العمالة، وتأثير التجارة الدولية على الأجور وتأثير الزيادة النقدية على النمو الاقتصادي يتطلب بعض التركيز الزائد والتفكير الجاد. ذلك التفكير الذي يتضمن بعض الرياضيات إلى جانب بعض من الاصطلاحات المتخصصة التي تمكنك من المتابعة، لكن هذا لا ينفي أن الكثير مما يفعله علماء الاقتصاد الحديثون أو الأكاديميون من أي نوع ليس إلا بعض الاستعراض الفكري غير الهادف، مستخدمين الحسابات الخيالية لاستنتاج الأشياء التي يمكن التعبير عنها من خلال اللغة البسيطة أو للتعبير عن أشياء ستكون ذات معنى ساذج للغاية إلا إذا لم ينخفض معناها وراء ستار الرياضيات. لكن ليست كل التقنيات الخاصة بالاقتصاد الحديث مجرد تضليل أو إخفاء وإنما تكون أحيانا سبيلا لتوضيح وتبسيط الأشياء.

يجب أن يكون هناك الكثير من الكتابات سهلة الفهم والمشوقة بل والممتعة عن علوم الاقتصاد بخلاف المتاح. فعلم الفلك مثلاً هو موضوع صعب وتقني للغاية ولكن أين هو الموازي لما قاله الراحل كارل ساجان بالنسبة للاقتصاديات؟. (هل تعلم أن مستهلكي الولايات المتحدة ينفقون تريليونات وتريليونات لا تبالي) في كثير من النقاط والتي تكون أحيانا عاطفية للغاية. يقدم علم الاقتصاد بصائر نافذة ومضيئة، تلك البصائر التي من الممكن بقليل من الجهد (حسنا، بكثير من الجهد) أن تفسر بدون اللجوء إلى الاصطلاحات الاقتصادية المعقدة، ولكن لا تأتي التفسيرات دائماً سريعة، فنحن مهنة ليس لديها من يعممها للجمهور.

الآن دعونا نتمهل لحظة، أليس هناك بعض الخبراء الاقتصاديين ممن لديهم نفوذ وتحقق كتاباتهم أعلى المبيعات؟ نعم، ولكنهم ليسوا من المشاهير بمعنى الكلمة.

أما ساجان فقد كان ممن يمتلكون تلك القدرة، فقد وجد السبيل الذي يجعل الموضوعات الجادة المتعلقة بعلم الفلك، مثل الاكتشافات والنظريات - أشياء عامة وشاملة وممتعة بالنسبة لقطاع عريض من الجمهور، على الجانب الآخر لم يستطع علماء الاقتصاد المشاهير إعطاء القراء القدرة على ملاحظة الأحداث التي يتم البحث فيها عن كثب، ودون استثناء لأحد، أجد أنهم يستخدمون مؤلفاتهم فقط للتحايل على الهيكل الطبيعي للعلم، حيث يستخدمون للوعظ بعض الأفكار المتفق عليها من قبل القليل من علماء الاقتصاد الجادين، وغالباً ما تكون تلك الأفكار خاطئة بطريقة واضحة، وأحياناً ما تكون ساذجة بالفعل، وليست فقط مخالفة للرأي الجماعي، ذلك على الرغم من أنها قد تبدو أفكاراً جيدة للقارئ غير المحنك.

في الواقع فإن معظم الناس بمن فيهم هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم على قدر كبير من الدراية، وممن يشاهدون وسائل الإعلام ويطلعون على المجلات الثقافية يعرفون كيف تبدو الاقتصاديات.

تحليل النظريات الاقتصادية
بول كروجمان
ترجمة: رانيا محمد عبداللطيف
القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات الثقافية

.. وأفكار غامضة!!!

بول كروجمان

أما ما يخص المقالات التي يشتمل عليها هذا الكتاب فهي عبارة عن محاولات لعمل شيء بهذا الصدد. فقد قمت بمعظم ما يمكن أن يقوم به الدارسون والأكاديميون من خلال حياتي العملية. قمت بتدريس بعض المحاضرات وكتبت مقالات للصحف المتخصصة وتحدثت عامة مع أكاديميين آخرين، حيث كنت مهتماً جداً بالوصول إلى الحقيقة لإقناع الجماهير المنتقاة ممن لديهم القدرة على النقد والحكم على الأفكار بأنني كنت على صواب، وهذا ما كان يعنيني. وهنا يظهر دور شخص آخر عليه أن يقوم بتوصيل تلك الحقيقة للقاعدة العريضة من الجمهور. وللأمانة فإنني سوف أعود إلى أيام البراءة الأولى إن كان باستطاعتي، حيث إنني أشعر وكأنني طُردت من الجنة. ولكن ليس هناك رجوع، فأنا واع تماماً إلى أن الحقيقة لا تنتشر دائما، حيث إن المشعوذين والذين يمتلكون القدرة على جعل الناس يصدقونهم من الناحية الظاهرية غالباً ما تكون لديهم القدرة على إقناع عظماء الرجال الأخيار بأنهم مثال للحكمة تماماً كما تبدو الأفكار الاقتصادية عميقة جداً بالنسبة لأي شخص غير محنك، إلا أنها تبدو لي أشياء ساذجة دون الحاجة لبرهان على ذلك، كما أنني لا أستطيع أن أعتمد على شخص ما كي أبني الأفكار الاقتصادية التي أعتقد بها. فكل ما علي يجب أن أفعله بنفسي.

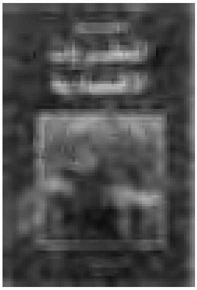
ولحسن الحظ فإنه على الرغم من أنها مهنة شاقة إلا أنها ليست مستحيلة. فإذا أُخذ هذا العمل مأخذ الجد فسوف يكون بإمكانك إيجاد طريقة أو مثل أو حتى قول مجازي أو زاوية معينة كمدخل لتسهيل فهم جزء ما من العلوم الاقتصادية عسرة الفهم. كما أن حرفية الكتابة عن موضوع تقني بطريقة واضحة تدعو للسرور والبهجة الخالصة.

وقد وجدت نفسي بالفعل متجهاً لشيء ما يشبه حياة عملية ثانية منذ عدة سنوات قليلة، هي كتابة نوعية من المقالات المجمعة في هذا الكتاب. فغالباً ما أكتب بعض المقالات مستغلاً بعض الأحداث الجارية كنقطة بداية، فقد كنت غالباً ما أفجر بعض الأفكار المقبولة إلى حد ما كي تبدو غير صحيحة والعكس، ولكن هدفي أيضاً كان توضيح معنى أن تفكر، خاصة التفكير الفعلي في العلوم الاقتصادية.

ولكن تلك الحياة العملية الثانية لم تكن دائماً تجعلني مقبولاً لدى الناس، حيث إن بعض الناس لديهم معتقدات قوية فيما يخص الاقتصاديات، وجزء من تلك المعتقدات يرجع إلى الخبرة اليومية في الإنفاق والحصول على الأموال. لكنها أحياناً ما تعطي فكرة خاطئة عن الموضوع بشكل عام، وذلك لأنه من السهل جداً الإقناع بالنظريات الاقتصادية التي تلائم آراءنا السياسية المسبقة.

بناء على ما سبق كيف يمكن لأشخاص بتلك المعتقدات الراسخة أن تبدو عليهم أي استجابة عندما يخبرهم باحث اقتصادي بأن معتقداتهم الواضحة هي معتقدات خاطئة تماماً، مثل الطب الشعبي الذي يرى أن الإصابة بالقرحة تكون نتيجة للقلق الشديد، أو تخبرهم أن الأفكار التي لا تروق لهم هي أفكار غير غامضة وصحيحة تماماً مثل مبدأ الانتخاب الطبيعي الخاص بنظرية التطور. ربما يعترف الناس بالجميل لإنارة عقولهم، ولكن ذلك عادة لا يحدث، بالإضافة إلى ذلك فهناك الكثير من الكتاب والمتحدثين ذوي النفوذ والذين قد أفنوا معظم حياتهم العملية ليختلقوا بل ليخترعوا بعض الأفكار مستخدمين حلو البيان لإخفاء قصور تلك الأفكار، لذلك فلا هم ولا من انجذبوا لأفكارهم سيروق لهم توضيح تلك الحقائق، كما أن هناك ببساطة بعض الناس الذين يشعرون بالإهانة لمجرد الاقتراح. إن التفكير العميق في علم الاقتصاد سوف يجعلهم يتساءلون عن مبادئهم السابقة التي قد كتبها مؤلف في حالة غضب ودون تسامح وهي «اتهامات الأمية». هذا الاتجاه هو ما أشار إليه كينز عندما كتب أنه عندما تكون علوم الاقتصاد موضوعاً شاقاً وتقنياً «لن يؤمن بها أحد».

كذلك يمكنني التحدث عن موضوع معين أثناء مناقشة هذا الموضوع فأحياناً أجد أنه من الضروري أن أذكر بعض الأسماء أو أن أوضح فكرة ما قد تكون سيئة من خلال إعطاء بعض الأمثلة الواقعية لمشاهير الأشخاص الذين اعتنقوا تلك الفكرة وذلك لتحقيق هدف جاد بالفعل. وعلى الرغم من أن هذا يبدو مكراً إلا أنني لدي هدف أود تحقيقه بالفعل. وقد كنت أرى دائماً أن مروجي الأفكار الاقتصادية التافهة غالباً ما يلعبون لعبة «الطعم أو



الإغراء للتحكم» من خلال وعد الجماهير بالتحاليل الفلسطينية الكاذبة، ثم تزويدهم بعد ذلك بالحكايات البسيطة بدرجة فجة تفتقد الخبرة. أما الشيء الأكثر سوءا من ذلك فهو حينما يحاول شخص مثلي أن يناقض تلك الأفكار أو الحكايات البسيطة فيجد الرد هو أن «ما من أحد يصدق ما تقول»، وذلك يتبع في نفس اللحظة بتكرار لنفس الفكرة التي يعاد إقرارها بطريقة طفيفة.

الآن ماذا على المجادل المحترف أن يفعل؟ حسناً فقد اتضح أن ذلك قد يجعل هؤلاء يوقعون بأنفسهم في الفخ، جزء من ذلك يعتمد على أنني أحتاج إلى إثبات أن هناك بعض الناس المهمين الذين يتحكمون في وجهات النظر التي أنتقدها وأنني لست أواجه خصوما وهميين، كما أنني وجدت أنه إذا تم توضيح مدى سهولة التضليل والإقناع بوجهة نظر تبدو جادة ثم تجدها بعد ذلك غير ذات قيمة وسيطة، سأكون قادراً على إقناع القارئ بأنه يحتاج بالفعل إلى الإنصات لما سوف أقول، فإما أن ينصت أو يرسل لي بخطاب مهين، وهو الاختيار الذي يفضله البعض القليل.

على الرغم من أنني لم أستطع تكوين صداقات من خلال تلك الحياة العملية الثانية، إلا أنني أحب من وقت لآخر الاعتقاد بأن هناك من هم متأثرون بالأفكار على الأقل. أما الأجزاء المجمعة في هذا الكتاب فمصدرها مقالات قد تمت كتابتها في الفترة ما بين خريف عام ١٩٩٥ وصيف عام ١٩٩٧، حيث كانت فترة مليئة بالأحداث (أليست كل السنين كذلك؟!) كما كانت فترة خصبة للهراء يميناً ويساراً. فالقطعة الأولى من هذه المجموعة قد كتبت رداً على الهراء الشديد الذي انتشر بواسطة زعيم أغلبية الحزب الجمهوري الأمريكي المنتخب حديثاً، فهو قليلاً ما يستجيب للأفكار العاطفية. ولكن لسوء الحظ فقد كان مساوياً في سذاجة الأفكار لرئيس وزراء فرنسا الاشتراكي المنتخب.

على كل حال فاليمين واليسار ليست بالاتجاهات ذات النمط المناسب، فهناك اتجاه آخر قد تم الوقوف عليه من خلال تلك المجموعة وهو ببساطة عدم إثبات المعتقدات التقليدية لكل من التحرريين والمحافظين، وكثيراً ما يكره الناس سماع الحقيقة.

إن ما يقرب من نصف تلك المقالات قد تم نشره في مجلة «سليت» الإلكترونية، والتي ينشر لي بها عمود شهرياً بانتظام تحت عنوان «العلم الكئيب». أما باقي المقالات فمعظمها قد تم نشره من خلال الإعلام الخاص بالمنابع الرسمية مثل «واشنطن مانثلي، فورن أفيرز، نيويورك تايمز» فيما عدا قليل من المقالات فما زالت حديثة ولم تنشر بعد، وعلى الرغم من أن بعضها قد تمت كتابته إلى حد ما كرد فعل لأحداث جارية، إلا أنني لست مراسلاً صحفياً إذ كان لدي ما أدخله في نقاش للأخبار، لكن ذلك يتأتى من خلال صياغة تلك الأخبار أو تحويلها إلى مقال أطول عمراً من مجرد خبر. لذلك أرجو أن يجد القراء أن تلك الأجزاء غير مؤرخة حتى يبقى جميعهم مناسبا وسديداً.

على الرغم من جدية هدفي، فقد استمتعت بكتابة تلك الأجزاء، ولو أن كل تلك الأفكار المتهالكة حقيقية بالفعل، فكتابة ١٣٠٠ كلمة من خلال مقالات تكتب بلغة واضحة لعامة الناس تحتاج لوقت أكثر من الذي تحتاجه كتابة ٥٠٠٠ كلمة في صورة معادلات تملأ الورق لصحيفة متخصصة. على ذلك أود أن يحصل القارئ من خلال تلك المقالات على المتعة والثقافة معاً، فقط عليك أن تجرب. ■

جيفارا 80

قراءة يابانية

وليد عبدالناصر

الترجمة اليابانية لرسائل جيفارا إلى ابنته صدرت قبل أسابيع

■■ شهدت مختلف بلدان وأقاليم العالم خلال عام ٢٠٠٨ أشكالاً مختلفة ومتنوعة من إحياء الذكرى الثمانين لميلاد المناضل اللاتيني الأممي اليساري الثوري الراحل الأرجنتيني الأصل إرنيستو تشي جيفارا الذي تحول منذ عقود، وخاصة بعد مصرعه خلال القتال في بوليفيا منذ حوالي ٤١ عاماً، إلى ما يشبه الأسطورة التي يختلط عند الحديث عنها الواقع بالخيال، وتتأثر الحكاية برؤية البشر عبر العالم لها أكثر مما حدث حقيقة على الأرض. وفي إطار هذه الاحتفاليات، في مصر على سبيل المثال تم عرض الفيلم التسجيلي المنتج مؤخرا «جيفارا عاش» والذي حاول معداه ومخرجه ربط جيفارا بخصوصيات النضال العربي من وجهة نظرهم. وجاء ذلك بعد عقود من أغنية الشيخ إمام عيسى الشهيرة «جيفارا مات»، ومسرحية الكاتب الكبير الراحل «ميخائيل رومان» في عقد الستينيات من القرن العشرين «ليلة مصرع جيفارا». وقبل ذلك، وفي الغرب كان قد عرض الفيلم الشهير «يوميات دراجة بخارية» الذي تناول السنوات الأولى من شباب جيفارا وتعرفه على العالم المحيط به في أمريكا اللاتينية وأوضاعها الاجتماعية وما اعتراها من ظلم وتمييز مما مهد لمرحلة لاحقة في حياته اتسمت بالثورية وقيادة حرب العصابات وتبني أطروحات راديكالية للتغيير. أما في اليابان، فقد أخذ إحياء هذه الذكرى شكلاً مختلفاً تركز في قيام ابنة جيفارا بزيارة لطوكيو وعدد آخر من المدن اليابانية وتحدثها في العديد من الاحتفالات التي أقيمت على شرفها وبمناسبة إطلاق الترجمة اليابانية من الكتاب الذي كتبته ونشر باللغة الإسبانية عن والدها وتضمن الخطابات المتبادلة بين والدها ووالدتها، علماً بأن الطبعة اليابانية



أرنست جيفارا (حوالي عام ١٩٢٩)



أرنست جيفارا (حوالي عام ١٩٣٠)

ستكون الطبعة الثانية بعد الإسبانية، وحتى قبل الطبعة الانجليزية. وفي خضم إحياء ذكرى ميلاد جيفارا في العاصمة اليابانية، نظم منتدى «هيلسايد» الفكري والثقافي المتميز ورشتي عمل بهذه المناسبة، تحدث فيهما مفكرون وكتاب ومثقفون وفنانون وسياسيون ونقابيون وناشطو مجتمع مدني، شبابا ونساء ورجالاً.

ومن وحي هذه المصادر، ومع الاستعانة بكتب ومقالات وأحاديث وذكريات وأفلام وثائقية أخرى ظهرت في اليابان عن جيفارا خلال الفترة الأخيرة ما بين إحياء الذكرى الأربعين لمصرعه والاحتفال بالذكرى الثمانين لميلاده، نعرض هنا لرؤى يابانية لسيرة هذا الرجل الأسطورة الذي صارت صوره وكتبه وخطبه مثار إعجاب الملايين عبر العالم، خاصة من الشباب، مع تعدد لغاتهم وثقافاتهم. وحتى إن لم يكونوا جميعا مدركين لتفاصيل دور جيفارا في التاريخ المعاصر للإنسانية، ولكنهم يعلقون صوره في غرف نومهم ومكاتبهم وعلى سياراتهم أو حتى دراجاتهم البخارية. وما زال جيفارا يمثل أيقونة عصر حتى الآن، وتعتبر صورته الأكثر انتشاراً في العالم، فهي ما زالت تطبع على القمصان، وتوضع على الأبنية، وترفرف على الرايات. بل ورسم لاعبو كرة قدم أرجنتينيون، بمن فيهم «دييجو مارادونا» و«هوان سباستيان بيرسون» وآخرون، وجه بطل وطنهم الأم جيفارا وشماً على أكتافهم. وفي دوري كرة القدم الياباني تطبع صورة جيفارا على أعلام تشجيع حمراء لفريق «أوراوا دياموند ريدز» أحد أكبر أندية كرة القدم اليابانية.

كانت ولادة «ارنيستو تشي جيفارا» في ١٤ يونيو ١٩٢٨، وهو الابن البكر لأبيه ارنيستو جيفارا لنتش وأمه سيليا دي لا سيرنا. وسمي الصبي، الذي كان منذ أبصر النور ينظر مباشرة في وجه أي شخص على خلاف أي رضيع آخر، ارنستو جيفارا دي لا سيرنا. وقد عانى جيفارا، ذو البنية الضعيفة بسبب ولادته المبكرة، من مرض رئوي بعد ولادته بخمسة وأربعين يوما. وأصيب بمرض «ربو تحسسي» في الثالثة من عمره، وبذل والداه الثريان كل ما في وسعهما لعلاجه.

ولم يكن والداه من النوع الذي يهتم بالعادات والمظاهر الاجتماعية. فقد كرها الإحساس بالتميز الطبقي لدى الأثرياء الأرجنتينيين وكذا التمسك بالقيم المحافظة، واختارا أن يعيشا حياة حرة وذات طابع عملي. كان الأب رجلا ليبراليا وكانت الأم امرأة متفتحة، وأنجبا جيفارا ورباه مدللا باسم «تيتي». وبالرغم من ذلك فإن الروح الصلبة التي زرعها صراع مع مرض مزمن، والتنقل بين عدة بيوت في طفولته المبكرة، شكلا إطار شخصية جيفارا وأثرا على طريقة حياته بقوة بعدئذ.

ومن المفارقات أن جيفارا اختار لاحقاً، برغم مرضه بالربو، أن يعيش في أماكن تتصف بدرجة عالية من الرطوبة، مثل الغابات، وهي العدو اللدود لمرضى الربو.

وقد دخل جيفارا مدرسة حكومية في عام ١٩٤١. وفي عام ١٩٤٦، تخرج جيفارا من المدرسة الثانوية في الثامنة عشرة من عمره. ولكنه لم يدخل الجامعة مباشرة. فلقد ظل جيفارا طوال حياته ممتنا للحب الشديد الذي تلقيه من أبويه والبيئة المريحة اقتصاديا التي تربى بها. ولكنه كان مصراً على ألا يعتاد هذا النعيم إلى الأبد.

وفي كل مرة كان يقوم

Ernesto GUEVARA (Che) 1963 - © Rene Burri . MAGNUM



في دوري كرة القدم الياباني تطبع صورة جيفارا على أعلام تشجيع حمراء لفريق «أوراوا دياموند ريدز» أحد أكبر أندية كرة القدم اليابانية

فيها جيفارا برحلة كان يسعى للتعرف على حقائق الواقع الاجتماعي المحيط به. كما كان يشعر أيضاً بإحساس بالذنب تجاه مجتمعه الذي كان يعاني أغلب سكانه من تدني مستويات المعيشة في مقابل بيئته المريحة من الناحية المادية. وهذا الشعور الذي يمكن وصفه بـ «مركب مضاد» أصبح هاجساً لديه طوال حياته، التي حاول خلالها وضع نفسه بإرادته في ظروف حياتية قاسية باختياره العيش قريباً من أفقر شرائح المجتمع.

وقد دخل جيفارا، الذي قرر أن يصبح طبيباً لمساعدة الضعفاء والفقراء، خاصة في ضوء تجربته الخاصة في المعاناة من الربو، كلية الطب في جامعة بوينس أيرس بالعاصمة الأرجنتينية في عام ١٩٤٨.

وفي ديسمبر ١٩٥١، حين بلغ من العمر ٢٣ سنة، قام جيفارا برحلة حول القارة الأمريكية الجنوبية على دراجات بخارية بصحبة صديقه الطبيب ألبيرتو جرانادوز، الذي كان عمره حينذاك ٢٩ سنة. كان طموحهما كبيراً لأنهما اعتزما عبور القارة الأمريكية الجنوبية بالتحرك شمالاً على امتداد الشريط الساحلي من المحيط الهادي بعد دخول تشيلي من الأرجنتين بالذهاب عبر «الأنديز» إلى الغرب، وفكروا في تمديد رحلتهما إلى القارة الأمريكية الشمالية طبقاً للتطورات. ولكن المال الذي كان بحوزتهما لم يكن كافياً، ولم يكونا على علم بتفاصيل الأماكن التي يتوجهان إليها. وبالرغم من نقص الإمكانيات المادية واللوجستية اللازمة للسفر، بدأ الاثنان رحلتيهما بدافع فضولهما القوي.

كانت تلك الرحلة أفضل مدرسة لجيفارا لما صادفه خلالها من تجارب مع رعاة بقر أشداء على مروج «بامبا» الوافرة العشب، وبحارة ودودين يعبرون البحر، وعمال مناجم في الصحراء يبحثون عن عمل، وسكان أصليين يمشون منحنية ظهورهم لإحساسهم بالفشل، ومرضى داء «هانسين» Hansen الذين يعيشون في الغابات. والتقى جيفارا ورفيقه وودعا أناساً أجبروا على العيش في ظروف قاسية لكنهم بالرغم من ذلك واجهوا الحياة بقوة. وكان لكل ذلك دور أساسي في تنشئة جيفارا وتربيته الفكرية.

وبعد عودته إلى الأرجنتين من رحلة استغرقت ثمانية أشهر، تخرج جيفارا من كلية الطب بعد سنة واحدة تقريباً. ومضى يبدأ رحلته الثانية فوراً، وفي رحلته تلك التي بدأها في يوليو ١٩٥٣، شاهد معارك بين بوليفيين وجواتيماليين مناهضين للولايات المتحدة وبين الدكتاتوريات القائمة في بلدانهم حينذاك. وبدأ إحساس الغضب ينمو لديه تدريجياً كمجرد مسافر شاهد على ذلك العصر. وخلال هذه الرحلة، قابل جيفارا المرأة البيروانية «إيلدا جاديا أكوستا» وتزوجها. وعندما عرفته «إيلدا» على الكوبي أنطونيو نيكو لوبيز، ناداه الأخير باسم «تشي»، ومنذ ذلك الحين أطلق عليه اسم «تشي جيفارا». وأصبح إرنيستو جيفارا دي لاسيرنا يعرف باسم «تشي» جيفارا وهو في الخامسة والعشرين من عمره.

و«تشي» هو اسم يطلق على لهجة منطقة قرطبة في الأرجنتين، وهي كلمة «رمزية» عندما يستخدمها الناس لمناداة شخص بطريقة ودية، وقيل أن جيفارا استعملها مراراً وتكراراً عندما كان يتحدث مع أصدقائه المقربين.

ظهر فيديل كاسترو، زعيم الكوبيين في المنفى في ذلك الوقت، في حياة جيفارا، الذي عاش في خطر بعد أن أصبح مصوراً جوالاً في المكسيك. وبعد اعتقاله لمسئوليته عن قيادة انتفاضة مسلحة فاشلة ضد الديكتاتور «باتيستا» حاكم كوبا حينذاك، وكان كاسترو حينذاك محامياً يبلغ من العمر ٢٧ عاماً. وسرعان ما خرج كاسترو من السجن في إطار عفو عام. في ذلك الوقت، كانت كوبا تحت نظام دكتاتوري عسكري بقيادة الجنرال «فورنهيشيو باتيستا»، وكانت الولايات المتحدة هي الحاكم الفعلي للبلاد من خلف الكواليس.

وفي مايو ١٩٥٦، دعا كاسترو جيفارا للانضمام إلى حرب التحرير الكوبية، وكان ذلك في نفس اليوم الذي التقيا فيه للمرة الأولى، وقرر جيفارا الذهاب مع كاسترو. وفي ٢٥ نوفمبر ١٩٥٦، أبحرت السفينة «جرانما» من المكسيك وعلى متنها ٨٢ رجلاً، لتصل إلى كوبا في ٢ ديسمبر بعد عبور البحر الكاريبي العاصف. ونجح حزب كاسترو وجيفارا، الذي تراجع عدد أعضائه إلى ١٢ فرداً فقط بعد هجمات قوات «باتيستا» عليه، في إيجاد عمق قوي له في جبال «سييرا مايسترا» الواقعة في المدخل الشرقي لكوبا، وفي إطلاق حرب عصابات من هناك.

وأصبح جيفارا، الذي انضجته كفدائي شجاع وصلد حرب ضد ٢٠ ألفاً من قوات «باتيستا»، واحداً من أبرز القادة. وحاز ثقة الكوبيين بعد انتصاره في قيادة المعركة في «سانتا كلارا». وهرب الجنرال «باتيستا» ومعاونوه إلى جمهورية الدومينيكان في الأول من يناير ١٩٥٩، بينما انهار النظام العسكري الحاكم في كوبا بعد استمراره لمدة سبع سنوات. وفي ٨ يناير من العام نفسه، دخلت الهيئة الرئيسية للقوات الثورية هافانا. وكان عمر كاسترو ٣٢ عاماً، بينما بلغ عمر جيفارا ٣٠ عاماً آنذاك.

ولم تنته الثورة عند هذا الحد، بل بدأت عندما قاتل جيفارا ورفاقه ضد باتيستا. لم يكن من السهل بناء دولة عادلة ومنصفة للشعب الكوبي، لكنه بالنسبة لجيفارا كان عملاً قيماً ومغامرة كبيرة تستحق التضحية. لقد عمل جيفارا، الذي أصبح زعيماً في مركز القلب من النظام الثوري الجديد في هافانا، بدون كلل وسهر الليالي من أجل كوبا جديدة وكان مستعداً لخدمة العمال والفقراء حتى في أيام العطلات. وكان موقف كاسترو وجيفارا ثابتاً ومنسجماً في أن الزعماء يتقدمون فقط في المقدمة عبر تكريس حياتهم لخدمة شعوبهم.

وبعد انتصار الثورة الكوبية بستة أشهر تقريباً، كان زواج جيفارا الثاني، وهذه المرة من «آليدا مارويسي»، وجاء ذلك بعد أن استلمت زوجته الأولى «إيلدا» ورقة طلاقها في المكسيك، حيث تزوجت هناك فيما بعد. وبالرغم من أن حب جيفارا لزوجته الثانية كان عارماً منذ التقيا لأول مرة في «سانتا كلارا»، فقد كان للزوجين الجديدين القليل من الوقت المتاح. فبعد عشرة أيام من مراسم زفاف عادية مع «أليدا»، توجه جيفارا في جولات أخذته إلى أفريقيا، والشرق الأوسط، حيث زار مصر والتقى بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وآسيا كسفير نوايا حسنة بطلب من كاسترو. وفي إطار جولته الآسيوية، زار جيفارا اليابان في ١٥ يوليو ١٩٥٩، وكانت رحلة بغرض اكتساب المعارف والأفكار من الأمم الأخرى لإعادة بناء كوبا، حيث كان يقوم من الناحية العملية بدور وزير الخارجية.

وعلى الصعيد الداخلي في كوبا اتسمت المرحلة بالثورية، حيث صادر كاسترو الأراضي من كبار الملاك الزراعيين، وألغى الاعتراف بحقوق الطبع والنشر والتأليف باعتبارها حقوقاً رأسمالية تكرس الاستغلال، وجمد الأصول الأمريكية ثم أممها. واتخذت الولايات المتحدة إجراءات مضادة بغرض حصار اقتصادي ضد كوبا، التي أصبحت دولة اشتراكية على مرمى حجر من الحدود الأمريكية. وما لبثت واشنطون أن قطعت العلاقات مع هافانا. وحدث ذلك وسط أجواء الحرب الباردة بين الشرق والغرب، حيث كان عصر تنافس وصراع بين المعسكر الشرقي الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفيتي السابق والمعسكر الغربي الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، بما في ذلك التنافس في مجال سباق التسلح.

وفي ٥ مارس ١٩٦٠ غرقت سفينة الشحن «لا جوبرو» بفعل عمل إرهابي في ميناء هافانا، وأقيمت مراسم الحداد على الضحايا حيث ألقى كاسترو خطاباً، وحضر المراسم جيفارا بالطبع، وكذلك كل من الفيلسوف الوجودي الفرنسي الراحل «جان بول سارتر» وصديقته الكاتبة الفرنسية «سيمون دي بوفوار».

وكانت كوبا، التي دخلت في عداء صريح مع الولايات المتحدة، قد اضطرت للاعتماد على مساعدة الاتحاد السوفيتي. وفي عام ١٩٦٢، حدثت «أزمة الصواريخ في كوبا» عندما اكتشف الأمريكيون نشر الاتحاد السوفيتي صواريخ في كوبا. واستمر التوتر، الذي حمل في طياته خطر اندلاع حرب عالمية ثالثة، لمدة أربعة أيام، لكن الأزمة انتهت بعد محادثات سرية بين الزعيم السوفيتي حينذاك «خروتشوف» والرئيس الأمريكي «جون كنيدي». وتولدت لدى جيفارا شكوك حول طبيعة الصفقة التي تمت بين القوتين العظميين لتفادي التوتر، وهو الأمر الذي أدى تدريجياً إلى نشأة عدم ثقة بالاتحاد السوفيتي السابق لدى جيفارا.

ففي فبراير ١٩٦٥، انتقد جيفارا الاتحاد السوفيتي بشكل صريح في مؤتمر دولي عقد في الجزائر ووصفه بأنه يتصرف كقوة إمبريالية لأنها كقوة عظمى، حتى وإن كان أمة اشتراكية، تفرض رأيها من طرف واحد على بقية القوى الاشتراكية في العالم. وأحرج تصريح جيفارا كاسترو، الذي كان يريد تفادي إثارة استياء الاتحاد السوفيتي من القيادة الكوبية في ذلك الظرف التاريخي الصعب لهافانا.







وبعد عودته من جولاته الخارجية، عقد جيفارا لقاءات مطولة مع كاسترو قرر على أثرها مغادرة كوبا وتركها لصديقه اللدود كاسترو وللشعب الكوبي، ولهدف محدد، ألا وهو تنفيذ أفكاره الداعية لتحرير وتوحيد أمريكا اللاتينية بأكملها.

وقد اختار جيفارا الكونغو في أفريقيا مكاناً لنشاطاته الجديدة، لكن المنطق والمنهج اللذين زرعهما جيفارا هناك لم ينجحا، فانتهى مشروعه إلى الفشل. وبعد عودته إلى كوبا من إحدى جولاته الخارجية، تسلل جيفارا إلى بوليفيا في نوفمبر ١٩٦٦، واختار بوليفيا لأنها تقع وسط قارة أمريكا الجنوبية، ومجاورة لخمس دول. وكان تصور جيفارا أن وهج النضال سينتشر في مختلف أرجاء القارة اللاتينية إذا أسس قاعدة صلبة لنشاطات حرب عصابات هناك.

وبعد حوالي ١١ شهراً من بدء جيفارا قيادة نشاطات فدائية في بوليفيا، قتله جنود القوات الرسمية البوليفية رمياً بالرصاص بعد ظهر ٩ أكتوبر بعد أسره في معركة «وادي تشولو» في ٨ أكتوبر ١٩٦٧، وكان عمره حينذاك ٣٩ عاماً. ولأن القوات الرسمية البوليفية أبقت مكان قبره سراً خشية أن يتحول إلى مزار مقدس، فقد استغرق الأمر ٣٠ سنة حتى تم الكشف عن رفاته. وفي ١٢ يوليو ١٩٩٧، استقبلت كوبا بأكملها رفاته استقبال الأبطال، التي استعيدت للمرة الأولى بعد ٣١ سنة. وترقد رفاته بهدوء في ضريح في مدينة «سانتا كلارا».

وفي بوليفيا رافق المثقف الفرنسي «ريجيس دوبريه» تشي جيفارا وفرق المقاتلين في حرب العصابات، ودفع الثمن بعد ذلك عندما حكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين عاماً بعد اعتقاله بواسطة القوات الحكومية البوليفية. ولكن مساعي لإطلاق سراح «دوبريه» أسفرت عن الإفراج عنه، وبعد سنوات طويلة صار «دوبريه» مستشاراً للرئيس الفرنسي الاشتراكي الراحل «فرانسوا ميتران». ورغم مشاركة «دوبريه» في المعارك في بوليفيا، فإنه يبدو أنه حاول مغادرة المقاتلين هناك، حتى أن تشي جيفارا كتب في مذكرته: «أن هذا الرجل الفرنسي يحاول ترك الفدائيين بأسرع ما يمكن، وسأدعه يذهب»، حيث كان «دوبريه» عديم الخبرة بحرب العصابات، وكانت طبيعة المعركة على ما يبدو مختلفة عن النمط المعتاد للمثقفين الفرنسيين في ذلك الوقت. وقد ألف «دوبريه» لاحقاً كتاباً بعنوان «الثورة داخل الثورة» عن كوبا، وظهر منه جلياً مدى إعجاب «دوبريه» بجيفارا، وتقديره له لدرجة أنه ذهب إلى بوليفيا عندما علم أن جيفارا هناك، ولكنه بات على قناعة بأن جيفارا لن يكون قادراً على السفر إلى خارج بوليفيا حياً، وأنه إذا تعرض للقتل في بوليفيا، فإنه سيمجد كشهيد.

ومن جهة أخرى، فإن كلا من المصور الكوبي «ألبرتو دياز جيتيريز» الشهير بـ «كوردا» والإيطالي «فيلتورينيري» هما صاحبا الفضل في نشر أشهر الصور والملصقات عن تشي جيفارا في مختلف أنحاء العالم، وذلك بعد أيام قليلة من وفاة جيفارا. ومن أطرف هذه الملصقات ورقة نقدية بقيمة خمسة دولارات عليها وجه تشي جيفارا مع ابتسامة. وأدى نشر صور جيفارا إلى شعور عميق بالألم لدى الملايين عبر العالم، إلى درجة أن بعضهم شبه نظراته الأخيرة بنظرات السيد المسيح، مما أوحى لهم بأن جيفارا ذو قوة غامضة وسيعود إلى الحياة من جديد ومنحته قدراً هائلاً من الخلود. وعقب وفاة تشي جيفارا، أقبل المعجبون به، خاصة من الشباب، على شراء أعلام عليها صوره، وساعات يد تحمل اسمه وصورته، بما في ذلك في محلات في كوبا يستطيع الناس شراء سلع أجنبية منها.

أما عن صورة تشي جيفارا في عيون أصدقائه، فلا شك أنه جذب الأصدقاء إليه، وقد قام الكاتب الياباني «جيوجاتو توى» بعقد عدة مقابلات مع عدد من أصدقاء ومساعدي «جيفارا». كان أول اللقاءات في مقهى يطل على البحر عبر نافذة زجاجية كبيرة في فندق في هافانا مع الطبيب «ألبرتو جرانودوز» الذي رافق جيفارا الشاب في أولى رحلاته الخارجية، وعلق «جرانودوز» بالقول بأن «تشي أبداً لم يمت». وأضاف أنه بعيداً عن حالات الشذوذ، فمن الوارد أن يحب رجل رجلاً آخر من منطلق صداقة وأخوة حميمة. وروى أوقاتاً صعبة عاشها مع جيفارا، واستذكر أنه بعد ست سنوات من العودة من الجولة الخارجية الأولى لجيفارا، تلقى رسالة منه تقول: «أرجو أن تأتي فوراً، نحن بحاجة لأطباء ومعلمين». واعتبر «جرانودوز» الدعوة جذابة، واعتقد أنها قد تكون مغامرة كبيرة جديرة بتكريس كل طاقاته لتأسيس بلد مثالي سوياً مع جيفارا. فتخلى «جرانودوز» الذي كان طبيباً ناجحاً عن حياته في فنزويلا بدون تردد، وتوجه الى كوبا مع زوجته وأطفاله. ويقول «جرانودوز» ان التجربة كانت قاسية جداً، لكنه وجيفارا عملا ليل نهار وبذلا جهوداً مستميتة لجعل كوبا أمة تسير على الطريق الصحيح. ويرى «جرانودوز» أن تشي جيفارا كان يجمع بين الهدوء والحرارة معاً، ولا يوافق على جعل جيفارا مؤلهاً أو أسطورة، ولكنه يقر أنه كان رجلاً مختلفاً كلية عن اى رجل آخر. ويركز «جرانودوز» على ابراز عناد جيفارا في متابعة تنفيذ ما يحدده من أهدافه، وكذلك تميز مستوى ذكائه. ويرى «جرانودوز» أن «فترة حياته بجوار جيفارا كانت سوية، حيث كانت حياة بسيطة وحقيقية لوجود صديق بجواره».

وبالإضافة إلى «جرانودوز»، فهناك ثلاثة رجال كوبيين يمكن تسميتهم «مثلث أصدقاء جيفارا»، لم تتزعزع صداقتهم له بعد واحد وأربعين عاماً على مصرعه، وهم: «هاري فيليجاس تامايو» (كان اسمه الحركي كمقاتل «بومبو») الذي أصبح مقاتلاً وهو في الخامسة عشرة من عمره، وشارك في أنشطة مع جيفارا، ثم غادر كوبا متوجهاً إلى بوليفيا بعد الثورة. والثاني هو «أورلاندو بوريجو» الذي عمل ليل نهار كمساعد لجيفارا بعد الثورة. أما الثالث فهو الطبيب «عمر فرنانديز» والذي كان يصغر جيفارا بعامين وسافر معه كنائب لسفير النوايا الحسنة.

ويتذكر «تامايو» جيداً تفاصيل لقائه الأول مع جيفارا منذ نصف قرن تقريباً. ولم يكن «تامايو» يعرف القراءة والكتابة في ذلك الوقت، ولذا أجبر على دخول مدرسة لمحو الأمية أسسها معسكر القوات الثورية. ويستذكر «تامايو» اهتمام تشي جيفارا الشديد بالتعليم، كما يستحضر ما قاله له جيفارا بأنه لتحقيق تقدم الثورة لا يجب تعلم إطلاق النار فقط، بل على الفدائيين أن يكونوا مصلحين اجتماعيين، لذلك يجب أن يتعلموا أشياء مختلفة، وينشأوا ويتطوروا كبشر. وأكد جيفارا أن الثوار ليسوا مخربين بل بناة، ويتعين عليهم تحري الحذر لتجنب ارتكاب الأخطاء. ويشير «تامايو» إلى مغادرته كوبا إلى بوليفيا، حيث طرح عليه فيديل كاسترو السؤال عما إذا كانت لديه نية للذهاب إلى بوليفيا بصحبة تشي جيفارا. وبالرغم مما كان قائماً من خلاف بين «تامايو» وتشي جيفارا حول عدة قضايا، فإن «تامايو» كان متيماً بعقيدة أممية تدفعه لتقديم المساعدة إذا طلبها شعب آخر، وكان القرار بشأن الذهاب مع جيفارا يعود لـ «تامايو» نفسه بإرادته الحرة، وكان يمكنه الرفض، لكنه اختار الذهاب إلى بوليفيا مع تشي جيفارا، ولم يندم أبداً على هذا الاختيار.

أما الصديق الثاني لجيفارا «بوريجو» فكان شاهداً على العلاقات بين جيفارا وكاسترو في مرحلة مبكرة من الحرب الثورية، ويذكر أن كاسترو كان يعتقد أن جيفارا شجاع وجريء بأكثر من اللازم أحياناً، ولذا كثيراً ما كان يتعرض في تلك الفترة بعدم الارتياح تجاه ذلك. وعندما أصبح جيفارا قائداً لمجموعته نبهه كاسترو إلى ضرورة أن يتصرف بدرجة أكبر من الحذر. ويشير «بوريجو» إلى أنه بعد الثورة، لم يكتف جيفارا بأداء واجباته الرسمية فقط، بل كان يتطوع أيضاً للعمل في بعض أيام العطلات. فقد كان لدى جيفارا قناعة راسخة ودائمة بأن على القائد اتخاذ المبادرة وتكريس نفسه لخدمة شعبه في أي موقع.

ويستذكر «بوريجو» أنه في أحد الأيام وبعد عمل متواصل لأيام متتالية لعدة سنوات، أخبر تشي جيفارا مساعديه أنهم يعملون بكد وتعب، لذا دعاهم للانتهاء من العمل في اليوم التالي عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، مما أثار بهجة مساعديه وتطلعهم إلى قليل من الراحة والاستمتاع بالحياة. ولكن هذه الفرحة لم تكتمل فقد وردت مكالمة هاتفية لتشي جيفارا، وعلى أثرها طلب من «بوريجو» الاستعداد للمساهمة في جني محصول قصب السكر في اليوم التالي بدءاً من الرابعة صباحاً! ويضيف «بوريجو» أنه يتذكر لقطات تتعلق بجيفارا عدة مرات في اليوم الواحد، وأنه عندما لا تكون الأمور على ما يرام وتوجد مشكلة أمامه، فإنه يتذكر تشي جيفارا ويفكر في كيفية تصرف جيفارا حيال هذه المشكلة، فما زال جيفارا يمثل دليل حياته، وبالنسبة له فإن جيفارا لم يمت أبداً.

أما الصديق الثالث «فيرنانديز» الذي جاب العالم مع جيفارا مساعداً له أيام شبابه، فيروى أنه خلال زيارة تشي جيفارا لمصر أقام

سيعيش تشي جيفارا إلى الأبد كرمز لفقراء العالم ومهمشيه الباحثين عن العدل والإنصاف، طالما بقي الظلم قائماً

معه في غرفة واحدة بناء على طلب جيفارا، بالرغم من أن الحكومة المصرية وفرت لهما غرفتين منفصلتين في مصر. وكان جيفارا يمضي الليل ليتحدث لرفيقه حتى الصباح حول قضايا ومشاغل ومخاوف تهمه، كإنسان وكمسئول عن عائلة وكرجل حول أسلوب حياته وآماله. وبعدما انتهى جيفارا من الكلام ذكر لرفيقه أن ما ناقشاه طوال الليل يجب أن يبقى سراً، مؤكداً أن أسرار أصدقائه ستذهب معه إلى القبر دون أن يبوح بها، ومعتبراً أن هذا من مقتضيات الصداقة ومتطلباتها. وعندما سئل «فرنانديز» عن افتراض أنه إذا كان جيفارا مازال حياً حتى الآن ودعاه للقيام برحلة خارجية فهل سيلبي دعوته، أكد بلا تردد أنه كان سيفعل ذلك بدون التفكير في أي شيء آخر.

وبالإضافة لأصدقاء جيفارا ورفاقه، فهناك خواطر مزارع بوليفي، يدعى «مانويل»، صادف جيفارا وآخرين من رفاقه أثناء أحد المهرجانات. ويصف تلك التجربة بأنها بدأت بالخوف نظراً للدعاية التي كانت الحكومة البوليفية ٦٣ قحلسلا اهتاوقويتها عن الثوار وتصفهم بأنهم «شياطين السرقة والقتل». لكن سرعان ما تبين له أنهم ليسوا أشراراً، حيث أكد جيفارا للمواطنين أن الثوار لن يؤذوهم بل جاءوا ليكافحوا من أجل الفقراء ولذا يجب ألا يخافوا منهم. وطلب جيفارا عزف موسيقى فولكلورية تسمى «كويكا» وقام للرقص على أنغامها ودعا رفاقه ثم بعض الأطفال للانضمام إليه ووزع قوالب سكر على الجميع.

وكان منزل الفلاح «مانويل» يقع بجوار المدرسة التي قتلت فيها القوات البوليفية جيفارا. وفي ذلك اليوم، دخل «مانويل» المدرسة بعد سماع صوت طلقات رصاص، وهناك وجد جسد جيفارا ملقى في حمام وغارقاً في دمائه. واعتبر «مانويل» أنه بالرغم من أنه لا مفر من الموت في الحرب، فإن قتل رجل رمياً بالرصاص وهو مغلول اليدين والقدمين كان فعلاً جباناً. وعندما نظر «مانويل» إلى جثة جيفارا الهامدة، تمنى لو كان هو ومواطنوه قد قابلوا جيفارا وعرفوه مبكراً، فلربما لم تكن قد حدثت هذه المأساة غير القابلة للإصلاح، وكان من المؤكد أن الفلاحين وجيفارا كانوا سيكونون أصدقاء.

ولا يمكن التحدث عن أصدقاء جيفارا ورفاقه دون التحدث عن صديقه الأبدي فيدل كاسترو. ففي ٤ ديسمبر ٢٠٠٢، فعندما قابل الكاتب الياباني «توي» الرئيس فيدل كاسترو في قصر الثورة في هافانا وسمه كتابه عن حياة تشي جيفارا، وقال له أنه سافر إلى أماكن كثيرة على دراجة بخارية عندما كان يعد الكتاب. وبينما كان كاسترو يحدق في وجه جيفارا المرسوم على الغلاف الأمامي للكتاب، تذكر أن جيفارا أيضا كان يسافر على دراجة بخارية عندما كان شاباً، وظهرت على وجهه تعبيرات شخص أحب صديقاً قديماً ويشعر بغيابه. وعندها أيقن الكاتب الياباني أن الصداقة بين كاسترو وجيفارا استمرت حية. ففي ١٧ أكتوبر ١٩٩٧، ألقى كاسترو الخطاب التالي في مراسم الحداد عند استعادة رفات جيفارا من بوليفيا إلى كوبا:

«نأتي هنا لنرحب لا لنودع تشي ورفاقه. تشي عملاق الأخلاق، إن الوجود الإنساني النقي مثله، والجدير بالاحترام الحقيقي، يبرز بشكل واضح في العصر الحالي حيث يسود السياسيون الفاسدون والمنافقون. ولو تحقق هدف تشي، لكان العالم اليوم مختلفاً وأفضل».

ولا شك أنه إذا كان القاتلون يموتون، فإن الأفكار لا تموت. فسيعيش تشي جيفارا إلى الأبد كرمز لفقراء العالم ومهمشيه الباحثين عن العدل والإنصاف، طالما بقي الظلم قائماً. حيث كان ما دفعه وحركه إلى الأمام هما الانتماء الإنساني والرغبة في تحقيق العدالة، ورفض أن يلطخ قناعاته بالفساد ودفع ثمن هذه القناعات بشجاعة ودون ندم. وكل هذا أثار هذا الإعجاب العارم والمستمر به عبر العالم، رغم أنه بعد واحد وأربعين عاماً على مصرع جيفارا، لم يتحقق حتى الآن الهدف المثالي، وربما النبيل، الذي سعى إلى تحقيقه مخاطرا بحياته، ألا وهو العدالة، بل إن العالم طبقاً لكثيرين أصبح مكاناً أكثر ظلماً وسوداوية عما كان في زمن جيفارا. وبالتالي، ينظر هؤلاء اليوم بشوق إلى وجود جيفارا بينهم ويعتبرون هذا الوجود ضرورياً نظراً لأنه رجل المبادئ، بل إنه بالنسبة لهؤلاء فإن جيفارا ما زال حياً. وبين الذين عاشوا في القرن العشرين، ربما كان تشي جيفارا هو الرجل الأكثر شهرة وحيازة على الحب في العالم. وقد قال عنه «جون لينون» بطل فرقة البيتلز الغنائية الشهيرة «إنه أذكى رجل في العالم»، بينما وصفه الفيلسوف الفرنسي الوجودي «جان بول سارتر» بأنه «الإنسان الأكثر مثالية في العالم».

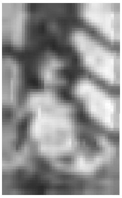
أما الروائي الياباني «تورو ميوشي» فقد ذكر أن العديد من الثورات قد حدثت في القرن العشرين، ولكن يمكن القول أنه لم يكن هناك مثل جيفارا. ففي كل الثورات يناضل الثوار حتى إنجاز الثورة مخاطرين بحياتهم، ولكن عندما تنجح الثورة، يتحدرون الى الصراع على السلطة مع أعداء جدد، وبكلمة أخرى، يسعى الرفاق السابقون، مثل القيادات السوفيتية السابقة، للحصول على الامتيازات والاستمتاع بحياة رغيدة. لكن وحده جيفارا كان مختلفاً، فكان يراجع تصرفاته بحجم انسجامها مع قناعته بأن مصير الثوري الحقيقي هو واحد من اثنين: الموت في سبيل قضيته أو النصر. وبالتالي، عاش وتصرف جيفارا على طريقة الأبطال بما عجز الآخرون عن مجاراته فيها، كما اتصف برومانسية جذبت الناس إليه بشدة.

وقد ملأ جيفارا الأمل في تحرير بلدان أمريكا الجنوبية من استغلال الولايات المتحدة لها ولبناء مجتمع عادل، كان ممتلئاً بالغضب من الظلم والنفاق، وحالماً بعالم مثالي. ويواصل «تورو ميوشي» روايته عن تشي جيفارا مشيراً إلى أنه بعد نجاح الثورة الكوبية، وبينما أدى جيفارا مهام سياسية كوزير للصناعة، كان يصر على القيام بأعمال يدوية مثل الخروج في ساعات الصباح الأولى للمساهمة في حصاد قصب السكر، كما كان يعمل في المصانع حتى وقت متأخر من الليل، ويستذكر الكاتب الياباني مقولة جيفارا «ما لم يتصرف من يدعي أنه ثوري بشكل صحيح، فإنه ليس سوى شخص انتهازي». وبإصراره على تبني هذا المسلك، تصرف جيفارا وفقاً لصورة الثوري المثالي التي رسمها لنفسه.

ويوضح «تورو ميوشي» أن هدف جيفارا كان إدراك عالم عادل وحقيقي بلا زيف. وحتى بعد نجاح الثورة الكوبية، لم ينته عمله، وخرج يبحث عن ميدان قتال جديد وعن أرض ثورة جديدة. فأخفق في الكونغو، وأخيراً قتلته رصاصات في بوليفيا. وكان جيفارا محباً للسيجار والنساء والكتب والتصوير، وتصرف مثل الرجال الكبار تاركاً جاذبية السلطة ومناصب الحكومة الرفيعة ساعيا وراء هدف مثالي آخر. وقد يفكر من يسمى بـ «الواقعيين» في جيفارا، الذي سقط في منتصف الطريق، باعتباره مثاليا لا يمكن أن تصبح أحلامه حقيقة في هذا العالم، فمن المحال أن يختفي الظلم والزيف من العالم. ولكن يوجد لدى نفس هؤلاء الواقعيين شعور بالذنب في مكان ما داخل قلوبهم، إنهم يحسدون جيفارا، وهو الذي عاش حياته أميناً مع نفسه باتجاه تحقيق هدف مثالي بدون التخلي عنه حتى آخر لحظة. ولهذا أصبح إرنيستو تشي جيفارا محبوبا إلى الأبد. ويتوق الكثير من الناس إلى مبادئه ويعتبرونه حيا.

وكان «كوندو أكيتوشي» هو المصور الياباني الوحيد الذي التقط صورا لتشي جيفارا، بل الصورة الملونة الوحيدة في العالم لجيفارا وكاسترو، بحيث أصبح جيفارا مشهوراً في اليابان بعد مصرعه. ويقول «كوندو أكيتوشي» أنه عندما نجحت الثورة الكوبية في عام ١٩٥٩، كان كاسترو مشهوراً، لكن ما من أحد في اليابان كان يعرف جيفارا. وزار «كوندو أكيتوشي» كوبا عام ١٩٦٣ للمرة الأولى، بناء على إعلان الحكومة الكوبية في سبتمبر ١٩٦٢ عن تنظيمها لمسابقة تصوير فوتوغرافي دولية إحياء لذكرى الثورة الكوبية. ووجهت الدعوة لمشاركين من كافة أنحاء العالم، وكان مقررا دعوة الفائزين في المسابقة إلى كوبا في عيد الثورة في الأول من يناير ١٩٦٣، على أن يسمح لهم بالإقامة هناك لمدة شهر كامل لالتقاط الصور. وقد دخل المصور «كوندو أكيتوشي» المسابقة بصور تركز على المعارضة اليابانية ضد توسيع القاعدة الأمريكية في «تاشيكاوا» في أطراف طوكيو. وكان «كوندو أكيتوشي» ضمن الفائزين العشرة في المسابقة.

إلا أن أزمة الصواريخ الكوبية اندلعت في أكتوبر ١٩٦٢، ونسي المصور الياباني موضوع المسابقة، وفجأة اتصلت به السفارة الكوبية في طوكيو وطلبت منه الحضور في أبريل ١٩٦٣، حيث دعوه لزيارة كوبا لشهر واحد. وسلموه تذكرة للسفر عن طريق أوروبا بحيث يتزامن تواجده مع احتفالات عيد العمال. وبالفعل وصل إلى هافانا يوم ٣٠ أبريل ١٩٦٣. ولكن فيديل كاسترو لم يكن في هافانا في ذلك الوقت لأنه كان مدعواً لزيارة موسكو بمناسبة عيد العمال. وشعر المصور الياباني بخيبة الأمل وساده


اعتقاد بأنه لن يتمكن من رؤية كاسترو ولقائه. ومضى «كوندو أكيتوشي» يلتقط صوراً في أماكن مختلفة في كوبا لمدة شهر تقريباً، وكانت أول صورة التقطها لجيفارا عندما التقط صورة لرجلين يقفان على رصيف في احتفال عيد العمال، ولم يكن يعرف أن هذا الرجل هو جيفارا، ولكن أحد من شاهدوا الصورة ذكر له أن هذا هو تشي جيفارا الشهير.

وقبل أيام من مغادرة كوبا، أخطرت وزارة الخارجية الكوبية المصورين أن فيديل كاسترو عاد إلى هافانا وسيلقي خطاباً متلفزاً في اليوم التالي وسيتمكن من لقاء المصورين مما جعل شعوراً بالسعادة يسود لدى المصورين. وفي اليوم المحدد، ذهب المصورون إلى استوديو تليفزيوني وتم استقبالهم بشكل حماسي. وفي مقاعد المشاهدين، اصطف زعماء الثورة الكوبية ليأخذوا مقاعدهم. وكان جيفارا جالساً في الصف الأمامي. وبينما كان «كوندو أكيتوشي» يلتقط الصور، نظر له في البداية جيفارا باشمئزاز، ولكنه سرعان ما نظر إليه مجدداً وهو يتابع التقاطه الصور بهمة. وتولد لدى المصور الياباني انطباع أن جيفارا بدأ ينظر إليه كرجل متأثر في عمله.

وبعد انتهاء خطاب كاسترو، نهض جيفارا وتوجه إلى المنصة ليتحدث مع كاسترو لمدة عشرين دقيقة تقريباً. وأعد «كوندو أكيتوشي» الكاميرا مقترباً منهما بذهول، ولم يحاول أحد إيقافه، مما جعله يلتقط العديد من الصور لهما. ومن هذه الصور أربع نشرت في اليابان بعد ذلك. كما نشرت بعض هذه الصور في مجلد صور لجيفارا صدر في اليابان، بجانب شرائط خطبه المسموعة والمرئية وأفلام وثائقية صدرت عنه جميعها في اليابان ما بين الذكرى الأربعين لمصرعه والذكرى الثمانين لميلاده. ولاحقاً، عرضت إحدى تلك الصور على طول جدار مبنى من خمسة طوابق لوزارة الدفاع الكوبية. وظهرت تلك الصورة، التي ظهر فيها كاسترو وجيفارا في حديث جدي وجهاً لوجه عدة مرات بعد ذلك في مطبوعات كوبية. وكما أصبح جيفارا رمزاً تاريخياً، كذا أصبحت صور «كوندو أكيتوشي» رموزاً تاريخية أيضاً. وبشكل خاص الصورة الملونة التي ما زال أصلها الوحيد بين يدي المصور الياباني، وهي الصورة الملونة الوحيدة المتبقية في العالم التي تعرض لقطتين لجيفارا وكاسترو معاً.

ولكن ماذا عن الصلة بين تشي جيفارا واليابان؟

كما ذكرنا من قبل، فلقد زار جيفارا اليابان في ١٥ يوليو ١٩٥٩، بصفته سفير نوايا حسنة مرسلاً من كاسترو بعد انتصار الثورة الكوبية في محاولة لتأسيس علاقات صداقة مع كل دول العالم ولإجراء محادثات معهم حول ترويج التجارة وأغراض أخرى. وكان قد غادر هافانا في ١٢ يونيو، وزار الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا المتحدتين في ذلك الوقت)، وسيلان (سريلانكا الآن)، الهند وبورما (ميانمار الآن) قبل وصوله إلى اليابان. وكانت وسائل الإعلام اليابانية في ذلك الوقت إما غير مبالية أو مستهجنة لزيارة البعثة الكوبية.

وعلى سبيل المثال، كان العنوان البارز لمقال غطى أنشطة البعثة نشرته صحيفة «أساهي شيمبون» اليومية اليابانية الأكثر انتشاراً في ٢٧ يوليو هو «كاسترو ذو الشوارب يزور طوكيو» واستهل المقال بالقول: «رمز شعبي جديد يضاف إلى كوبا المشهورة بالسكر ورقصة المامبو». وبالإشارة إلى وصول البعثة، قالت الصحيفة: «وصلت عدة نسخ (!) من كاسترو بالشوارب إلى طوكيو في طائرة مقاتلة خضراء، وهم الرائد ارنيستو تشي جيفارا وحاشيته كمبعوث خاص لرئيس الوزراء كاسترو بعد زيارة مصر والهند». وصور المقال البعثة كمجموعة مصغرة مستنسخة من كاسترو، وتعاملت مع جيفارا والآخرين كأنهم متطابقون. وبالرغم من أن مقال جريدة «أساهي» جاء ليسخر منهم، فقد كانت الأفضل لأنها على الأقل اهتمت بهم، فالعديد من الصحف الرئيسية في اليابان لم تنشر أية تقارير عن البعثة الكوبية.

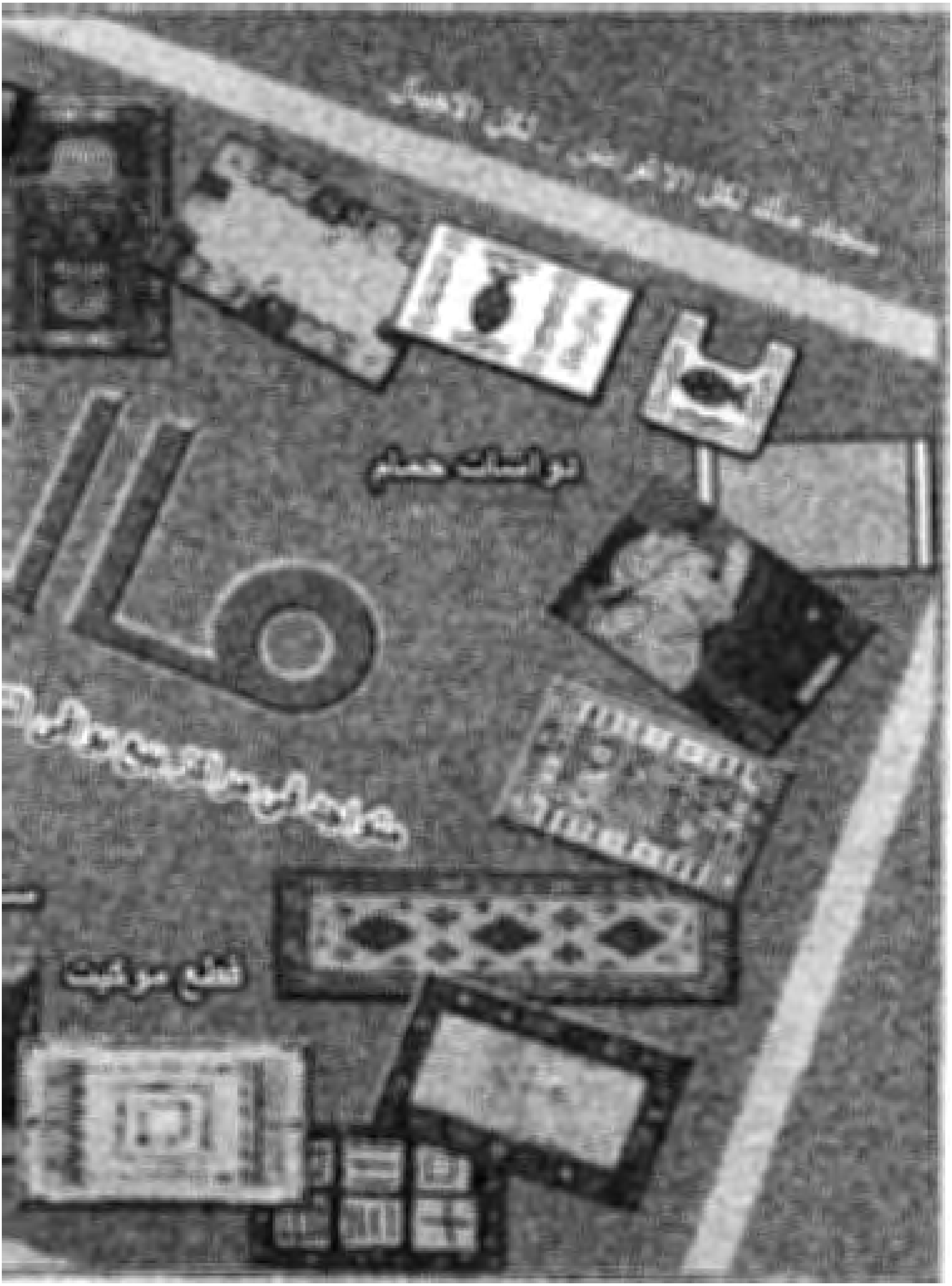
كما أن الوزراء وكبار مسئولي الحكومة اليابانية الذين أجروا محادثات مع جيفارا كانت توجهاتهم إزاءه تتسم بالبرود أيضاً. وبرغم دعوتهم لشراء السكر الكوبي بأسعار منخفضة، فلم تتصف إجابات الجانب الياباني للبعثة الكوبية بالطابع الإيجابي. ودعا وزير التجارة والصناعة الياباني آنذاك «هاياتو ايكيدا» (والذي أصبح فيما بعد رئيساً للحكومة) جيفارا إلى الفندق الإمبراطوري لاجتماع لمدة ١٥ دقيقة، وبالفعل غادر الوزير الياباني الفندق بعد ١٥ دقيقة تماماً. وبالرغم من ذلك، وللبحث عن أفكار للتجارة الثنائية مع اليابان، واعتماد نموذج اليابان، تلك الأمة الجزيرة المتقدمة في الشرق الأقصى، التي كانت تحاول أن تصبح دولة صناعية رائدة بعد خروجها مدمرة من الحرب العالمية الثانية، وللترويج للصناعة الكوبية، زار جيفارا أماكن مختلفة بشكل اتسم بالنشاط أثناء إقامته في اليابان.

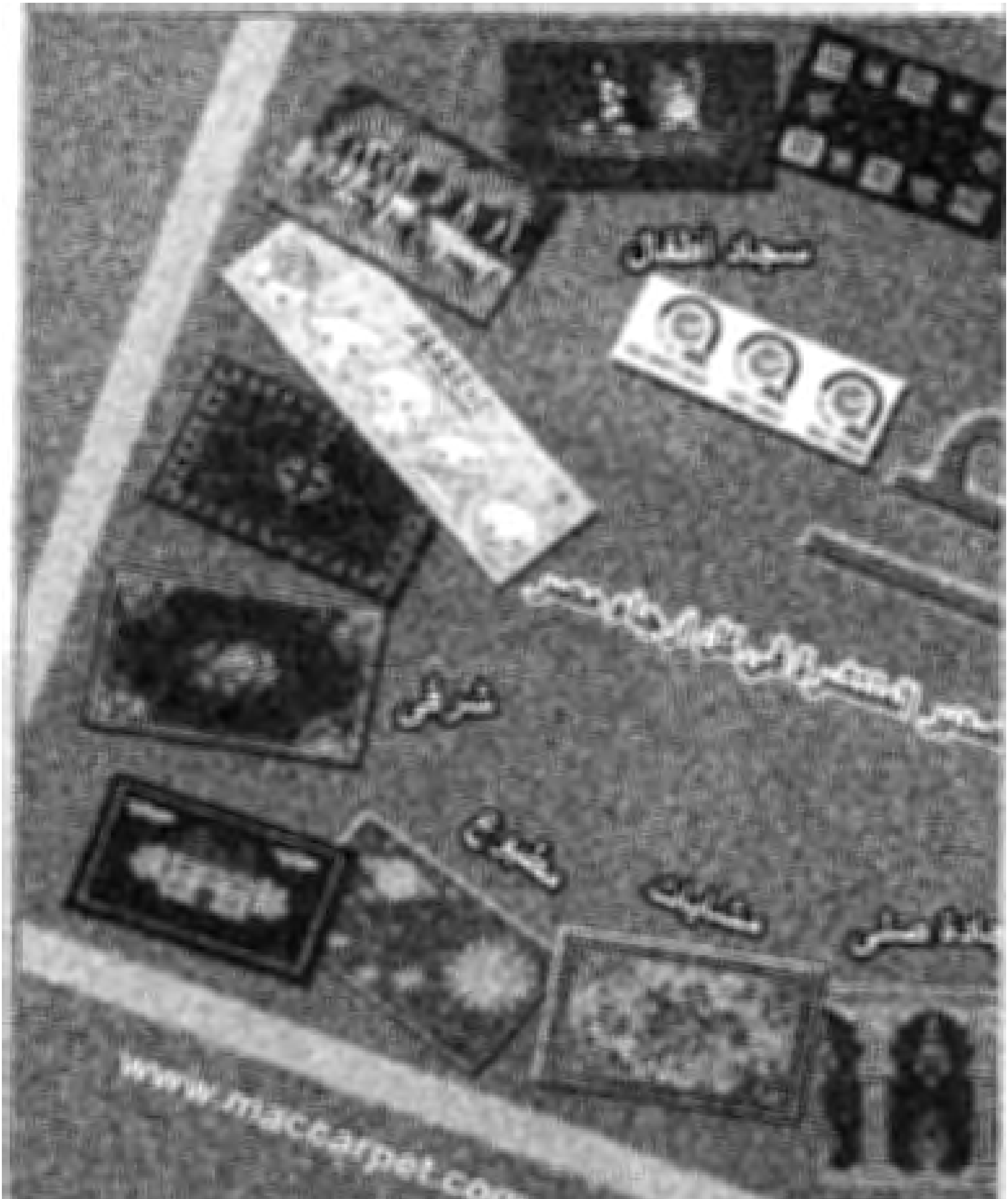
وقد نشر المؤلف الياباني «تورو مايوشي»، الذي أشرنا إليه آنفاً، تقريراً مفصلاً عن أنشطة جيفارا في اليابان في طبعة مايو ١٩٦٩ من المجلة الشهرية «بونجي شونجيو». وطبقاً للتقرير، على سبيل المثال، زارت البعثة الكوبية صباح ٢٣ يوليو خطوط إنتاج الشاحنات وسيارات الجيب في مصنع شركة «تويوتا موتورز» في محافظة «أيشي». وبعد ظهر نفس اليوم زارت البعثة موقع تصنيع الجرارات في شركة «ميتسوبيشي» للصناعات الثقيلة، ووصلت البعثة مدينة أوساكا مساء نفس اليوم. وفي ٢٤ يوليو، شاهد جيفارا ورفاقه عملية تصنيع ميكنة زراعية في مصنع «كوباتا ستيل» في «ساكاي». وقادوا بالفعل جراراً زراعياً وماكينة رش مواد كيماوية. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، زاروا شركتي «ماروبيني» و«كانيبو» وبعد ذلك حضروا احتفالاً نظمته غرفة تجارة مدينة «أوساكا». وبالإضافة إلى ذلك، توجد صور تظهر زيارة جيفارا وفريقه لمعهد «سوني ترانزستور». وأنباء أشارت إلى أنهم زاروا مصانع معدات انشائية وفولاذ وأسمدة وآلات نسيج وكذلك استوديو سينمائياً، وبالتالي كان برنامج الزيارة مكثفاً جداً.

وبالعودة إلى أنشطة ٢٤ يوليو، فقد وقعت حادثة صغيرة ليلاً، فقد كان مقرراً أن تبيت البعثة في «أوساكا» ومقابلة مسئولين من منتجي النسيج في فندق، ومن ثم الانتقال إلى مدينة «كوبي» في اليوم التالي لزيارة حوض السفن الخاص بشركة «كاواساكي» للصناعات الثقيلة، ولكن جيفارا علم أن مدينة «هيروشيما» ليست بعيدة كثيراً عن «أوساكا». وتذكر أنه عندما كان في مقتبل الشباب، كان يشعر بضيق شديد لإلقاء قنبلتين ذريتين على اليابان من قبل الولايات المتحدة في أواخر أيام الحرب العالمية الثانية ومقتل الكثير من البشر نتيجة لذلك. وبعد سماعه أن المدينة المنكوبة بالقنبلة الذرية قريبة من منطقة «أوساكا/كوبي»، كان جيفارا في حالة من العصبية والإثارة، فقرر جيفارا وأحد مرافقيه والسفير الكوبي في اليابان مغادرة الفندق واشتروا تذاكر قطار ليلي متوجها إلى هيروشيما. وفي اليوم التالي ٢٥ يوليو، وضع جيفارا ورفيقاه إكليلاً من الزهور على الضريح التذكاري لضحايا القنبلة الذرية في حديقة السلام بهيروشيما، وزاروا متحف القنبلة الذرية لاحقاً. وبعد مشاهدة محتويات المتحف من صور ومواد أخرى، قال جيفارا لمرشد ياباني رافقه في جولة بالمتحف بتعجب: «برغم هول ما فعلته الولايات المتحدة بكم، أنتم اليابانيون ما زلتم ترزحون تحت سيطرتهم، أليس كذلك؟». وفي نفس اليوم، زار جيفارا مستشفى القنبلة الذرية، مما يثبت سعيه الجاد لمحاولة فهم مأساة هيروشيما بشكل متعمق.

وفي ٢٧ يوليو، غادرت البعثة الكوبية اليابان، ولاحقاً زارت إندونيسيا، باكستان، السودان، يوغسلافيا، غانا، المغرب، وذلك قبل عودتها إلى هافانا في ٨ سبتمبر. وفي العام التالي لزيارة جيفارا، أبرمت اليابان وكوبا اتفاقية تجارية، وكانت الاتفاقية ثمرة لجهود إيجابية لجيفارا الذي حاول الاتصال بزعماء الحكومة اليابانية أثناء إقامته في اليابان، وما زالت الاتفاقية سارية حتى الآن.

ولاحقاً، قاد جيفارا سيارة جيب من صنع شركة «تويوتا» اليابانية عندما دخل قاعدة فدائيين، وربما كان ذلك بسبب انطباعه الجيد عن كفاءة السيارات اليابانية منذ زيارته لمصنع «تويوتا» خلال زيارته لليابان في ١٩٥٩. ومع ذلك، فيبدو أن أكبر أثر تركته زيارة جيفارا لليابان لديه كان ذكريات زيارته لمدينة «هيروشيما». فبعد عودته إلى كوبا، عرض العديد من الصور الملتقطة في هيروشيما، بينما كان يتحدث بكثير من التأثر لصديقه فيدل كاسترو عن حجم الضرر الذي خلفته القنبلة الذرية التي ألقيت على إحدى المدن اليابانية. وعرضت إحدى الصور على الغلاف الأمامي لطبعة صيف ٢٠٠٦ لمجلة «هيروشيما» الفصلية. وكانت صورة بالأبيض والأسود ركزت على النصب التذكاري لضحايا القنبلة الذرية. وكانت الصورة هدية مقدمة من أسرة جيفارا ومن «مركز أبحاث تشي جيفارا» الذي يمتلك حق نشر المقالات التي كتبها جيفارا والصور التي التقطها.


دواسات حمام
قطع موكيت


www.maccarpet.com

"CHE"

المصوِّر والأيقونة

مايكل هاردر

** انفجرت فى ميناء هافانا سفينة «لا كوبرا» الفرنسية الحاملة لمجموعة من الأسلحة البلجيكية لتودى بحياة مائة وستة وثلاثين كوبياً فى الخامس من مارس ١٩٦٠. كان ألبرتو «كوردا» جوتيريز أحد مصورى فريق عمل الجريدة الكوبية «الثورة»، وهكذا تولى مهمة تغطية مراسم التأبين التالية المقامة فى هافانا. كانت سيمون دو بوفوار وجان - بول سارتر من بين أبرز الضيوف. ألقى فيديل كاسترو واحداً من خطبه اللانهائية، وراح كوردا يصور الحضور عندما ظهر تشى جيفارا بغتة على المنصة. سدد كوردا إلى تشى آلة التصوير ماركة لايكا لينجح فى التقاط لقطتين قبل أن ينزل تشى من المنصة ويختفى عن الأنظار.

وعند عودة كوردا إلى حجرته المظلمة، كبَّر من بين صور أخرى صور تشى. انتقى رئيس تحرير جريدة «الثورة» صورة لكاسترو كى ينشرها فى الجريدة ثم أعاد البقية. راقت كوردا صورة تشى فعلقها على حائط الأستوديو المملوك له فى هافانا.

لم تزل الصورة معلقة على الحائط حتى عام ١٩٦٧ - وإن تلطخت بدخان التبغ - عندما طرق رجل على باب أستوديو كوردا. لم يقدم الشخص نفسه لكنه سلم كوردا خطاباً للتعريف به من أحد أعضاء الإدارة الكوبية بارزى الشأن. طلب الخطاب من كوردا مساعدة هذا الشخص فى بحثه عن صورة جيدة لتشى. وعليه أشار كوردا إلى الحائط قائلاً: «هذه أفضل ما عندى». وافق الزائر على أخذها وطلب نسختين. طلب منه كوردا العودة فى اليوم التالى، وهو ما حدث. وحين سأله عن ثمن النسختين، أجاب كوردا بأنه «غير مضطر إلى الدفع بما أن الزائر صديق للثورة».

أما ما لم يعلمه كوردا فهو أن الزائر كان الناشر الإيطالى الشهير جيانجياكومو فيلترينيلى. اشتهر جيانجياكومو فيلترينيلى فى أوروبا بتهريبه مخطوطة «دكتور زيفاجو» خارج الاتحاد السوفيتى. أتى فيلترينيلى إلى كوبا مباشرة من بوليفيا حيث كان يتفاوض على إطلاق سراح ريجيس ديبرى. وبعد أن عرف فيلترينيلى من ديبرى أن تشى جيفارا هو قائد الميليشيات فى بوليفيا وأن نهايته قد تصير قريبة، أبصر فيلترينيلى فرصة للربح والتجارة بعد الاغتيال المحتمل لتشى، ربح هائل لم يحققه أحد ورهول من قبله.

لم تكن جثة تشى جيفارا قد بردت بعد فى بوليفيا قبل أن يتمكن الناس من شراء ملصقات كبيرة تحمل صورة تشى لكوردا فى كل بقعة من العالم. أعلنت الملصقات فى أحد ركنيها السفليين أن حقوق النشر محفوظة لفيلترينيلى. أبلغنى كوردا أن فيلترينيلى باع ٢٠٠٠٠٠٠ ملصق خلال نصف سنة. وبعدها تم تحويل الصورة وتغييرها وتبديلها فى كل دول العالم.

لم ينل كوردا سنتاً على الإطلاق وذلك لسبب واحد وحيد - رفضت كوبا توقيع اتفاقية بيرن. فقد وصف فيديل كاسترو حماية الملكية الفكرية «بالخراء» الإمبريالى مما أثر على حقوق كوردا الفنية فى نشر الصورة وتوزيعها. غير أن كوبا أقرت فى النهاية الاتفاقية عام ١٩٧٧.



© 1990 Alberto Korda

رغم أن صورة كوردا بيعت بطرق لا عدد لها ولا حصر، لم يحصل كوردا على سنت واحد مقابل إبداعه

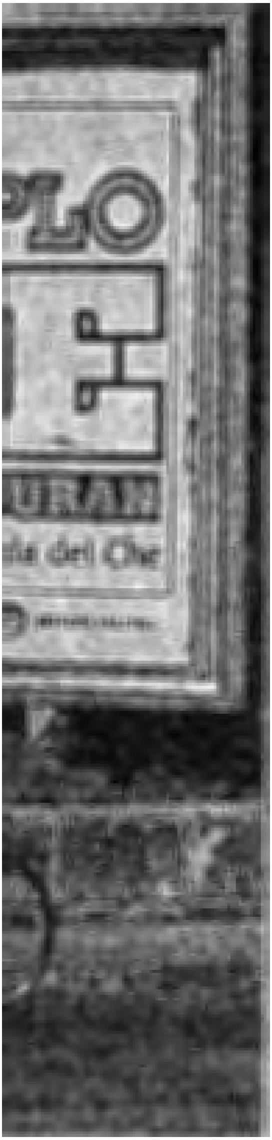


صورة جيفارا بعد ان تحولت إلى أشهر ملصق
وأكثر الأيقونات السياسية انتشارا

مع وفاة جيفارا انتشرت الصورة في العالم كله لتظهر
على حيطان المباني والأعلام والأزرار والقمصان القطنية والملصقات
وأغلفة الألبومات الغنائية.. وحتى زجاجات الفودكا وعلب السيجار

ألبرتو كوردا المصور الكوبي صاحب الصورة الأشهر اعتبرها «معهد ماريلاند الفني» أشهر صورة في العالم ورمز القرن العشرين. توفي في السادس والعشرين من مايو ٢٠٠١.

الصورة الشهيرة التي التقطت في مارس من عام ١٩٦٠. ظلت الصورة بمنأى عن النشر نحو سبع سنوات. إلا أنه مع وفاة جيفارا عام ١٩٦٧. انتشرت

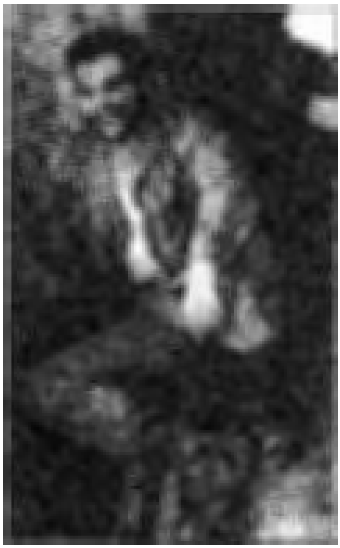




© Alberto Korda - 1962



© Alberto Korda



الصورة كالنار في الهشيم على هيئة ملصق في إيطاليا... ومنها إلى كل أنحـــاء أوروبا وما وراءها. شتى دول العالم لتظهر على حيطان المباني والأعلام والأزرار والقمصان القطنية والملصقات وأغلفة الألبومات الفنانية. بل إن الفنان آندي ورهول انتفع من صورة كوردا حين طبعها باستخدام شاشة حريرية لتخرج كواحدة من صوره الشعبية.

وعلى الرغم من أن صورة كوردا بيعت بطرق لا عدد لها ولا حصر، لم يحصل كوردا على سنت واحد مقابل إبداعه.

لكن عندما استخدمت شركة سميرنوف للفودكا صورة جيفارا في أحد إعلاناتها عام ٢٠٠٠ لترويج لأحد منتجاتها، رفع المصور عليها دعوى قضائية.

ولم يكن كوردا معارضا أبدا للاستخدام غير القانوني لصورته. «باعتباري مؤيداً لمبادئ مات تشي جيفارا من أجلها، لست معارضاً لإعادة إنتاج الصورة من قبل الراغبين في إذاعة ذكراه وقضية العدالة الاجتماعية في العالم أجمع غير أني أقف موقف الرفض التام من استغلال صورة تشي في الدعاية لمنتجات مثل الكحول أو في أي غرض سيشوه سمعة تشي». ربح كوردا تسوية خارج المحكمة ضد شركة الفودكا لينال حوالي ٥٠٠٠٠ دولار.

تبرع الفنان بالأموال للنظام الطبي بكوبا قائلا: «لو كان تشي لا يزال حيا، لفعل نفس الشيء». ◆



عينى عليه ساعة القضا من غير رفاقة تودعه

مرثية عربية

مازن النجار

❊❊ جيفارا مات.. جيفارا مات.. جيفارا مات

آخر خبر فى الراديوهات

وفى الكنايس والجوامع

وفى الحوارى والشوارع

وع القهاوى وع البارات

جيفارا مات.. واتمد حبل الدردشة والتعليقات

جيفارا مات.. جيفارا مات

كانت تلك السطور مطلعاً لرائعة الشاعر أحمد فؤاد نجم، والتى لحنها وغناها الفنان الراحل الشيخ إمام عيسى، فى رثاء المناضل الأرجنتينى الكبير إرنستو تشيه غيفارا، عقب أسره فى غابات بوليفيا من قبل الجيش البوليفى ثم إعدامه قبل ٤١ عاماً فى العاشر من أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٧. لقد شكلت تلك اللحظة صدمة للحركة الثورية العالمية، وحركة التحرر الوطنى بشكل عام. بيد أن مصرع المناضل الأرجنتينى قد أذكى روح الثورة، وأضفى عليها بعداً عالمياً وآفقاً إنسانياً رحباً، يتجاوز بل ويعلو المنطلقات الأيديولوجية النظرية التى أثبتت محدودياتها وقصورها عن استنهاض الجماهير.

أصبح غيفارا رمزاً لحراك وتطلعات المستضعفين فى العالم، ولسعيهم نحو الانعتاق والتحرر من ربقة طاغوت الامبريالية والأوليغاركية والفاشية، خاصة بالنسبة لشعوب أميركا اللاتينية، التى عانت من أسوأ صور القهر والاستغلال والقمع الفاشى، وفرق الموت فى هندوراس والسلفادور وحروب الكونترا ضد حكومة الجبهة الساندينية فى نيكاراغوا بأميركا الوسطى، وما يعرف بالحروب القذرة ضد الحركة الطلابية والقوى الطليعية والنقابية، والتى شنتها الطغمتان العسكريتان فى تشيلى والأرجنتين، بعد الانقلاب على الديمقراطية وصناديق الاقتراع التى أعادت البيرونية إلى الأرجنتين، وجاءت بسلفادور الليندى إلى سدة الرئاسة فى تشيلى. ذهب ضحية هذه الحروب اغتيالاً وخطفاً وتعذيباً حتى الموت مئات الآلاف من المثقفين والمناضلين والقادة النقابيين، كما ظهر من المقابر الجماعية ولجان التحقيق فى جرائم تلك السنوات، إضافة إلى اغتيال الرئيس الليندى فى القصر الرئاسى بسانتياغو.



■ القاهرة، ١٩٦٩

كانت حركة الثورة العالمية التى أصبح غيفارا رمزاً لها محصلة صعود قوى اليسار الأوروبى التى تصدت للنضال ضد الفاشية والنازية بأوروبا إبان الحرب العظمى الثانية، ثم صعود حركات التحرر الوطنى الأفروآسيوية التى تصدت للاستعمار القديم فى أعقاب تلك الحرب، التى أنهكت الامبراطوريات الاستعمارية القديمة وأسقطت هيبتها، وأتاحت لشعوب المستعمرات فرصة تاريخية للتحرر والخلاص. كما ساهمت طفرة الاتصالات العالمية فى اندلاع ما يعرف بثورة التطلعات الكبيرة، أى تطلعات الشعوب إلى الاستقلال والنهضة والتنمية والعدل الاجتماعى والتحديث.

هذه المرحلة ذات الخصوصية المتميزة يسميها أستاذ العلوم السياسية المكسيكى البروفسور غارسيا، مؤلف السيرة الشخصية لأرنستو تشيه غيفارا، مرحلة «الآن.. وهنا»، وهى باللغة الأسبانية: هنا والآن أو «aqui y ahora». لذلك يعتبر غارسيا صعود ظاهرة غيفارا هى ذروة الظهور والتجلى لهذه المرحلة أو بالأحرى لهذه اللحظة الفارقة فى تاريخ العالم المعاصر. فى هذا الإطار، تكتسب ظاهرة غيفارا سياقها ودلالتها وأهميتها فى حقبة الخمسينيات والستينيات، والتى كان أحد رموزها بامتياز. تزامن ذلك مع صعود حركة التحرر الوطنى فى العالم العربى، والتى قدمت تجربة ملهمة لحركات التحرر فى العالم الثالث، (لدى التصدى للعدوان الثلاثى فى ١٩٥٦)، ومنها الثورة الكوبية التى قادها فيديل كاسترو وكان غيفارا أحد قادتها وأبطالها.

لكن هذه السياقات لا تفسر وحدها الروعة واللوعة والفاجعة والعفوية المكثفة فى ثنايا وكلمات مرثية أحمد فؤاد نجم. فهذه القصيدة تنطوى على كثير من تقاليد الرثاء والندب فى الشرق العربى، وهى تقاليد تاريخية موغلة فى القدم، وقد عبرت إلينا المسافات الزمنية التى تفصلنا عن مرثيات مصر القديمة (إيزيس وأوزوريس)، وبلاد ما بين النهرين (ملحمة غلغامش)، وفينيقيا (بعل وعشتار وأدونيس)، وكنعان وآمور، ومرثيات العرب قبل الإسلام (الخنساء ورثاء صخر)، وعصور الإسلام (الحسين وكربلاء). وتخللت عبر الخبرة التاريخية الممتدة لهذه الأمة. وكأنما أجيالها تولد بهذه التقاليد الثقافية المتواصلة عبر مراحل الشرق ولغاته وأديانه وصيرورته الخالدة. وكأنما رثاء الخنساء لأخيها صخر يولد من جديد:

وإن صخراً لتأتم الهداة به

كأنه علم فى رأسه نار

حمال ألوية شهاد أندية

هباط أودية للجيش جرار

ينطلق الألم فى مرثية نجم لغيفارا متدفقاً بعفوية حقيقية. ووقار يليق بالفقيد وبالمقام، ولا وقت للإتقان والتجويد. ويأتى وزن القصيدة على تفعيلة «مستفعل» من بحر الرجز، وهو أكثر بحور الشعر بساطة فى الإيقاع وصدقاً فى التعبير ومباشرة فى الشعور وملاءمة للسرد منذ أزمنة العهد القديم وسردياته الكنعانية التى رويت بمعظمها شعراً على إيقاع بحر الرجز، وإلا لما تسنى لها أن تحفظ وتنتقل عبر القرون، وكذلك الأمر فى كثير من مرويات العرب فى مختلف العصور. إنه النعى والألم والحسرة لفقد رجل ليس كالرجال، لمثال يعز نظيره فى الزمان وفى المكان. تتصاعد الشاعر ويحتدم الموقف:

مات المناضل المثال.. يا ميت خسارة ع الرجال

مات البطل فوق مدفعه جو الغابات
جسد نضاله بمصرعه ومن سكات
لا طبالين يفرقعوا ولا إعلامات
جيفارا مات.. جيفارا مات

أبيات القصيدة ومقاطعها كما لحنها وأداها الشيخ إمام عيسى، (وهو أيضاً ابن تقاليد الشرق العربي القديمة). تخيم عليها لحظة المصير وهيبة الشهادة ورهبة الموت ويقين النهاية وصمت القبور. برغم الكلمات والنغمات والإيقاعات وترداد النادبين. إيقاعات الندب توحي بأن النادبين يدقون صدورهم حزناً وغما، كما كانوا يفعلون تقليدياً في المآتم منذ أزمان طويلة. كأننا في مآتم عاشورائي إحياء لذكرى فاجعة كربلاء التي لا تزال أرقا في الضمير وجرحاً في القلوب. لم يكن لكربلاء أن تقع في العراق دون استدعاء تقاليد الندب والمآتم العراقية القديمة التي شكلت بدورها كثيراً من مظاهر وتقاليد المأتم الكربلائي، بسردياته وإيقاعاته ولهجاته وهمهماته وفقراته التمثيلية التي تصور المأساة متجاوزة تجريد التراجيديا إلى تجسيدها والانفعال بأحداثها وتفاصيلها. عند هذه النقطة على قمة منحنى المأساة يبلغ الندب ذروته عند أحمد فؤاد نجم:

عيني عليه ساعة القضا من غير
رفاقة تودعه
عيني عليه.. عيني عليه
يطلع أنينه للفضا يزعق ولا من
يسمعه
عيني عليه.. عيني عليه
يمكن صرخ من الألم من لسعة النار
في الحشا
عيني عليه..
يمكن ضحك أو ابتسم أو ارتعش أو
انتشى
عيني عليه..
يمكن لفظ آخر نفس كلمة وداع
لأجل الجياع
يمكن وصية للي حاملين القضية
بالصراع
صور كتير ملو الخيال وألف مليون
احتمال
لكن أكيد أكيد ولا جدال..
جيفارا مات موتة رجال..

في هذه اللحظة تنتهي إشكالية الموت لتبدأ صيرورة الخلود، خلود المثال والرجولة الحقيقية. لم يعد غيفارا ذلك المناضل المغدور؛ فقد انتهت تجربته على المستوى (الشخصي) النسبي، لكن بدأت على التو صيرورة المطلق، فقد تكرس بطلاً ونهجاً ومساراً ومثالاً. إشكالية التعاطي مع الصراع والموت والغياب نجدها أيضاً في قصيدة عمرو بن معديكرب الشهيرة:

كم من أخ لي صالح بوأته بيدي لحدا
ما إن هلعت ولا جزعت ولا يرد بكاي
زندا
ألبسته أثوابه وخلقت يوم خلقت
جلدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل
السيف فردا

في صيف ١٩٩٧ تمكنت الحكومة الكوبية من استعادة رفات غيفارا من قبره في بوليفيا، وقد تم التأكد أنها له من معطفه الذي دفن فيه ومن عظام ذراعيه اللتين قطعهما أسروه عند إعدامه. أعدت الحكومة الكوبية لرفاته مدفناً ونصباً تذكارياً في مدينة سانتا كلارا التي خاض فيها غيفارا إحدى أهم معاركه، وحقق فيها انتصاراً كان له أثر هام في حسم المعركة وانتصار الثورة الكوبية على نظام باتيستا. استقبلت رفاته ودفنت في حشد جماهيري كبير، ألقى فيه الرئيس كاسترو خطابا حافلا بمعاني الصيرورة. من ضمن ما قاله كاسترو: لماذا يظنون أن الإنسان ينتهي دوره عندما يغيبه الموت.. إنه (غيفارا) حاضر دائما حيث يكون ظلم أو قهر للإنسان. حاضر في تطلع كل فلاح كادح إلى مستقبل أفضل. إنه الآن يشن حروبا أكثر من أي وقت مضى....

في الذكرى الأربعين لاغتيال أرنستو تشيه غيفارا، كتب الشاعر عبد الرحمن يوسف مرثية مؤثرة بعنوان: على بعد خلد ونصف، إحياء للذكرى، وللقيمة الكبرى التي يمثلها المناضل الراحل في تاريخ الإنسانية المعاصر، وهنا تبلغ صيرورة غيفارا ذروتها. فهذا الشاعر الذي يرثيه بعد أربعين عاماً من يوم اغتياله، قد ولد بعد سنوات من ذلك اليوم. يقول الشاعر:

على بُعدِ صبحٍ ونصفٍ من الليلِ كانَ
يقودُ الحيارى...
يسيرُ بخطٍ شديدِ الوضُوحِ كقوسِ
الكمانِ...!
فيسري (كصوتِ الكمانِ) تخطى
الجدار...
يصورُ للثائرينَ - كما يفعلُ الأنبياءُ
- الجنانَ...
فيظهر كالبدرِ للثائرينَ بحينٍ
وحيناً يغيبُ كبدرٍ وراءَ الغيومِ
توارى...
وتبسمُ في الوجهِ عمازتانِ...
فينطلقُ الخوفُ نحوَ الأمانِ...
على بعدِ قبرٍ ونصفٍ من الموتِ كانَ
يعيشُ «جيفارا»...! ■

كتاب الزاوية

مالكوم إكس
النصوص المحرمة

لا شك في أن بعض «العقلاء الجدد» سوف يقولون بعد قراءة هذه النصوص المختارة أن مالكوم إكس عنصري. وربما أيضاً ديماغوجي! ولكنه بكل تأكيد ليس كذلك! لأن الواجب تفسير مواقف مالكوم إكس من الرجل الأبيض - التي سترد لاحقاً - في سياق زمنها ومكانها وظروفها، حيث كان السود في أمريكا يعانون من تفرقة عنصرية وحشية بغيضة تتناقض وأبسط حقوق الإنسان.. بل تتناقض والدستور الأمريكي نفسه! ومع ذلك.. لم يتورط مالكوم إكس في أعمال عنف ضد البيض!

إن القارئ الذي يعتقد أنه يعرف هذه الشخصية الأسطورية الفذة من مجرد مشاهدته فيلم «مالكوم إكس» (الذي أخرجه سبايك لي، وقام ببطولته الممثل القدير دينزل واشنطن وعرض في عام ١٩٩٢) سوف يكتشف - بعد قراءة هذه النصوص - أن مالكوم إكس الحقيقي يختلف عن تلك النسخة «الهوليودية» اختلافاً كثيراً.. بل شاسعاً جداً! وهذه النصوص المهمة تقدم صورة واضحة وحقيقية لهذه الشخصية الفذة، التي دافعت بصلابة ورجولة عن حقوق الشعب الأمريكي الأسود ضد الاضطهاد العنصري البشع في الولايات المتحدة الأمريكية. ودفعت حياتها ثمناً لذلك.

حمد العيسى
المترجم

مصر فى عالم متغير

محمد البرادعى

السيدات والسادة:

لقد شهد العالم تغيرات وتحولات جذرية وسريعة ومستمرة فى العقدين الماضيين وبعد انتهاء الحرب الباردة. واسمحوا لى أن استعرض معكم أهم ملامح وسمات تلك التغيرات فى عالمنا المعاصر لما لها من انعكاسات واضحة على حاضرنا ومستقبلنا.

اولا: ترسخ قيم إنسانية مشتركة تجمعنا كافة. بغض النظر عن اختلافاتنا العرقية أو الدينية أو غيرها، وهى قيم تنصب على الإنسان أولا وقبل كل شىء، وهى تشمل: حرية التعبير، حرية العقيدة - الحرية من الخوف- الحرية من الحاجة. ولو دققنا النظر قليلا لوجدنا أن هذه الحريات الأربع، وما يتفرع منها من قيم مثل التسامح، واحترام الاخر والتضامن الإنسانى وسيادة القانون والديمقراطية، إنما هى فى واقع الأمر انعكاس واضح لجوهر جميع الأديان والعقائد، التى تكرم وتصون الحياة الإنسانية وقدسيتها.

ثانيا: تغير مفهوم دور الدولة ومقياس تقدمها، فقد أصبح مقياس تقدم الدولة ليس فقط ما تملكه من قوة عسكرية وإنما فى المقام الأول مدى إسهامها فى الحضارة الإنسانية على المستوى العلمى والفكرى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى، أو ما يطلق عليه القوة الرخوة Soft Power و قد واكب ذلك بالضرورة تغير فى مفهوم الأمن القومى فلم يعد الأمن القومى مقصورا فقط على حماية حدود الدولة، بل أصبح أمن الفرد ومسئولية توفير الحياة الحرة الكريمة له جزءا أساسيا من مفهوم الأمن القومى للدولة.

ثالثا: تغير طبيعة معظم المشكلات التى تواجهنا والتى لم تعد محصورة فى النطاق الوطنى أو الإقليمى، بل أصبحت عابرة للحدود وذات تأثيرات مترابطة، ولا تحضرنى مشكلة كبرى سواء كانت خاصة بنزاع إقليمى أو بالأمن الغذائى أو بالتغير المناخى أو بمواجهة الأمراض الخطيرة المعدية أو بالحد من انتشار أسلحة الدمار الشامل، أقول لا تحضرنى أى من هذه المشاكل يمكن أن تواجهها أية دولة، مهما بلغت من القوة، بدون تعاون مع باقى أعضاء الأسرة الدولية.



© Kerry Waghorn

رابعا: ظهور المزيد من التكتلات والتجمعات الدولية والإقليمية المترابطة والقوية، وذلك بهدف دعم مصالح الدول التى تنتمى إليها وتقوية نفوذها، فهاهو الاتحاد الأوروبى، الذى يبلغ عدد أعضائه ٢٧ دولة كتلة اقتصادية وسياسية عملاقة، وها هو حلف الأطلنطى الذى يبلغ عدد أعضائه ٢٦ عضوا كتلة عسكرية وسياسية، وهاهو تجمع دول الأسيان الذى يبلغ عدد أعضائه عشر دول، ناهيك عن التجمعات الأخرى الجديدة الاقتصادية والسياسية الآخذة فى التبلور مؤخرا فى مختلف أرجاء العالم بدرجات متفاوتة من حيث التماسك والفعالية. ففى النظام العالمى الجديد بما فيه من تشابك للمصالح والمشاكل فى نفس الوقت أصبحت الدول تدرك أكثر من أى وقت مضى أنه لابد لها من أن تنخرط فى إطار جماعى سواء كان جغرافيا أو سياسيا أو اقتصاديا إذا ما أرادت أن تحمى مصالحها وتدعمها.

خامسا: بزوغ ثورة الاتصالات والتكنولوجيا التى يشهدها العالم مؤخرا والتى ساهمت بشكل بارز فى إزالة الحواجز بين الدول والشعوب وفى سهولة تنقل الأفراد والبضائع والأفكار. لقد أصبح كل إنسان يدرك ويعى ما يدور فى العالم من إيجابيات وسلبيات، وما تولد عن ذلك من شعور متزايد بأننا أسرة إنسانية واحدة، آمالنا مشتركة ومخاوفنا واحدة.

من محاضرة بجامعة القاهرة بمناسبة حصوله على الدكتوراه الفخرية فى القانون الدولى - القاهرة ٩ يوليو ٢٠٠٨

استمرار الاعتماد على السلاح النووى كجزء أساسى من منظومة أمن الدول النووية، فى الوقت الذى تطالب فيه سائر الدول بعدم السعى لامتلاك هذه الأسلحة.. مثال لازدواجية المعايير

السيدات والسادة:

فى الوقت الذى نشهد فيه الكثير من الدلائل على التقدم العلمى والتكنولوجى الذى أحرزناه، والذى هو انعكاس لعظمة العقل الذى حبانا الله به، فإننا لا نستطيع وبكل أسف إلا أن نرى فى نفس الوقت أن هذا التقدم ما زالت تصاحبه أوجه خلل جذرية فى حياتنا الإنسانية.

واسمحوا لى مرة أخرى أن استعرض معكم أهم ملامح هذا الخلل:

أولاً: الفجوة المتزايدة بين الأغنياء والفقراء فى هذا العالم وسوء توزيع الثروة: ففى حين يمتلك ١٪ من سكان العالم ٤٠٪ من أصوله المادية، يقتصر ما يمتلكه ٥٠٪ من سكان العالم على ١٪ فقط من هذه الأصول، وما زال هناك ٤٠ بالمائة من سكان العالم يعيشون تحت خط الفقر، ليس لأننا لا نملك الموارد وإنما لأن أولوياتنا خاطئة. ففى الوقت الذى ينفق فيه العالم ما يتجاوز الألف مليار دولار على السلاح، نجد أنه يتم إنفاق أقل من ١٠٪ فقط من هذه الأموال كمساعدات للدول النامية.

وقد نخطئ إن تصورنا أن هؤلاء المحرومين من سبل الحياة الكريمة لا يدركون الإجحاف والاستغلال اللذين يتعرضون لهما. فهم إذا كانوا فقراء فإنهم ليسوا بأغبياء. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن الفقر يرتبط فى الكثير من الأحيان بغياب الحكم الرشيد، فلا يجب أن نندهش إن أحس الإنسان المقهور مادياً ومعنوياً بالظلم والمهانة وبدأ يلجأ إلى العنف للتنفيس عن سخطه وفقدانه للأمل. ودائماً ما أردد أنه ما من شخص يولد إرهابياً، وإنما يولد الإرهاب والعنف من رحم الإحباط والذل والظلم، وأن الفقر هو أقوى أسلحة الدمار الشامل.

ثانياً: ازدواجية المعايير فى التعامل الإنسانى على مختلف مستوياته، الذى يمتد ليشمل قدسية الحياة البشرية ذاتها، فنرى مثلاً كيف يأسى المجتمع الدولى بشكل ملموس لإزهاق أرواح الأبرياء فى العالم المتقدم أو حتى عند أخذ بعضهم كرهائن والتغطية الإعلامية المكثفة له، بينما يتعامل هو - بل ونحن أيضاً للأسف بشكل مختلف تماماً مع إزهاق أرواح الأبرياء فى العالم النامى سواء أكانت فى دارفور أو العراق أو الكونغو. تلك الدول التى أزهقت فيها مؤخراً الملايين من أرواح المدنيين. هؤلاء الضحايا هم مجرد أرقام تذكر بالكاد فى وسائل الإعلام.

ثالثاً: استمرار الاعتماد على السلاح النووى كجزء أساسى من منظومة أمن الدول النووية، فى الوقت الذى تطالب فيه سائر الدول بعدم السعى لامتلاك هذه الأسلحة، أى استمرار نظام قائم على من يملكون ومن لا يملكون، وهو الأمر الذى يقلقنى أن منطقتنا ما زالت تعانى منه. وفى مجال السلاح التقليدى هناك تزايد فى ظاهرة الاستخدام الأحادى للقوة المسلحة بالمخالفة لميثاق الأمم المتحدة، وهو الأمر الذى رأيناه فى حالات عدة فى السنوات بل الأشهر القليلة الماضية.

رابعاً: تزايد الفجوة والانفصال بين العالم الإسلامى والعالم الغربى وعدم وجود محاولات جدية للتقارب والحوار. وما نراه فى معظم الوقت للأسف هو تعميم وقولبة لمجتمع بأكمله بسبب أفعال قلة من أفراده، ومحاولة عزل مشاكل العالم الإسلامى والعربى وحصارها من ناحية أو محاولة حلها بالقوة من ناحية أخرى بدلاً من العمل على التواصل والحوار والتركيز على حل جذور المشاكل.

ولعل الوضع مؤخراً فى غزة من إنزال عقاب جماعى بالمدنيين الأبرياء وحرمانهم من سبل المعيشة والرزق بدلاً من تضافر جهود المجتمع الدولى والأطراف المعنية مباشرة بمعالجة أصل المشكلة عن طريق الحوار هو أبلغ مثال على الأسلوب الخاطئ وقصر النظر فى معالجة أزمات المنطقة، إذ يقوى هذا الأسلوب من التيارات المتطرفة، التى ينظر إليها العالم الخارجى مرة أخرى على أنها القاعدة فى مجتمعنا وليس الاستثناء.

السيدات والسادة:

هذه مشاكل نعانى منها كمجتمع إنسانى. وبالرغم من أنها معقدة فإننا يجب أن نعى فى نفس الوقت أنها غير مستعصية الحل.

فإذا قرر العالم زيادة الجهود والموارد لدعم التنمية فى الدول النامية لتضييق الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وإذا تعاملنا مع بعضنا البعض كجزء من أسرة إنسانية واحدة، مصيرها مشترك وأفرادها متساوون من حيث حقهم فى الحياة الكريمة الآمنة.

وإذا اعتمدنا مبدأ الحوار وليس استخدام القوة كأسلوب أساسى لحل خلافاتنا وركزنا على معالجة جذور المنازعات لا على أعراضها، وإذا أقمنا نظاماً للأمن الجماعى لا يعتمد على السلاح النووى، بل على مبادئ تكفل الأمن المتساوى والمتكافئ لكافة الدول. بحيث لا يكون أمن أى طرف على حساب أمن الطرف الآخر. وإذا أخذنا بجدية مسئولية المجتمع الدولى فى حماية المدنيين الأبرياء الذين هم أول ضحايا الحروب الأهلية والمنازعات المسلحة، أقول إنه إذا قمنا بكل هذا فسنخلق عالماً يعيش فى أمان مع نفسه. عالماً يركز على الخلق والإبداع وليس على التدمير والخراب.

السيدات والسادة:

يجب أن نكون مدركين أننا جزء من المجتمع الدولى، نتأثر بتياراته وتطوراته، وهى تطورات تفرض علينا تساؤلات وتحديات ملحة. فيجب أن نسأل أنفسنا كيف نتعامل مع التغيرات والتحديات الراهنة، وكيف نستطيع أن نتعامل معها ليس فقط للحد من تأثير سلبياتها علينا، بل كيف نؤثر على هذه التطورات بما يضمن مصالحنا الوطنية والقومية ويحقق آمالنا وطموحاتنا.

لقد بدأت مصر مرحلة النهضة الحديثة منذ أوائل القرن التاسع عشر، وكانت هناك بشائر عديدة لما يمكن أن ينتج عن تلك المرحلة من تطور وتقدم فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، برغم أن تلك النهضة قد جرت فى ظروف احتلال أجنبى جاثم على صدر مصر، وظروف دولية غير مواتية.

ولا يسمح لى المجال هنا أن أتناول بالتحليل حركة النهضة فى مصر فى القرنين الماضيين بإنجازاتها وانتكاساتها.

إنما فى رأيى أن الأهم فى هذه المرحلة ألا نتباكى على أخطائنا أو نغالى من إنجازاتنا، بل يجب أن نركز على أن نبدأ مرحلة جديدة تنطلق من الاعتراف بأن ركب التطور قد سبقنا، وأنه لابد من أن نتخذ خطوات جادة ومدروسة وعاجلة للحاق بهذا الركب.

و أود أن أطرح هنا بعض الأفكار التى هى، فى تقديرى، أساسية لتحقيق التقدم والتطور الذى ننشده جميعاً:

إنزال عقاب جماعى بالمدنيين الأبرياء فى غزة وحرمانهم من سبل المعيشة والرزق هو أبلغ مثال على الأسلوب الخاطئ فى معالجة أزمات المنطقة

يجب علينا فى البداية أن ننفض عن أنفسنا غبار الماضى وانتكاساته وأن نبدأ مرحلة تتسم بثلاث سمات أساسية: أولا: القدرة على النقد الذاتى، والتحلى بالشجاعة لتحديد عيوبنا وأوجه قصورنا، فتشخيص المرض هو أول خطوة على طريق الشفاء. ثانيا: تغليب الفكر العقلانى دون العواطف فى تشخيص مشاكلنا والتعامل معها، ومعنى هذا تفكير منهجى منفتح وحر من قبل أهل العلم والخبرة.

ثالثا: رؤية شمولية تتناول مشاكل المجتمع المعقدة والمتشعبة وكذلك مدى ارتباطها بالعالم الذى نعيش فيه، الأمر الذى يلزمنا بأهمية الانفتاح الثقافى والحضارى للتمكن من فهم حضارات وثقافات وقيم الشعوب الأخرى، والاستفادة من خبراتها وتجاربها والاعتراف -من منطلق الثقة بالنفس- بأن هناك الكثير الذى يمكن أن نتعلمه من الآخرين لنضيف إلى تراثنا ونطوره، دون الاقتصار على التشكك الدائم فى نوايا الآخرين.

فى تقديرى أن المفتاح لمرحلة النهضة الجديدة التى يجب أن نبدأها اليوم قبل الغد، هو العلم والمعرفة. فتقدم أى مجتمع لا يتأتى إلا بالتعليم المتميز، ونشر المعرفة والثقافة بين كافة أفراد الوطن يجب أن يكون الأسبقية الأولى لكى ترتقى كافة طبقات المجتمع إلى مستويات أعلى فى الثقافة والتعليم، ولكى يحدث التطور الطبيعى فى نسيج المجتمع، فالعلم هو الطريق إلى حرية الإنسان وهو الطريق إلى تقدم الدولة وازدهارها.

ولعل نسبة الأمية فى مصر، التى تصل إلى حوالى ٤٠ ٪ بين البالغين وهبوط مستوى التعليم بكافة مراحله يمثلان أكبر تحد أمام التقدم فى مصر فى وقت يقوم فيه العالم على التنافسية فى مختلف المجالات، هذا العالم الذى لا يمكن أن نكون جزءا منه بدون تعليم متميز. ويرتبط التعليم بالطبع بإيلاء الأولوية القصوى للبحث العلمى، وتشجيع وتطوير هذا الركن المحورى من أركان الدولة العصرية.

وفى زمن التغيرات السريعة والعولمة فإنه إذا لم تقم الدول النامية بالإنفاق الكافى والمتزايد على البحث العلمى لمواجهة مشاكلها التى تختلف فى الكثير من الأحيان عن مشاكل الدول المتقدمة، فسيكون عليها أن ترضى بالفتات من ناتج الحضارة الإنسانية دون أن تضيف إلى هذه الحضارة أو تجنى ثمارها.

من الأهمية بمكان أن يتواجد إصلاح اقتصادى شامل فى المجتمع، إصلاح يضمن زيادة الإنتاجية وخلق قدرة تنافسية للاقتصاد الوطنى ليكون اقتصادا مندمجا بقوة وفاعلية فى النظام الاقتصادى والمالى الدولى، إصلاحا يضمن توفير رأس المال والتكنولوجيا المتقدمة، ويسعى إلى فتح مزيد من الأسواق أمام المنتجات الوطنية. ويجب فى الوقت نفسه أن يتواكب الإصلاح الاقتصادى مع العدالة فى توزيع الثروة وتوسيع قاعدة الاستفادة من النمو الاقتصادى، و بحيث نستطيع مرة أخرى بناء طبقة متوسطة واسعة، تلك الطبقة التى تشكل قيم أى مجتمع وصمام أمانه.

وقبل كل ذلك وبعده يجب إرساء شبكة اجتماعية تحمى الفقير وغير القادر. ويجب أن يكون مفهوما لدينا دائما أن الموازنة بين تقوية الحافز الشخصى ومراعاة البعد الاجتماعى هى الصمام الأساسى لأمن المجتمع.

يجب أن نعى أنه لن يكون هناك إصلاح اقتصادى دون أن يتم ذلك بالتوازى مع إصلاح سياسى يعتمد على مبادئ الشفافية والمحاسبة وتحقيق التوازن بين الأمن والحرية. فعندما يشعر الفرد بأنه يشارك فى كل قرار يتعلق بحياته ومصيره وبأن لديه الحرية التامة فى اختيار من يحكمه و يمثله سيستطيع أن يساهم فى حل مشاكل وطنه كشريك مسئول وليس من موقف المتفرج، وسيستطيع كل فرد من أبناء الوطن أن يحلق فى إطار الحرية المسئولة إلى آفاق أوسع وأرحب.

ومن البديهى أن أية عملية إصلاح سياسى لابد أن تنبع من الداخل، ومن البديهى كذلك أنها عملية ستستغرق وقتا فى ضوء الظروف التى شكلت تاريخ مصر المعاصر، وإنما مع هذا يجب أن نبدأ بخطوات جدية وملموسة وسريعة نحو تطوير نظام سياسى يستظل الجميع بمظلته. نظام قائم على توازن دقيق بين السلطات دون أن تطغى إحداها على الأخرى، نظام يضمن للفرد حقوقه دون استثناء أو تمييز، نظام يحمى ويمكن الأقلية قبل الأغلبية، والمرأة قبل الرجل، والضعيف قبل القوى، نظام يحقق السلام الاجتماعى بين كافة طوائف وفئات شعب مصر.

يجب أن نعيد ترتيب نظرتنا ومفهومنا للأمن القومى، فالتهديدات لم تعد تقتصر على التهديدات الخارجية، وإنما الكثير منها نابع من الداخل، خاصة فى ضوء تيارات التطرف والعنف التى نراها فى بلدنا ومنطقتنا. ومع ذلك يجب أن يكون مفهوما أن الدستور والقانون يجب أن يكونا السيد والحكم فى كافة الظروف، فالدستور والقانون يجب أن يكونا مصممين لمواجهة مختلف الظروف التى تمر بها الدولة بما فيها الظروف الاستثنائية.

أما بالنسبة للتهديدات الخارجية، فيتعين علينا رؤيتها من خلال وضع تصور واضح لمفهوم الأمن القومى، وتحديد مصالح مصر الوطنية و القومية الثابتة، تصور من شأنه أن يجعلنا سباقين فى الأخذ بزمام المبادرة وقادرين على تحقيق هذه المصالح وحمايتها.

٦ - ضرورة التكامل السياسى والاقتصادى والأمنى بيننا وبين الدول التى نرتبط بها ثقافيا وحضاريا وجغرافيا، وفى مقدمتها بالطبع الدول العربية. لقد كانت الجامعة العربية من النماذج الأولى للتجمعات الإقليمية فى العصر الحديث، وكان للعرب دور ريادى فى إنشاء نظام جماعى للأمن الإقليمى.

وإذا قارنا الاتحاد الأوروبى الذى يتكون من أعراق وجنسيات مختلفة ولغات عدة بالدول العربية والمقومات المشتركة التى تجمعها من لغة وتاريخ وثقافة، فلا يسع المرء إلا أن يحزن على وضعنا العربى المتردى، فقد أصبحنا أقل وحدة مما كنا عليه منذ ستين عاما منذ أنشئت الجامعة العربية، وأصبحت خلافاتنا الداخلية أكثر من خلافاتنا مع العالم الخارجى، وفقدنا قدرتنا، بل وإرادتنا، فيما يخص حل مشاكلنا الإقليمية وتركناها للعالم

الأمية وهبوط مستوى التعليم بكافة مراحله يمثلان أكبر تحد أمام التقدم فى مصر فى وقت يقوم فيه العالم على التنافسية فى مختلف المجالات

نصف الفرقة وفي أحيان ثالثة الفرقة كلها بكل قوتها.. ثم يهبط بك رويدا رويدا حتى تصبح هذه الفرقة الكبيرة وكأنها تهمس همساً.. تحبس انفاسك لتسمعها.. ويعود ويرتفع بها ثم يعود ويقسمها.. أظل هكذا أستمتع بالجمال والذكاء.

وعندما أستمع إلى سيمفونية أشعر كأنني أستمع إلى ندوة من العلماء والأدباء والفلاسفة في حوار رائع فيه العلم والجمال والتأمل والفكر.

كل هذا يخاطب روحي وعقلي.. ندوة على مستوى رفيع.. وعندما أسمع العزف المنفرد أشعر كأنني أستمع إلى خطيب.. فالخطيب مهما كان بليغا فلابد لي بعد فترة غير طويلة من أن أتمنى أن يسكت.

ولأضرب مثلا بفننا نحن في الغناء.. فقد يكون هناك مطرب مشهور بغناء الموال.. فمهما كان هذا المطرب محبوبا؛ فالموال هنا كالعزف المنفرد يعتمد على الارتجال والعفوية.. أقول مهما كان محبوبا فإنه لا يستطيع أن يأخذ من الزمن المحدد له في ليلته أكثر من ٢٠٪ وباقي الزمن يغني فيه دورا أو مونولوجا.. أي أنه لابد أن ينتقل بالسامع إلى عمل فيه دراسة.

هذا هو الفرق بين الخطيب البليغ الذي يخطب بعفوية وارتجال يحرك في أغلب الأحيان المشاعر وليس المشاعر والعقل معا.. وبين ندوة تستمتع فيها بالعلم.. والبراعة والجمال.

كيف تصل موسيقانا للعالمية؟

الموسيقى الغربية الكلاسيكية هي تشريح للنفس البشرية.. لقد شرح الجراحون جسم الإنسان ليتعرفوا على اعضاء الجسم المذهلة وما تقوم به من مهام خلقها الله تعالى لها.. وأما تشريح النفس البشرية وما فيها من متناقضات غضب ورضا.. عنف ورقة.. تفكير وتأمل.. وجدان.. ضمير.. شذوذ.. إلى آخر هذه الصفات المذهلة التي يشرحها ويعبر عنها الفن.. وهذا واضح في الموسيقى الكلاسيكية.. إنها تشريح عجيب جميل وذكي.. عميق لها في داخل الإنسان من متناقضات غريبة متغيرة.. إني أحس بهذا عندما أستمع إلى الموسيقى الغربية.

لا أرى علاقة مطلقا بين الحركات الثلاث في السيمفونية.. كل حركة منفصلة تماما عن الأخرى. ولقد قرأت أن السيمفونية هكذا لأن الملحن في السابق كان يكتب السيمفونية لتعزف في قصور الأمراء؛ ولذلك كان الملحن يقسمها على نظام الحفلة؛ فالحركة الأولى يسمعها الحاضرون فيجب أن تكون هادئة.. ويكتب الحركة الثانية سريعة ليرقصوا.. ويكتب الحركة الثالثة عندما يدخلون للطعام.

هكذا قسمت الحركات ليس لأسباب فنية ولكن للضرورة. إلى أن جاء بيتهوفن ولم يعبأ بهذا وجعل السيمفونية من حركة واحدة حتى أنهم سموا ذلك العهد بعهد بيتهوفن.

من أجل أن تجعل موسيقاك عالمية.. أي أن تجد لها جمهورا في أوروبا يجب أن تتمسك أولا بمحليتك.. أي أن تذهب وأنت مصري الموسيقى.. فمثلا إذا ذهبت إلى ألمانيا ومعك موسيقى أوروبية فلن يلتفت إليك أحد. أما إذا ذهبت بموسيقى مصرية متطورة فسوف تجد لها صدى جميلا هناك.. فكن محليا من أجل أن تكون عالميا.

إن البعض منا يتساءل: متى تكون موسيقانا عالمية؟

وهذه الكلمة لا قيمة لها إلا إذا فهمنا أن الغناء أو الصوت البشري ما هو إلا فرع من فروع هذا الفن الضخم الموسيقى.

في أوروبا عندما تظهر أغنية بالإنجليزية مثلا.. وتكون موسيقاها وتركيبها وإطارها وجمالها ذات قيمة يحذفون الكلام ويوضع عليه كلام آخر بأي لغة أخرى.. أو تسمع الموسيقى من غير كلام.. ما معنى هذا.. معناه أن الموسيقى هي الأساس. ■

كتاب الزاوية

مالكوم إكس
النصوص المحرمة

(٤)

لو عاد عيسى!

أن تكون مجرماً في الماضي.. هذا ليس عاراً. أن تبقى مجرماً.. هذا هو العار!

أنا كنت مجرمًا سابقًا. أنا لا أشعر بالخجل من ذلك. لا يمكنكم أبداً أن تهددوني بذلك. إنهم يهددونني بالعصا الخطأ. أنا لا أهتم بهذه العصا!

لقد اتهموا عيسى بالتحريض على الفتنة.. ألم يفعلوا ذلك؟! قالوا: إنه مع الشيطان! قالوا: إنه عنصري، لأنه قال لأتباعه: اذهبوا.. ليس في طريق غير اليهود وحسب، بل اذهبوا يقيناً في طريق النِّعاج الوضيعة.. اذهبوا إلى الناس الذين لا يعرفون هُويتهم.. الذين أضاعوا معرفة أنفسهم.. الغرباء في أرض ليست لهم.. اذهبوا إلى هؤلاء الناس.. اذهبوا إلى العبيد.. اذهبوا إلى مواطني الدرجة الثانية.. اذهبوا إلى هؤلاء الذين يعانون من وحشية قيصر وديكتاتوريته!

لو كان عيسى موجوداً اليوم هنا في أمريكا، فلن يذهب إلى الرجل الأبيض. الرجل الأبيض هو الظالم. سوف يذهب إلى المظلوم.. سوف يذهب إلى الذليل.. سوف يذهب إلى الوضيع.. سوف يذهب إلى المنبوذ والحقير.. سوف يذهب إلى من يسمونه بالأمريكي النيجرو.

"عتبات الكلام"

الهاشم اسمهر

ليس من باب العبث والهدر المعرفي أن تفني سنوات من البحث لدراسة نصوص موازية لمتونها، أو عتبات كتب مختلفة الحمولات والأبعاد. وعلى الرغم من أن الكلمة الفصل تعود لنتائج هذا البحث المحصلة من القراءة والتأمل والتحليل والنقد، إلا أنه من حقنا أن نبدي إن لم يكن رضانا وابتهاجنا، فلا أقل من الإقرار بجدوى ما أقدمنا عليه وأنفقنا في سبيله الكثير من الجهد.. إلى أن يتأكد العكس.

١ ـ أطروحة البحث

ينهض هذا العمل على الدعوى الآتية: إن الاهتمام بعتبات النصوص ـ بمختلف أصنافها ـ ليس وليد اليوم، إنما هو نتاج من تراكم خطرات وإرهاصات نظرية عبر مجالات تداولية متباينة نضجت شيئاً فشيئاً إلى أن صارت إلى ما هي عليه من الوضوح والكفايات. وإذا كان الأمر هكذا، فإن الإنجازات النصية ـ وقد اخترنا منها المحكي القصير ـ كانت على بينة من أهمية هذه العتبات، فاستثمرتها بأشكال ودرجات ومقاصد ووظائف متعددة.

تنبني هذه الدراسة ـ كما هو جلي ـ على مدماكين:

الأول: نظري ونقدي وتاريخي عملنا على بيانه وتوضيحه في المدخل العام لهذا البحث، إذ تطرقنا إلى تبلور الوعي بأنماط النصوص الموازية في المجالين التداوليين الإسلامي العربي والغربي، وذلك من خلال تتبع أهم الإسهامات في هذا المجال.

المدماك الثاني لهذه الدراسة تطبيقي استكشافي: حيث اخترنا ـ لدواع ستَرِد بعد حين ـ الاشتغال على متون متباينة في مضامينها، لكنها متقاربة في سمتها العامة. وكان علينا أن نقارب العتبات المحايثة لهذه النصوص في تجلياتها المختلفة، عاملين على التأكد من أن منتجيها كانوا يصدرون عن وعي حاد ـ مهما اختلفت مستوياته ـ بجلال قدر هذه المكونات العتبية.

٢ ـ مسوغات البحث

لسنا بحاجة إلى أن نحاجج لنبين أن وراء كل عمل بشري تكمن دوافع ذاتية أو غيرية أو موضوعية. وبالنسبة إلينا فثمة مسوغات ذاتية وغيرية وموضوعية لهذا العمل:

ـ المسوغات الذاتية: يأتي هذا البحث استجابة لنوازع قديمة في وجداننا لتحقيق حلم خجول عبرنا عنه ـ أستاذ سألنا ـ ذات مرة بعبارة فيها كثير من السذاجة اللذيذة: «أن أصير كاتباً عمومياً»! لم «نحسن» القول، لكن يبدو أننا أنجزنا اليوم الكتابة على الأقل. وفي مرحلة لاحقة كان الأمر أكثر وضوحاً: صعود أكبر قدر ممكن من الدرجات العلمية. أما اختيار مجال الدراسة وموضوعها، فلاعتبارين اثنين: الرغبة في مواكبة الإسهامات المعاصرة في حقل النصوص الموازية، والانقياد وراء مطمح قوي في ولوج عوالم سردية كانت دائماً مثيرة، فالنصوص الإخبارية تعطينا الإحساس بموقع الذات إزاء الآخرين، والنصوص الكرامية أثثت عالمنا وخيالنا الفتي بما سمعناه حولنا من محكيات وما رأيناه من طقوس كانت تبعث على الرهبة، فكأن الوقت قد حان للكشف والقصاص». أما النصوص التي تشيع فكاهة، فأردنا منها أن تدخل بعض البهجة إلى حياتنا التي أضحت أكثر ميلاً إلى الثبات والملل!

ـ المسوغات الغيرية: ثمة أشخاص علينا أن نعترف لهم بالتحفيز على إنجاز هذا العمل: فضيلة الدكتور عبد النبي ذاكر الذي رعى هذا البحث منذ كان مشروعاً يعوزه الكثير من الدقة، وسايره بتوجيهاته السديدة واقتراحاته النيرة إلى أن اتضحت معالمه، فله جزيل الشكر، ونرجو له حسن الجزاء عند الله تعالى. والأساتذة الأجلاء في وحدة خطاب المقدمات والعتبات في الأدب العربي، لما أبدوه من التفهم والرعاية والنصح، فلهم جميعاً كامل التقدير. ولأخينا الدكتور المحفوظ أسمهر وفير الاحترام على أياديه الكثيرة علينا وعلى تشجيعه وتحمسه المستمر لإتمام هذا العمل.

ـ المسوغات الموضوعية: نجملها فيما أضحى يشكله موضوع العتبات وما يثيته من الجدوائية، على الرغم من أنه مبحث ليس جديداً جدة مطلقة. إضافة إلى ما تطرحه النصوص السردية من القضايا باستمرار، وعدم الإقبال على مقاربة عتباتها، مقارنة مع ما خصص من أبحاث لبنياتها النصية بمختلف المنظورات والمناهج.

٣ ـ متن البحث

اشتغلنا في هذا العمل على نوعين من المتون: متون نظرية وتاريخية ونقدية، ومتون سردية:

ـ المتون النظرية والتاريخية والنقدية: وتتمثل في المصادر اللغوية والنقدية والبلاغية، وتلك المتعلقة بعلوم القرآن التي حملت الإرهاصات الأولية على العتبات في المجال التداولي الإسلامي العربي، إضافة إلى المراجع العربية والغربية الحديثة والمعاصرة في الموضوع نفسه. وهي متون مكنتنا من استجماع العناصر والأفكار والتصورات التي تصب في خانة النصوص الموازية.

ـ المتون السردية: وهي تنقسم إلى ثلاث مجموعات: متون خبرية تمتد عبر مسافة زمنية طويلة (من القرن الثالث إلى القرن الحادي عشر الهجريين). وهي متون تضمنت أخبارا عن فئات مختلفة (الحمقى ـ الأذكياء ـ البخلاء ـ العشاق ـ الظراف...)، إضافة إلى طابعها المنفتح على موضوعات متعددة. المجموعة الثانية تضم المدونات الكرامية، وهي متون تحفل بكل مظاهر الغرابة وتبعث على التعجب من خلال ما تثبته للأولياء من خرق سنن الحياة وإكراهات الطبيعة. وأخيراً، فإن المجموعة الثالثة تشمل سجلات من الطرف التي تحتفي بالفكاهة وتستثير الضحك (أو الابتسام على الأقل) وتعبث بالمواضعات الدينية



من مخطوطة لابن بطوطة ـ المكتبة «الوطنية» (مدريد)

عتبات المحكي القصير
في التراث العربي والإسلامي
الأخبار والكرامات والطرف
د. الهاشم اسمهر
بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨، ٤١٦ صفحة

والاجتماعية والسياسية، ساعية إلى الاقتصاص من الجميع.

وإذا كانت المتون الأولى لا تحتاج إلى تبرير الاعتماد عليها، فإن المتون السردية قد تبدو للبعض متنافرة. لكننا نبادر إلى القول إنها مشمولة بالانتماء إلى خانة «المحكي القصير»؛ فأغلب هذه المتون عبارة عن وحدات سردية قصيرة حول شخص محدد متميز - مثلاً - ببخله أو بولايته أو بذهوله وتصلبه. إنها - أخيراً - متون بينها خيط رفيع رابط يبدأ بالفريد (الأخبار) ويمر بالمبهر (الكرامات)، وينتهي بالممتع (الطرف)؛ وهذا يسمح بتتبع عتبات نصوص متنوعة لا يعوزها التكامل.

٤ - «منهج» الدراسة

لم نسع في هذه الدراسة إلى الانقياد لمنهج نقدي بعينه مخافة السقوط في شرك السكونية والرتابة والوثوقية. لكننا اتبعنا مسلكاً للتناول والمقاربة يرتكز على أربعة محددات: الوصف والتحليل والنقد والموازنة.

- الوصف: اقتضى منا موضوع بحثنا جرد المكونات العتبية المحايثة (العناوين - الخطب - المقدمات...)، وتقديمها بما يلزم من الوضوح في العرض. لهذا ستفهم لماذا الاستشهادات كثيرة في هذا العمل. ومدار الأمر وأسه أن نترك فرصة للعتبات حتى تشي وتعلن عن نفسها بكل الدقة الواجبة تمهيداً لتحليلها.

- التحليل: عملنا على تفكيك هذه النصوص الموازية إلى عناصرها الجزئية على صعد شتى: النحو والتركيب والدلالة، كما استخرجنا الوظائف والأبعاد والمقاصد والرهانات وأنواع الخطاب.. وفي كل الأحوال كان منطلقنا هو سبر أكبر عدد ممكن من المكونات وتصنيفها وتقسيمها إلى فئات وأنماط ومجموعات قابلة للاستثمار والتمحيص والمساءلة والنقد.

- النقد: إن الخطوة السابقة تجل من تجليات النقد - بمعناه الواسع. لكننا نعني هنا بالنقد كشف بعض مظاهر الاضطراب و«القلق» الأسلوبي والمعرفي وكشف بعض مكامن «التفريض» والتهافت، ليس بحثاً عن «نقاء» متوهم على كل حال. ونعترف أننا وظفنا لغة تجللها الدعابة في كثير من المواقف تكسيراً لجفاف التحليل من جهة، وممارسة مشروعة للتقويم من جهة أخرى.

- الموازنة: التجأنا في مواضع عدة من هذا البحث إلى مقابلة معطيات متعددة (سواء في المدخل العام أم في الأبواب الثلاثة أم في خاتمة البحث)، وذلك على سبيل معرفة درجات الحضور والغياب، والخفاء والتجلي، والبساطة والتركيب، والكثرة والقلة.. مع ما في هذا من الترجيح لا بهدف التفضيل والإقصاء، لكن بغاية الكشف والاستنتاج بالدرجة الأولى.

في ثنايا هذا البحث، ترددت مصطلحات لم نر أي عائق إبستمولوجي ومنهجي في توظيفها، وذلك لشيوعها أولاً، ولكفايتها الوصفية والتفسيرية ثانياً، ولطابعها الإجرائي العملي ثالثاً، وهكذا نصادف: الهيمنة - الوظيفة الشعرية - تعدد الأصوات واللغات - أفق الانتظار والتوقع.. لقد أضحت هذه المصطلحات خالية من كل خلفيات فكرانية، أو تكاد تخلو منها.

٥ - صعوبات إنجاز البحث

لا بد من الإقرار بأن البحث يؤاخي - بدرجات متفاوتة طبعاً - إكراهات تحد بنسبة كبيرة من امتدادات البحث وطموحات الباحث. وفي حالتنا، ثمة جملة من العراقيل واجهتنا - بغير قليل من الشراسة - نجملها فيما يلي:

- عدم التنسيق بين المؤسسات الجامعية والعلمية لإرشاد الباحثين إلى النصوص المحققة وتلك التي مازالت تنتظر جهود التحقيق؛ فكثيرة هي الكتب التي خصصنا قسطاً من الوقت والجهد لمخطوطاتها، قبل أن يتبين لنا أنها محققة، والشيء نفسه بالنسبة إلى الأطروحات الجامعية التي ما أن نطمئن إلى الاستفادة منها وهي مرقومة حتى نفاجأ بنشرها بعد أسابيع أو قبلها بسنوات!

- لا جدية بعض المؤسسات الثقافية التي طلبنا مساعدتها على البحث عن مراجع ومصادر في بلدان أجنبية (من أطرف ما حدث لنا أن مركزاً ثقافياً لدولة عربية اقترح علينا أحد القائمين عليه أن نتوجه إلى الوكالات السياحية لتتكلف بجلب هذه الكتب من دولتها المبجلة).

- غياب المساندة المالية من وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي (بحسب التسمية الجديدة!) التي نحن أحد المنتسبين إليها بسبب نرجو ألا ينقطع يوماً ما.. فقد توجهنا إلى المكتب المكلف بالاستيداع طالبين سنة للتفرغ لإنجاز هذا العمل، فكان الجواب أقسى ما يمكن أن يتصوره المرء: نعم، هذا ممكن شريطة توقيف أجرتكم كلية. وشريطة.. لا أحب لكم معرفة المزيد.

وبعد...

هذا ما استطعنا عمله وما قدرنا على إنجازه، ونرجو صادقين أن يأتي يوماً من يتجاوزه، ويجبر كسوره، ويتجنب عثراته.

كتاب الزاوية

مالكوم إكس

النصوص المحرمة

(٥)

أنت لست محايداً(*)

المذيع: أنت ولدت في مدينة أوماها (في ولاية نبراسكا).. هل هذا صحيح؟

مالكوم: نعم.

المذيع: وعائلتك غادرت أوماها عندما كنت تبلغ.. ماذا؟! سنة واحدة؟

مالكوم: أعتقد سنة واحدة.

المذيع: لماذا غادرتم أوماها؟

مالكوم: الكوكلوكس كلان أحرقت منزلنا في أوماها، هناك الكثير من الكوك... (مقاطعة).

المذيع: هذا جعل عائلتكم غير سعيدة بالتأكيد.

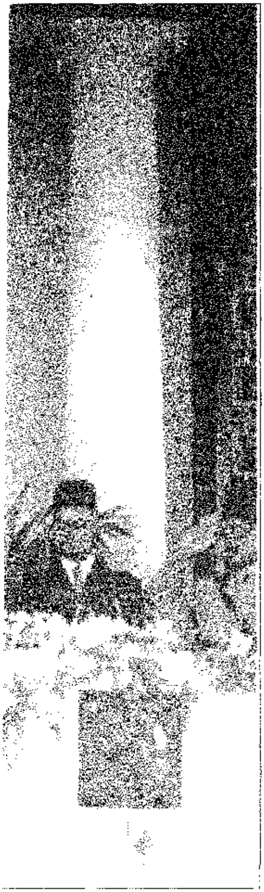
مالكوم: «غير آمنة».. أكثر من «غير سعيدة»!

المذيع: ولهذا أصبحت لديك وجهة نظر متحيزة.. رأي شخصي متحيز.. أو بعبارة أخرى: لا يمكنك أن تنظر إلى هذه القضية بتجرد أكاديمي؟!

مالكوم: هذا غير صحيح؛ لأنه بالرغم من كون هذه الحادثة حصلت في أوماها، فعندما انتقلنا إلى مدينة لانسينج (في ولاية ميتشيجن) قامت الكوكلوكس كلان بإحراق منزلنا مرة أخرى! وفي الواقع، الكوكلوكس كلان قتلوا والدي!

* مقطع من مقابلة تليفزيونية

يوسف الشريف



مجهولو المشاهير

«الأمير عمر طوسون»

تصدر اسمه قائمة الملفات السرية الخاصة لوزارة الخارجية البريطانية عن عام ١٩٣٧ ويحمل عنوان «الشخصيات الرئيسية في مصر»

■■ هناك ولا شك صفحات مضيئة لكنها منسية في تاريخ مصر لعدد من الشخصيات المتميزة التي أسهمت في تقدمها وتراثها الحضاري على أكثر من صعيد، وبينهم الأمير عمر طوسون حفيد الخديو سعيد، ذلك الباحث والسياسي الوطني والقومي الغيور الذي لا يزال في مسيس الحاجة لاستجلاء صورته الوضيئة وسبر اغوار سيرته الذاتية العطرة، إذ على ما تبدو الشواهد أن غالب ما تناولته الصحافة والسينما أو المسرح حول حياة أسرة محمد على إثر اندلاع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، شابه قدر من التجني والابتسار لأدوار ومواقف مشرفة لعدد من الأمراء والأميرات، ممن يشي تاريخهم بالوطنية والاستنارة والعطاء في مجالات العمل السياسي والاجتماعي، ورعايتهم للفنون والآداب وحدبهم على الاكتشافات العلمية!

والحقيقة أن الكثير من الوقائع الإيجابية الثابتة قد شدتني تباعاً وعلى نحو خاص لإنصاف ذلك البعض من الأميرات والأمراء في سياق اهتمامي بتقصي أبعاد السيرة الذاتية العطرة للأمير عمر طوسون الذي ساد وصف حاشية الملك فؤاد له بالأمير الخطير، ويبدو أن ذلك كان اعتقاد الاحتلال البريطاني أيضاً، فقد تصدر اسمه قائمة الملفات السرية الخاصة لوزارة الخارجية البريطانية عن عام ١٩٣٧ ويحمل عنوان «الشخصيات الرئيسية في مصر» Leading Personal ties in Egypt ويضم ١٣٢ من الشخصيات العامة بينهم أربعة من الأسرة المالكة وهم الأمير محمد علي ولي العهد والأمير عمر طوسون والنبيل عباس حليم، ثم الأمير يوسف كمال!

كان عدد أفراد الأسرة المالكة قد حدده الأمر الملكي الصادر في ٤ يوليو ١٩٢٢ بنحو ثمانين شخصية، بينهم ٢١ أميراً و١٩ من الأميرات و١٥ من النبلاء و١٤ من النبيلات، بينما لم يكن لمعظمهم شأن يذكر، إذ كان شغلهم الشاغل ممارسة هواياتهم الخاصة واقتناء التحف الثمينة والاستمتاع بالرفاهية، والسفر خارج مصر الى أوروبا وخاصة إيطاليا وفرنسا، حيث اقتنوا في الدولتين وكذا البوسفور في تركيا قصوراً رحيبة فخمة!

وحسبما جاء في الملف السري البريطاني فقد اشتهر الأمراء الأربعة بالبروز في جانب بعينه من جوانب العمل العام:

الأمير محمد علي ابن الخديو توفيق أكبر أبناء الأسرة المالكة، كان ولوعاً برحلاته الاستكشافية الخارجية، خاصة جنوب أفريقيا والهند وجاوة، ثم الكتابة عنها بعدة لغات، فيما كانت هوايته الأثيرة الاهتمام بالمحافظة على طرز البناء الإسلامي كما في قصره المنيف بمنيل الروضة وحديقته البديعة المرصعة بالتماثيل البرونز والرخام، ورعاية الحرفيين المتخصصين في فنون الأرابيسك بأنواعه من المقرنصات والماموني والفاطمي والكنيسي المليان والكنيسي الفاضي والتطعيم بالصدف وعاج الفيل، وكان قد اختار فنان إيطالي اسمه برويز للإشراف على هذا النشاط، أما التشغيل فكان لأحمد السيد المنيلاوي كبير الحرفيين في فنون الأرابيسك الذي خلف وراءه تحفاً نادرة في هذا الفن، وإلى ذلك كانت عضوية الأمير محمد على في الجمعية الماسونية حتى استقال منها في ظروف غامضة!

النبيل عباس حليم حفيد الأمير محمد على عبدالحليم ابن محمد علي، وقد لعب دوراً مختلفاً عبر انغماسه في الشأن السياسي بشكل غير مسبوق ولا معهود في الأسرة الملكية، فهو قد أصدر بياناً عام ١٩٣٠ يطالب الملك بإعادة حزب الوفد إلى الحكم، بل وينذره بالمخاطر التي تترتب علي عدم الأخذ بنصيحته، والتي كانت تصل في تقديره إلى الحرب الأهلية، فيما كان العمل النقابي نصب حياته وعطائه، عبر الانتصار لحقوق



الأمير فاروق ولي العهد يشاهد مباراة للكرة في ملعب بلدية الإسكندرية وعلى يمينه الأمير عمر طوسون وأنجاله وعلى يساره رئيس الوزراء وأمناء الملك

العمال والسعي إلى إنصافهم وضمان أجورهم العادلة، وتحديد ساعات عملهم اليومي بشكل إنساني، والتأمين على حياتهم ضد العجز والمرض وإصابات العمل، ولذلك كان موضع عداء كبار الرأسماليين والقصر الملكي والإنجليز، فكان أن ألقي في السجن فترة من الوقت، وتنزيل رتبته من نبيل إلى مجرد أفندي عادي كأي موظف حكومي بسيط!

أذكر عندما كان رئيساً منتخباً لنادي السيارات، عنايته الشخصية الفائقة بمظهر ضباط وكونستبلات، وعساكر المرور، وتنظيم دورات تثقيفية لرفع مستوى أدائهم الحضاري، وتوزيع المكافآت عن حسن تعاملهم مع ركاب السيارات ونجاحهم في انسياب حركة المرور، وكان يدفع من حر ماله مبالغ كبيرة لتوزيعها جوائز على المميزين بينهم، فضلاً عن إشرافه الدوري للتأكد من عمل إشارات المرور ووضع كتيبات وخرائط للشوارع والميادين والمؤسسات الحكومية، وتركيب اللافتات الإرشادية الأنيقة في كل مكان بالعاصمة والإسكندرية حتى إن السائح كان يصل عبرها إلى المكان الذي يقصده بسهولة دون حاجة إلى السؤال كما لو أنه في لندن أو باريس!

البرنس كمال الدين حبيب

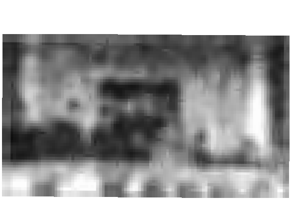
وتشاء مصادفات العمل الصحفي مشاركتي في ثمانينيات القرن الماضي في بعثة علمية ضخمة نظمها الدكتور محمد البهي العيسوي مدير هيئة المساحة الجيولوجية آنذاك، إلى منطقة «الجلف الكبير» وهو المثلث الصحراوي الذي يقع بين الحدود المصرية والسودانية والليبية وكانت القافلة تضم علماء وخبراء في الجيولوجيا والفلك وعلوم الفضاء من مصر وأمريكا وهولندا وبريطانيا والسويد، وكانت للبعثة ثلاث مهام: الأولى استكشاف بقايا نيزك انفجر في الفضاء منذ آلاف السنين، وعبر سقوط أشلائه من الارتفاعات الشاهقة اختلطت برمال الصحراء وهي ساخنة، حيث تشكلت قطع بلورية شفافة تسمى «سيلكا جلاس»!

المهمة «الثانية» للبعثة كانت محاولة البحث عن بقايا نباتية وحيوانية ومائية متحجرة منذ كانت هذه المنطقة الصحراوية مأهولة بالسكان وغزيرة الأمطار ومزرعة للقمح حتى أيام الغزو الروماني لمصر.. وأدركت أن هؤلاء العلماء يتوقعون دورة قادمة للمناخ قد تعيد هذه المنطقة إلى سالف عهدها بالناس والزراعة والصيد!

أما المهمة «الثالثة» فترتبط بالمهمة السابقة، وتعني باستقراء الطبيعة لحالة المناخ ودرجة الحرارة المتوقعة خلال القرنين ٢١ و٢٢، مما قد يهدد بذوبان الجليد في القطب الشمالي، إذ ما ارتفعت الحرارة درجة أو أكثر، وغرق أوروبا ودمار الحضارة الأوروبية بالتالي، وربما العديد من المناطق المنخفضة عن سطح البحر في أفريقيا.

ولأن منطقة الجلف الكبير قارية المناخ، مرتفعة الحرارة نهاراً وشديدة البرودة ليلاً، وهي لذلك قفر من أي مظهر للحياة الإنسانية والحيوانية أو النباتية، وحين دخلها قمبيز على رأس جيشه العرمرم في طريقه إلى شمال أفريقيا، كان مصيره الفناء بعدما تاه في الصحراء وفرغت الجرار الفخار من آخر نقطة ماء!

الوحيد الذي دخل هذه المنطقة في القرن التاسع عشر كان عالم جيولوجيا ألمانيا اسمه زيتل. كان الخديو إسماعيل قد استدعاه لإعادة اكتشاف الجلف الكبير ووضع خريطة جيولوجية للمنطقة، وكان قد سبقه إليها فريق من البدو على الجمال، حيث تركوا في كل منطقة على خط سير رحلة زيتل جراراً فخارية من الماء، فكاد مصيره أن يلحق بجيش



مجهولو المشاهير

قميز عندما فرغت كذلك من أي نقطة ماء، ومن ثم أسرع قبل أن يلقى هو ومعاونوه حتفهم إلى كتابة تقرير مفصل عن مهمته وكلمة وداع لأسرته ووضعه داخل زجاجة فارغة، ثم إذا به يلمح فجأة عن بعد، شجرة مخضرة الأوراق، وراح ومعاونوه يحفرون بهمة إلى جوارها بكل ما لديهم من قوة وتشبث بالحياة و... حتى وصلوا إلى المياه الجوفية وكتبت لهم الحياة!

أما بعثة هيئة المساحة الجيولوجية المصرية فكانت قد أعدت عدتها لمواجهة كل الاحتمالات، ومن عجب أن تفشل كافة طرز سيارات الدفع الرباعي في تسلق كثبان الرمال الناعمة التي يطلق عليها الجيولوجيون اسم «غرود»، وأن تنجح فحسب سيارات الجيب الروسية المتهالكة التي تخلفت عن مشروع السد العالي في المهمة بكفاءة عالية!

فجأة طالعتنا آثار جنازير مدرعة لا تزال محفورة على صفحة الرمال، وتوقعنا بالتالي أن تكون قوات مدرعة من الجيش قد سبق ارتيادها للمنطقة منذ فترة قصيرة. لكن الدكتور البهي العيسوي قال إن هذه الآثار دالة على رحلات البرنس كمال الدين حسين لهذه المنطقة في الأربعينيات، وأن هذا الأمير كان مولعا بدعوة أصدقائه وصديقاته الأجانب لصحبته في استكشاف المناطق الصحراوية المجهولة ثم الكتابة عنها في الدوريات الجيولوجية وأدب الرحلات، وضمانا للنجاح في تسلق الغرود، كلف شركة «كاتر بيللر» الأمريكية بتصنيع عربات ذات دفع رباعي تمشي على سيور من الجنازير أشبه بالمدرعات!

راعي الفنون الجميلة

وإذا كانت مصر قد احتفلت مؤخراً بالعيد المئوي لإنشاء جامعة القاهرة، فقد بدأت عهدها عبر التعاون في بنائها بين رموز الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل وعدد محدود من أمراء وأميرات الأسرة المالكة، حيث تبرعت الأميرة فاطمة إسماعيل بأثمن ما تملكه من المجوهرات المرصعة بالماس، وكذا القصر الذي كانت تسكنه آنذاك وسمي من بعد «قصر جناكليس» وتشغله الجامعة الأمريكية الآن، وهي التي استحثت العائلات المصرية الثرية وخاطبت ملوك وأمراء أوروبيين وكبار المهندسين للمساهمة في بناء الجامعة عام ١٩١٤، فكان افتتاحها باسم الجامعة المصرية عام ١٩٢٥، وحتى تحول اسمها من بعد إلى جامعة فؤاد الأول، ثم جامعة القاهرة مع بداية ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.

على أنه سبق افتتاح الجامعة المصرية افتتاح أول مدرسة للفنون الجميلة بحي درب الجماميز في مايو ١٩٠٨، حيث تضافر على بنائها شخص واحد هو الأمير يوسف كمال حفيد إبراهيم باشا الذي تبرع بقصر يملكه مقراً للمدرسة، وتكفل بكل أعباء التجهيز والتأثيث، وإلى ذلك كانت إسهامات الأمير في دعم المؤسسات العلمية والثقافية أواخر القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، فضلاً عن إنفاقه السخي على ترجمة الكتب الأجنبية المهمة، بل وقام شخصياً بتأليف موسوعة جغرافية ضخمة حول علاقة مصر بأفريقيا عرفت باسم «الموسوعة الكمالية»!

على أن مدرسة الفنون الجميلة لم تنشأ من فراغ، إذ كان المجتمع المصري تواقاً مترقبا لها منذ عصر محمد على باني مصر الحديثة، حيث شهد عصره إنشاء «مدرسة العمليات» عام ١٨٣٩، حتى تغير اسمها ودورها فيما بعد إلى «مدرسة الفنون والصنايع» والتي تعد سلفاً لكلية الفنون التطبيقية الحالية، وقد مهد لظهورها ذلك الدور الرائد للنهضة الحديثة على يد رفاعة الطهطاوي، عبر كتاباته القيمة في وصف المتاحف ودور الآثار التي سبق وشاهدها خلال بعثته الدراسية في باريس، حيث ظهرت مجموعة من التماثيل البديعة لأول مرة لعدد من الشخصيات التاريخية البارزة مثل محمد علي وإبراهيم باشا ومحمد بك لاظوغلي والخديو إسماعيل، وكما زينت تلك التماثيل الميادين والحدائق العامة، رافقها كذلك مجموعة الجداريات الفنية البارزة والغائرة، ولا شك أن هذا الزخم الحضاري ساهم في ترقية الذوق والتذوق الفني وأصبحت علامات ثقافية لدى الطبقات العليا المستنيرة ورافداً للثقافة الشعبية بوجه عام، خاصة وقد أجيزت شرعية الإبداعات الفنية من الإمام محمد عبده الذي أكد أن الفنون الجميلة مثل الرسم والنحت ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع، وقد تأثر الأمير يوسف كمال بهذه الآراء، فمضى حثيثاً إلى الاستعانة بصديقه المثال الفرنسي لابلانى الذي تحمس لمشروع مدرسة الفنون الجميلة وتعهد برعايتها، إضافة إلى عدد من الأوروبيين المقيمين في مصر من المتخصصين في ضروب الفنون في وضع مناهجها الدراسية.

يقول بدر الدين بوغازي في كتابه القيم «مختار. حياته وفنه» إن مدرسة الفنون الجميلة فتحت أبوابها للدارسين بالمجان دون التقيد بشروط الحصول على شهادات دراسية، فالتحق بها نحو ٤٠٠ طالب دون التقيد بالجنس أو السن أو البيئة، ثم تقلص عددهم تباعاً عبر اختيار الموهوبين والنوابغ من بينهم تحت إشراف الأساتذة الأجانب مثل لابلاني وفورشيلا وبيرون، وكان من بينهم محمود مختار ومحمد حسن وراغب عياد ويوسف كمال، حيث تخرجت الدفعة الأولى عام ١٩١١ بعد أن نالوا قسطاً من التعليم العالي في فرنسا على نفقة الأمير يوسف كمال، وأقاموا أول معرض لإبداعاتهم في نادي «الأتوموبيل المصري»، وبعدها انتقلت المدرسة إلى مقرها الحالي في فيللا عبود باشا بالزمالك. فكانت فاتحة لعصر جديد في تاريخ الفن المصري الحديث، حسبما أرخ لها الدكتور عبدالمنعم الجميعي في كتابه الوثائقي «مدارس عليا ساهمت في إنشاء الجامعة المصرية».

أفـــراح الأنجـــال

أما الأمير محمد طوسون حفيد محمد علي باشا النجم اللامع في الأسرة الملكية، فقد قدر له أن يقود حملة عسكرية إلى أراضي الحجاز ولم يكن قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وهو كان أشهر عريس ملكي في احتفالية «أفراح الأنجال» أواخر القرن التاسع عشر، وشهدت زواج فاطمة ابنة الخديو إسماعيل، وهي الأميرة التي سبق ونوهنا بتبرعها لبناء الجامعة المصرية سواء بمجوهراتها والأرض التي أقيمت عليها، في الوقت الذي شملت أفراح الأنجال كذلك زواج ثلاثة من أولاد الخديو إسماعيل هم محمد توفيق وحسن حسين كامل!

كان الأمير محمد طوسون قد سبق له الزواج وأنجب بين أولاده عمر الذي ظل وفيا للإسكندرية التي شهدت مولده في سبتمبر عام ١٨٧٢، بينما فضل معظم أمراء أسرة محمد علي الإقامة بالقاهرة مركز الحكم والنفوذ، وعلى نهجه كان ابنه الأمير الحفيد عمر طوسون الذي لقب بأمير الإسكندرية، فضلاً عن العديد من الألقاب الدالة على ميوله ونشاطاته السياسية والاجتماعية والثقافية المتباينة، وبينها نصير الفقراء ونصير فلسطين ونصير السودان ونصير العلم... إلخ.

فقد الأمير والده وهو في الرابعة من عمره، وتولت تربيته جدته لأبيه التي حرصت على أن ينال أرقى تعليم آنذاك في قصره عبر مجموعة من المدرسين الأكفاء، وبعدها استكمل تعليمه الأكاديمي في سويسرا، ولم تسمح جدته بعودته إلى مصر قبل أن يقوم بجولة لكسب المعارف ميدانياً في ربوع أوروبا، حيث أجاد اللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية، كما نهل قسطاً وافراً من العلوم والثقافة والفنون التي أهلته للقيام بدور مقدر في نهضة بلاده بعد عودته إلى مصر، حيث تفرغ في البداية لإدارة أملاكه الزراعية وتطويرها حتى تضاعفت ثروته، وهي نفس البدايات الناجحة في حياة جده الخديو إسماعيل، مما حدا بالبعض من الأمراء أن يسندوا إليه إدارة تفاتيشهم الزراعية!

ورغم أن تلك النجاحات كانت تعود عليه بالمنافع الشخصية، إلا أنه كان حريصاً على النفع العام، حيث استوعب في إدارتها الآلاف من الفلاحين والمهندسين والفنيين الذين تعهدهم بالتعليم والتدريب، كما فتح أبواب الوظائف للمسيحيين والسوريين «الشوام» انطلاقاً من إيمانه بالوحدة الوطنية القومية!

كان الأمير عمر طوسون يختلف عن أمراء الأسرة العلوية في حسن التعامل والاختلاط بالعوام من أبناء الشعب المصري، وأكثرهم فهماً وتجاوباً مع الفلاحين الذين كانوا يعملون في مزارعه، حيث أسقط عنهم الضرائب والديون التي كانت تسود حياتهم وتكبل طموحهم، بل وتنازل لهم عن مساحات شاسعة من أملاكه الزراعية، بقدر انفتاحه السياسي من بعد على القضايا الوطنية والعربية والإسلامية، فهو الذي أهاب بالمصريين مد يد العون السياسي والإنساني لنصرة الإمبراطورية العثمانية إبان خوضها الحرب ضد إيطاليا، ثم في حربها الثانية ضد البلقان، لكن تشاء تصاريف القدر أن ينتصر الحلفاء وتحتل عاصمة الخلافة العثمانية ويسقط السلطان عبدالمجيد، فيما يذكر له التاريخ دوره الشخصي ضمن صفوف المقاومة العربية في الدفاع عن طرابلس الغرب «ليبيا» عام ١٩١٠،

أمام الشائعات حول أطماعه في العرش انصرف الأمير عمر طوسون إلى بدائل للعمل السياسي

وقيادته حملة الهلال الأحمر لإغاثة منكوبيها، ثم التفرغ للدفاع عنها في الصحف والمحافل الدولية.

القضية الفلسطينية والحركة الصهيونية

كذلك حظيت القضية الفلسطينية بدعمه، حيث شن حملاته السياسية الدعائية المعارضة لسياسات بريطانيا التي كانت تمالئ الحركة الصهيونية، وإليه يرجع الفضل في طرح فكرة تشكيل الوفد المصري لعرض حقوق مصر الوطنية في الاستقلال عن بريطانيا على مؤتمر الصلح في فرساي عام ١٩١٨، فلما طرح الفكرة على سعد زغلول وافق عليها وتبناها بالفعل لكنه استبعده من بين شخصيات الوفد، وحتى كتب سعد زغلول في مذكراته يعترف بانفراده بالفكرة بعيداً عن صاحبها وانه كان يستحق عليها تمثالاً من الذهب. وكان عمر طوسون قد استاء من هذا الاستبعاد، لكن سعد زغلول عاود الاتصال به واسترضاه، فكان دعمه له بلا حدود إبان ثورة ١٩١٩، فيما كان دوره مشهوداً في قيام حزب الوفد، رغم أنه كان من أنصار الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل.

ويذكر التاريخ أن أكثر الرجال إنفاقا في هذه المرحلة كان الثري الأمثل أحمد باشا المنشاوي الذي أوقف ألف فدان على الأعمال الحربية، بينما كان الأمير عمر طوسون يوظف تبرعاته السخية بشكل مؤسسي على نشاطات الجمعية الخيرية الإسلامية بعدما تعثرت مالياً وكادت تتوقف عن أداء رسالتها، بل وامتد عطاؤه بالتوازي في دعم مشروعات الجمعية القبطية، كما تبرع لمدرسة البطريركية الارثوذكسية وعلى المشغل البطرسي وعلى جمعيات الشبان المسلمين والمواساة والعروة الوثقى!

الأورطة المصرية في المكسيك

إلى ذلك كان نشاطه غاية في الحيوية والاهمية على صعيد الترقية النوعية للزراعة في مصر، إثر رئاسته للجمعية الزراعية الملكية التي كان قد أسسها السلطان حسين كامل، وخصص مكافأة مالية قدرها خمسة عشر ألف جنيه لمن يبتكر علاجا لإبادة دودة القطن الذي كان يمثل عماد الدخل القومي وقتئذ!

على أن الأمير عمر طوسون كان له شأن ثقافي رفيع، فهو كان ضليعاً في اللغة العربية واعياً بتراثها ونثرها وشعرها وكان له أسلوب رصين ورشيق. وقد تجلى ذلك في مؤلفاته ومقالاته العديدة بالعربية والفرنسية، وبينها ما يتعلق بالشئون العسكرية مثل كتابه عن الجيش المصري في عهد محمد علي بعنوان: «صفحات من تاريخ مصر والجيش البري والبحري»، ثم كتابه عن «الأورطة المصرية في حرب المكسيك»، و«الجيش المصري في الحرب الروسية» المعروفة آنذاك بحرب القرم، وكتابه عن «الصنائع والمدارس الحربية»، ثم مذكراته عن تاريخ نهر النيل و«مصر في العصر العربي»، ثم كتابه الخطير عن ضحايا مصر في السودان الذي كشف مؤامرة الإنجليز في الوقيعة بين مصر والسودان، وكان قد أولى السودان بالدراسات العلمية والميدانية وبينها كتابه عن المديرية الاستوائية. وهو إلى ذلك كان يقتفي أثر رفاعة الطهطاوي عبر اكتشاف النجباء من أبناء السودان وتعهده برعايتهم وتعليمهم على نفقته الخاصة بمصر وأوروبا، إذ كان يرى مصر امتداداً شمالياً طبيعيا للسودان، كما أن السودان امتداد جنوبي طبيعي لمصر، وان كلا البلدين لهما تاريخ واحد وأمن قومي متصل لا يتجزأ، وهو قد اختار في العشر سنوات التي سبقت رحيله في يناير ١٩٤٤ أن يهدي مؤلفاته ومكتبته النادرة إلى المتحف الحربي بالقاهرة والمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية وإلى بلدية القاهرة، حيث ورثت مكتبة الإسكندرية في عهدها الجديد كل هذا الزخم المعرفي والإبداعي!

أما على صعيد رحلاته الاستكشافية فينسب له شخصيا اكتشاف رأس تمثال الإسكندر الأكبر في خليج العقبة، ورغم صفحات العطاء بلا حدود التي خلدت الأمير عمر طوسون، فقد كانت له كبوة سياسية وطنية اعتذر عنها بعد فوات الأوان، حين تخلى عن دعم الاقتصادي الكبير طلعت حرب في النهوض بمشروع بنك مصر، لكنه كفر عن خطيئته بعدئذ عبر دعم «مشروع القرش» الذي دعا إليه أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة لإنشاء مصنع لإنتاج الطرابيش محلياً، إذ كان يتم استيرادها آنذاك من الخارج!

ويلاحظ أن الأمير عمر طوسون كان يتحاشى استياء الملك فؤاد من نشاطه السياسي، فكان يوظف طاقاته الفكرية والإبداعية في الكتابة تباعا خاصة في صحيفة الأهرام التي رحبت بعرض مواقفه وآرائه منذ العشرينيات، وهي الفترة التي تزامنت مع ذلك العهد الذي هيمن على أوضاعه السياسية والأمنية إسماعيل صدقي عبر رجله زكي الإبراشي صاحب القبضة الحديدية!

المؤامرة على تقسيم السودان

وهكذا أمام كم وألوان الشائعات حول أطماعه في العرش انصرف الأمير عمر طوسون إلى بدائل للعمل السياسي، وأعطى اهتماماته للدراسات التاريخية، والتعبير عن آرائه الاجتماعية وكانت أقرب إلى مواقف الحزب الوطني، بالتوازي مع جهوده المتصلة في سبر أغوار المسألة السودانية، ويسجل عدد صحيفة الأهرام الصادر يوم ١١ أبريل ١٩٣٤ تلك الخطابات المتبادلة بينه والسيد علي الميرغني زعيم طائفة الختمية في السودان، ونعرف من خلالها كم كان الميرغني حريصاً على تمتين لحمة العلاقات التاريخية والأواصر الاجتماعية والثقافية والروحية بين الشعبين السوداني والمصري، وأن كليهما شركاء في السراء والضراء، ثم يشير إلى هبات الأمير السخية في إعمار المساجد وافتتاح المدارس والمعاهد بالسودان، وتلك المبرة الخيرية لخدمة الفقراء بام درمان التي كان يتبرع لها بألف جنيه سنوياً.

ولعل ما يشي بمكانة السودان وأهميتها في جهود الأمير طوسون بناؤه لأول مسجد في مدينة واو بجنوب السودان وفتح قصوره بالإسكندرية والقاهرة لاستضافة زوار مصر من أهل السودان، ودعوته لإقامة كرسي أكاديمي باسم السودان في الجامعة، وقوله المأثور: «إذا لم نحكم السودان فليحاكمنا السودان».

قانون المناطق المقفولة

كان الامير يستشعر المؤامرة الإنجليزية المبنية التي تهدد وحدة السودان في مقاله بالأهرام يوم ٢٩ مايو ١٩٢٣، حيث كشف الستار عن الأهداف الاستراتيجية المشبوهة وراء قانون المناطق المقفولة Closed Districts، وأنه عنوان يخفي وراءه سياسة بريطانيا الجنوبية The Southern، وهو ما دفعه إلى كشف الألاعيب الاستعمارية في جنوب السودان عام ١٩٣٧ عبر ثلاثة مجلدات من تأليفه بعنوان: «تاريخ مديرية خط الاستواء»، مؤكدا بالوثائق التاريخية والشهادات الثبوتية على الدور والمصالح المصرية في جنوب السودان مؤكدة على هويته السودانية المصرية!

ويؤكد الأمير في مؤلفه أن مصر تملك شواطئ بحيرة فيكتوريا وفقاً لمعاهدة ١٨٩٩ عندما كانت أوغندا تحت الإدارة المصرية، ووصف بسط بريطانيا حمايتها على أوغندا بأنه عمل غير شرعي، وأن بريطانيا بالانفراد بالمديرية الاستوائية فإنها تصير بالتالي إلى فرض هيمنتها على نهر النيل من المنبع حتى مصبه في البحر الأبيض.

وساق واقعة تاريخية غير مهمة حول ضابط أمريكي يدعى شايي لونج كان قد أرسله الخديو إسماعيل لوضع تقرير ميداني عن جنوب السودان، وانتهت مهمته بوضع كتاب بعنوان: «مصر ومديرياتها المضيعة» أكد فيه اعتراف أمتيزا ملك اوغندا بأنه وضع مملكته تحت الحماية المصرية. وكيف جرى إلحاق جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فيكتوريا وبحيرة البرت بالحكم المصري مع فتح البحيرتين وروافدهما للملاحة. وذلك يعد أوضح دليل على أن لمصر حقوقاً في تلك الأقطار على عكس المزاعم البريطانية.

كذلك كانت عناية الأمير عمر طوسون بجمع الوثائق والشهادات الدالة على ما كان للحكم المصري في عدد الأقطار من سياسات حضارية، وبينها كتاب «رحلة إلى أفريقيا» للرحالة الروسي الدكتور جونكر الذي شهد قائلاً: يرجع الفضل إلى المسلمين - الذين يعزي إليهم المثالب والمطاعن - في إلزام الزنوج بالعيش في سلام متحابين ومتعاونين مع غيرهم من القبائل المجاورة لهم، والإقامة في دورهم وزراعة حقولهم، وهو نهج إنساني عادل في الحكم يستحق التقدير!

أما المبشر فلكون الذي وضع كتابا بعنوان: «أوغندا وسودان مصر» فيقول: يمكنني القول وأنا مطمئن الضمير هادئ البال عن هذه الأقطار الجنوبية التي يتولى سلطاتها أمين باشا مدير مديرية خط الاستواء، أن الأهالي يعيشون تحت رعايته في حالة أكثر رغداً وطمأنينة مما كانوا يعيشونه تحت رعاية ملوكهم الهمج!

ويذكر للأمير عمر



** مجهولو المشاهير **

طوسون حثه للشيخ مصطفى المراغي رئيس جماعة الدفاع عن الإسلام في دعوة نشرتها الأهرام في ٦ يوليو ١٩٣٣ إلى ضرورة التصدي للسياسة البريطانية التي أباحت انفراد منظمات التبشير الاستعمارية بجنوب السودان والعمل على تنصير السكان وإجبارهم على الحديث بالإنجليزية أو الرطانة الأفريقية، وطالب جماعة علماء المسلمين بنشر الإسلام واللغة العربية، مشيراً بشكل ضمني إلى أن الإنجليز يؤسسون لجنوب زنجي مسيحي موال للغرب كحاجز بشري وعرقي لمنع التواصل الثقافي بين العرب والمسلمين وبين الأفارقة، توطئة لفصل الجنوب عن السودان الأم؛ وذلك ما نشهد بوادره اليوم عبر اتفاقية نيفاشا للسلام في جنوب السودان عام ٢٠٠٥ التي كرست قيام نظامين متقابلين في شمال وجنوب السودان!

وإذا كان التاريخ المصري يستنكر قيام سعيد باشا بإرسال أورطة من الجيش المصري من ذوي البشرة السمراء لدعم الجيش الفرنسي في حرب المكسيك بناء على طلب الإمبراطور نابليون الثالث، بدعوى ضعف مناعة الجيش الفرنسي من ذوي البشرة البيضاء أمام الأوبئة المنتشرة هناك، خاصة أنه لم يكن لمصر ناقة ولا جمل في هذه الحرب، إلا أن الأمير عمر طوسون أولى اهتماماته البحثية لهذه القضية، ورأى فيها محاولة من الخديو سعيد لتأكيد استقلال مصر عن الخلافة العثمانية، خاصة أن مهمة الأورطة المصرية لم تلق أي اهتمام تاريخي لاستجلاء دورها إثر الاحتلال البريطاني لمصر!

الوفد المصري إلى فرساي

على أن دور الأمير عمر طوسون الوطني على المسرح السياسي يستحق ولا شك مزيداً من الاهتمام والتنويه، فإلى جانب متابعاته النوبية وكتاباته وبحوثه المهمة عن السودان، فقد شغل بالتوازي بالقضية الوطنية، فهو قد أقنع عدداً من الأمراء بإصدار بيان سياسي في سبتمبر ١٩٢٠ يستنكر «مشروع لجنة ملنر» كونه ينافي استقلال مصر والسودان، ويذكر أنه دعا إلى اجتماع للنخب السياسية وأعضاء الجمعية التشريعية والأعيان يوم الثلاثاء ١٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ في سراياه بشبرا للتداول حول اقتراحه الخاص بتشكيل وفد إلى مؤتمر الصلح في فرساي للمطالبة باستقلال مصر كما أسلفنا، لكن السلطات العسكرية بناء على الأحكام العرفية السائدة وقتئذ حالت دون عقد الاجتماع، فكان البديل دعوته إلى جمع آلاف التوقيعات من أعيان الشعب ورموزه السياسية والاجتماعية بالموافقة على تشكيل الوفد!

وفي الأول من مايو ١٩٢١ دعا في الأهرام إلى تفعيل النهج الديمقراطي الليبرالي الذي يتمثل في نظام الشورى بمصر، وقال إنه يعتقد أن الشورى هي الدواء الحاسم لكل خلاف، وهي الوسيلة الوحيدة لتقرير أمور الأمم ومصالحها العامة وقطع أسباب الاختلاف بينها، وقد فرضتها الشريعة الإسلامية، وأقرتها الأمم الراقية وبذلت في سبيل تقريرها المهج والأرواح.

بعدها بيومين كانت الإسكندرية قد شهدت اضطرابات وتجاوزات سياسية خلال المعركة الانتخابية وقتئذ، حيث بادر الأمير إلى شجب ما حدث وقال: «ما كنا ننتظر صدور هذا الشغب عبر قذف بيوت بعض المخالفين السياسيين بالطوب وفي الشوارع، وما كنا ننتظر صدور هذه الأفعال الشنعاء من أي مصري ونحن قوم نريد الاستقلال ونطالب بالحرية، وأساس هذا المبدأ احترام كل فريق لرأي الآخر وعدم الحظر على أحد وإن شذ في رأيه، وإذا لم نحترم هذا المبدأ فلماذا إذن نشكو من ضغط الإنجليز على حرياتنا!

وكتب لدولة حسين رشدي باشا رئيس لجنة الدستور يقول: «إن لجنة الدستور يجب أن يكون عملها مطابقاً لرغبات الأمة، وإن مسألة السودان من أمهات القضايا الشاغلة للرأي العام المصري، وأنه لذلك يُذكر دولته بوجوب اعتبار السودان ضمن حدود البلاد، وأن يتم انتخاب نواب للسودان يؤدون دورهم على قدم المساواة والندية مع نواب الوجهين البحري والقبلي، وأن يعمل الجميع للمصلحة المشتركة التي لا انفصام لها أبداً!!

وحول رأيه في قانون الانتخابات قال: «إنني لست ممن يوافقون على تمييز بعض المصريين على البعض الآخر، وقصر حق الانتخاب على فريق دون الآخر، بعدما سوى الدستور بينهم وجعلهم في التشريع المصري متساوين في كل شيء، حتى إن القانون لا يعفي أحداً من المسئولية الجنائية، فإذا كانوا في الغرم سواء، يجب أن يكونوا كذلك في الغنم في كل ما يتعلق بالحقوق العامة!

وللأمير دعوة وطنية شهيرة على إثر استقالة وزارة ثروت باشا، وإنه من المتعين أن تكون الحكومة القادمة ائتلافية للعبور فوق الخلافات السياسية، ولأنها ضمانة للاستمرار حتى لا تلقى مصير ما جرى من حل البرلمان ونشر الفوضى في البلاد!

البطالة في الثلاثينيات

كان الأمير عمر طوسون قد أتحف عالم المطبوعات عام ١٩١٨ بسفر نفيس ضم آراءه في شئون مصر وشجونها وظروفها وأحوالها وإرهاصات المستقبل الذي ينتظرها، وعلى ما يبدو أنه كان متأثراً بظروف الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم في ثلاثينيات القرن الماضي وانعكاساتها في مصر على صعيد تفاقم مشكلة البطالة، فراح يدعو المرأة إلى الانصراف لشئونها المنزلية والتفرغ لتربية الأولاد فحسب، حتى يجد الرجال فرصتهم في شغل الوظائف العامة، رغم قسط الأمير الوافر من الثقافة الأوروبية التي ساوت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات دون تمييز.

والملاحظ أن الأهرام نشرت ذلك المقال بالتزامن مع مقال آخر في جريدة «الريفورم» التي كانت تصدر في القاهرة باللغة الفرنسية، ورصد فيها ما يحدث في الولايات المتحدة من آراء حول ظاهرة مزاحمة المرأة التي طغت على نصيب الرجل في ميدان الأعمال، إلى حد أن أحد الأساتذة ألقى محاضرة في الجامعة الأمريكية قال فيها: «إن الخطر كل الخطر على مدنيتنا ليس في الآلات الحديثة وإنما النساء العاملات اللاتي يتسببن في كارثة بطالة الرجال!».

معروف أن الأمير عمر طوسون درج على تربية نجليه وفقاً للتقاليد المصرية والنهل من معين الثقافة والعلوم الإسلامية، والحرص على مصاحبتهم له في جولاته الميدانية واستكشافاته الصحراوية مع ثلاثين من رجاله وحاشيته، حيث كانت تسبقه إليها عملية إعداد الخيام والخرائط والسيارات الجيب، فكان يقطع في اليوم الواحد ١٢٧ كيلو متراً، بادئاً رحلاته كالعادة من الواحات البحرية أو واحة الفرافرة، وهو أول من نبه إلى ضرورة استغلال منخفض القطارة عن سطح البحر بنحو ٢٤ متراً في مشروع لتوليد الكهرباء، ومد شبكة من الطرق للوصول إلى الواحات بسهولة والعناية بثرواتها من التمر وتنميتها زراعياً مع توافر المياه الجوفية، وكذا استغلال مياه العيون الباردة والدافئة في العلاج الطبيعي!

وللأمير ضمن ثمار استكشافاته الميدانية كتاب تاريخي باللغة الفرنسية عام ١٩٣١ عن أديرة ورهبان وادي النطرون، مسترشداً فيه بذاكرة وتوجيهات الآنبا يؤانس، ثم ألحقه بكتاب آخر بالعربية عن تاريخ البطاركة والأديرة البحرية، وكلا الكتابين يمثل مرجعاً مهماً حول نشأة حركة الرهبنة لأول مرة في العالم بوادي النساك أي وادي النطرون!

ثم تمضي ٦٦ عاماً على رحيل الأمير عمر طوسون في ٢٦ يناير ١٩٤٢ مخلفاً وراءه ذكرى عزيزة وسجلاً حافلاً بالعطاء الوطني والقومي، ونموذجاً يحتذى به في التواضع والتجرد من غطرسة وأنانية الأمراء عهدئذ، وكما هائلا في المواقف السياسية والاجتماعية المشرفة والإبداعات والاستكشافات غير المسبوقة؛ ثم تشاء مصادفة الاحتفال التدشيني بإنشاء الجامعة المصرية، أن يلبي عزيز حفيد الأمير عمر طوسون الدعوة لحضور المناسبة، حيث تسلم بنفسه درع الجامعة نيابة عن الأميرة الراحلة فاطمة ابنة الخديو إسماعيل اعتزازا بإسهاماتها في بنائها، ولم يكن ليتسنى له ذلك لولا إعادة الجنسية المصرية لأسرته التي حرمت منها وبقية أمراء وأميرات الأسرة العلوية، فكان حريصاً على زيارة مدرسة شبرا الثانوية التي كانت قصراً لجده الأمير عمر طوسون، حيث فوجئ بالعامة والبسطاء يصافحونه ويحتفون به في كرم ومودة، لكنه استاء خلال زيارته لقصر جده المنيف في حدائق أنطونيادس بالإسكندرية الذي شغلته في البداية ثلاث كليات تابعة لجامعة الإسكندرية، وإذا به اليوم مخزن بائس لمخلفات المدارس الحكومية، واستقطعت مساحة من حديقته الغناء في بناء مساكن شعبية قبيحة! ■

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها، لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة تحريرها

نحن وتركيا وأوباما

قرأت مقال «كيف ينتخبون رئيس العالم؟» للباحثة د. منار الشوربجي، عدد نوفمبر ٢٠٠٨ وفي الحقيقة فقد ذكرني هذا المقال بمقالها المنشور في عدد ديسمبر ٢٠٠٦ من «وجهات نظر» بعنوان «الديمقراطيون قادمون.. أين العرب؟» على إثر هزيمة الجمهوريين وحزب بوش في انتخابات التجديد النصفي، والذي يكتفي بقراءة المقال أو يسعى نحو الاستزادة فيطلع على كتاب الكاتبة الذي يشير إليه المقال سيفهم كثيرا من أغوار السياسة الأمريكية ودهاليزها، حيث هناك شركات عابرة للقارات وبنوك ومؤسسات مالية وميديا إعلامية جبارة، ناهيك عن اللوبي اليهودي وأخطبوطه، فجاء هذا الكتاب ليضع النقاط الحقيقية فوق الحروف الحقيقية بعد امتلاء الساحة العالمية بفعل الميديا الإعلامية كما أسلفنا بحروف مزيفة ونقاط مزيفة. ولذا كنا نأمل من المجلة أن تفرد صفحات أكثر لهذا الموضوع الذي واكب إجراء أهم انتخابات أمريكية شهدها العالم وأحدثت دويا هائلا وتمخضت لتخرج علينا بفوز رجل أسود اسمه أوباما كان فوزه أقرب إلى أمنية يستحيل تحقيقها.

هل أوباما سيراعي المصالح العربية أم لا، وهل سيحل القضية الفلسطينية أم لا؟ أثناء كتابة هذا السرد جاء خبر أن صباح اليوم قام الرئيس الأمريكي المنتخب باراك أوباما بتخصيص منصب كبير موظفي البيت الأبيض وهو منصب مهم جدا ليهودي إسرائيلي، كان أبوه زعيم عصابة في الأرجون في أربعينيات القرن المنصرم، وهو رام كمونتيل وهو يعتبر رئيس الطاقم السياسي لأوباما.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

في عدد أكتوبر ٢٠٠٨ من مجلة «وجهات نظر» وبمدخل فكري غير تقليدي حدثنا د. حلمي محمد القاعود عن مدينة كانت في يوم من الأيام عاصمة الخلافة الإسلامية «القسطنطينية»، وبدأ المقال بتعريف المدينة وأسمائها وتاريخ فتحها على يد السلطان محمد الفاتح والذي بفتحه



هذه المدينة كما يقول الكاتب حقق نبوءة النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما قال في حديثه الشريف: «لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها»، كما يقول أيضاً بأن هذا الفتح كان بشارة الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، ثم يلج بنا الكاتب إلى سرد كل ما عرفه وشاهده في هذه المدينة وذلك في مستهل حضوره مؤتمرا علميا هناك، ففي سياق المقال يقص علينا وقائع ومشاهدات كثيرة، ولا ينسى الكاتب المهموم بشئون بلده مصر بأن يتحسر على ما وصلت إليه الحياة في أرض الكنانة، مقارنة بما وصلت إليه الحال من ازدهار وتحسن في أرض الخلافة، والتي كانوا يسمونها زمان بالرجل المريض، وكانت تتصف برمز التخلف العلمي والجهل، فيقارن الكاتب بما رآه في اسطنبول من توفير وبكميات هائلة لرغيف الخبز وبما يراه وراه المهتمون بطابور الخبز عندنا في مصر حتى أصبحت هناك أزمة، وهناك شهداء سموا لأول مرة شهداء الخبز وهذا نتيجة لعاركهم للظفر بعشرة أو خمسة أرغفة للأسرة، ثم قارن بحال الطرق والمواصلات عندنا وعندهم ثم تطرق إلى مقارنة رجال الأعمال عندنا وعندهم، فرجال الأعمال عندهم ينهضون بالبلد ويقيمون المشاريع، فهم أكسير الحياة في اسطنبول، أما عندنا فهذه الطبقة أو هذا اللفظ من رجال الأعمال أصبح سيئ السمعة، حيث أصبحوا رموزا للنهب والسرقة والاحتيال والهروب من الأحكام، وكيف تحقق كل هذا بفعل حزب العدالة والتنمية - ويبين الكاتب كيف تحقق على يديه الكثير من الخيرات لهذا البلد وكيف فعل الحزب الحاكم



الوسطي المعتدل والذي أرضى كل الأطراف في بلد تتنوع مذاهبه الفكرية من علمانية وغيرها.

هذا المقال يشحذ الهمم لشعوبنا العربية، خاصة مصر للتشبه بهذا البلد العريق وهذا الحزب المعتدل وينوه لدعاة الفكر والأيديولوجية الإسلامية في مصر أن يعدلوا من أفكارهم بما يتواءم مع ركب الحضارة والعولمة كما فعل أردوغان وصعد وصار إلى ما وصلت إليه البلاد، ولكن عندنا في العالم العربي وخاصة مصر، الأمثلة واضحة أمامهم ودعاة الإصلاح كثيرون ولكن للأسف يصدق فيهم قول القائل:

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى
فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

تحياتي للكاتب ولإدارة المجلة.

صابر محمد عبدالواحد
سوهاج - أخميم

❊ ❊ ❊

الحقبة الهيكلية

أسعدتنا مشاركة أستاذنا الكبير سلامة أحمد سلامة في عدد أكتوبر الماضي بعد نأي وابتعاد عز علينا جميعا لأنه صاحب قلم عاقل عفيف هادئ متزن.. ندعو الله أن يمتعه بالصحة التي أدى اعتلالها لابتعاده عنا نحن قراء «وجهات نظر».. وكان من الطبيعي أن تكون عودة الأستاذ سلامة للكتابة هي مناسبة الاحتفال ببلوغ أستاذنا الأكبر هيكل الذي أصبح منارة سامقة لا تخبو شعلتها عبر السنين تهدي الحيارى والتائهين في زمن ضبابي داكن، بل حالك الظلمات شاع فيه الجهل والجهلاء والزيف والتسطيح.. لكن وسط كل هذا فإن نصف القرن الماضي يمكن أن يسمى «الحقبة الهيكلية» لأن الأستاذ هيكل مازال يمثل الذاكرة الموثقة للوطن ورأيه هو الأفضل بين حكماء الوطن..

أستاذ هيكل.. متعك الله بالصحة وأمد الله في عمرك كي تنفعنا أكثر وينتفع بك أبناؤنا وشكرا للمجلة..

د/ سمير عنتر
استشاري الحميات - الهرم

❊ ❊ ❊

المسيري.. والسادات

نعم، الكتب.. وجهات نظر «ربما إلا قليلا»، والمقالات أيضا.. ربما بمستوى قطعي.. فالأصل هو أن من حق أي إنسان، أن تكون له وجهة نظر.. لكن مسألتي الإعلان والتبليغ بالنسبة لوجهة النظر أمر آخر تماما.

أستطيع أن أقف في أي مكان، شارع، مسجد، كنيسة، مقهى، غرزة، خمارة.. وأعلن وجهة نظري متحملا كل المسئولية.. لكن أن أكلف شخصا أو جهة بإعلان وتبليغ وجهة نظري للآخرين.. فهنا يستحيل التمسك بحقي وحريتي.. لأني لم أعد مسئولا وحدي عن وجهة نظري.. حتى العبارة المشهورة بأن.. رأي الكاتب لا يعبر بالضرورة عن رأي الصحيفة أو المجلة هي عبارة مشبوهة.. لأن أي صحيفة أو مجلة، مفروض أن لها رسالة تحدد شكل ومضمون ما تنشره.

في عدد أغسطس يتكلم الأستاذ فضل النقيب عن المسيري.. وهناك نمط واجب لمثل هذا التناول لا يعطيه حق الخروج لقضايا خلافية لم ولن تحسم، ليدلي فيها برأي (عن الثورة والسادات وغيرهما).

نعم هو حر في رأيه وفي صياغته.. لكنك لست حرا في نشره...

لا نريد تغيير ذلك المذاق الجميل لمجلتكم.. فأرجوكم أرجوكم التدقيق.

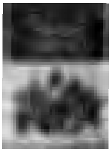
أبو مجد - محمد القطايري

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

من هم اليهود وما هي اليهودية؟

عبدالوهاب المسيري

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٣٦٥ صفحه



هذا هو الموضوع الأثير الذي خصص له الراحل الكبير عبدالوهاب المسيري جل جهاده الفكري، باحثاً في أصل اليهود واليهودية، وتجليات العقيدة التي تم تشويهها وتسييسها على مدى قرون في حياة هؤلاء الناس، الذين توزعوا على قارات العالم أجمع، وكانوا بمثابة إشكالية كبرى سعى الغرب إلى تصديرها إلى مجتمعاتنا، وصدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ٩٧ وتوالت طبعاته بزيادات وتنقيحات أملاها الجهد البحثي المتواصل للمؤلف ومجموعه الباحثين الذين يعملون تحت إشرافه.

يخصص المؤلف الباب الأول للجماعات اليهودية، كاشفاً عن تنوع هوياتها وثقافتها ومآربها: السفارديم، الاشكناز، يهود الهند، يهود الصين، يهود القوقاز، اليهود السود، الخزر، المارانو، وجماعات صغيرة أخرى، ويلاحظ المؤلف تبايناً كبيراً بين هذه الجماعات برغم كونها جميعاً يهودية، ويفرد فصلاً في هذا الباب، يخصصه للهويات اليهودية وخريطتها العامة، واندثار بعضها.

ويدرس في الباب الثاني تواريخ وثقافات وفنون الجماعات اليهودية، من رقص وغناء وتشكيل وفلكلور وأزياء وموسيقى، ويطرح في الباب الثالث تساؤلات حول أزمة الهوية اليهودية، خصوصاً الإشكالات المتعلقة بالمسألة الديموجرافية والجغرافية السياسية وتعريف اليهودي والهولوكوست وقانون العودة وغيرها. وفي الفصل الثالث من هذا الباب يناقش عدداً من المظاهر التي تؤكد غياب المرجعية الأخلاقية والمعايير الحاكمة للمجتمع اليهودي مثل التهويد العلماني والشذوذ الجنسي وتصاعد التوجه نحو اللذة وغيرها.

وينفي المؤلف فكرة انهيار المجتمع الصهيوني من داخله استناداً إلى أزماته المتنوعة والمتصاعدة، كما ينفي أن يكون بدراسته لتناقضات المجتمع الصهيوني ورصده لمشاكله وهزائمه، يتبنى ويبشر بهذه الفكرة، فهذا على حد قوله أبعد ما يكون عن الحقيقة، فالمجتمع الصهيوني برأيه لن ينهار من الداخل، لأن مقومات حياته ليست من داخله، وإنما من خارجه، إذ يوجد عنصران يضمنان استمراره رغم كل ما يعتريه من تناقضات، وهما الدعم الأمريكي والغياب العربي.

وينبه المؤلف قارئه إلى اعتماده أسلوب «الوحدة الفضفاضة» في الكتابة بديلاً عن الوحدة العنصرية، أي أن بعض الأجزاء قد تبدو غير مترابطة ظاهرياً، وإن كان النظر إليها في الإطار الأشمل يشير إلى ترابطها مع الأجزاء الأخرى، وميزة هذا الأسلوب برأيه، أن يسمح باستحضار كل المعلومات والمعطيات وعدم إغفال بعضها لتحقيق الوحدة العضوية للكتاب، حتى وإن بدت بعض الأجزاء غير مترابطة مع سواها.

مريم المسلمة

ميشيل دوس

ترجمة: عبود كاسوحة

بيوت: شركة قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨



إن الولاء لمريم بكل ورع وخشوع يغوص عميقاً في إيمان المسيحيين وعبادتهم، حتى ليشعر بعضهم بشيء من العناء، ناهيك عن التحفظ، حيال التصور بأن وحياً آخر، وهو هنا القرآن، يمكن أن يعلن بدوره عن نصيبه في هذا الولاء استناداً إلى قرينته الخاصة. فكيف لصورة مريم أن يتم إدماجها ضمن بيئة تدوينية غير بيئة الأناجيل، من دون أن يؤدي هذا الواقع وحده إلى النيل منها أو التقليل من قيمتها؟

تظهر صفحات هذا الكتاب كيف أن صورة مريم في القرآن ليست أقل تمجيداً عنها في الأناجيل، وإن سرها لا يقل مركزية، بل إن مكانتها في إيثار الله للناس وقصده حيالهم، ماثل فيه ضمن بعض المقاطع، مثولاً أكثر توسعاً وتفصيلاً.

يعتمد ميشيل دوس الأستاذ في تاريخ الديانات، والاختصاصي في الديانات التوحيدية الإبراهيمية، على النص القرآني، ليبين كيف أن تراكب الصور هذا، يجعل القرآن يسترجع العلاقة بين التوراة والإنجيل، وهو يلقي إضاءة جديدة على وضع المرأة في نظر الله، وحتى العهد والاصطفاء والنذر، والعلاقة الفعالة بين المعبد والبرية، وتبرز صورة مريم، لدى الانتهاء من هذا التحليل الدقيق، أحد المفاتيح الرئيسية في تفسير القرآن.

العراق تحت الاحتلال: تدمير الدولة وتكريس الفوضى

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيه، ٢٠٠٨، ٤٣٠ صفحة



أضحى الوضع بأسره في العراق اليوم كارثة بحد ذاتها، بكل ما تحمله هذه الكلمة من أبعاد ودلالات: كارثة يدفع ثمنها العراق وشعبه ومستقبله، وكارثة يدفع ثمنها المحيط الإقليمي للعراق والوضع العربي وأمريكا في أبنائها ومالها ونفوذها الذي أصابه الوهن والتراجع. ولذا فإن كل ما يكتب اليوم في إطار حالة العراق لا يخرج من توصيف تداعيات الاحتلال ونتائجه، والدروس المستنبطة من ذلك هي حزمة الحقائق التي لا يمكن إغفالها، وفي المقدمة من ذلك أن المشروع الاستعماري، أي مشروع، وفي كل زمان ومكان محكوم بنهاية واحدة، فلم يشهد التاريخ أن حقق الاستعمار، مهما كانت صيغه وأشكاله نجاحاً دائماً، بل إن نهايته، وإن تباينت أشكالها وتفاوتت مواقيتها، محكومة بالزوال، ولا تبقى إلا حقيقة واحدة ثابتة، هي قدرة الشعوب على تجديد تاريخها بفواصل زمنية محكومة بالتضحيات الكبيرة وموسومة بالانتصار والظفر الحاسم. ومركز دراسات الوحدة العربية، وفي إطار اهتماماته الفكرية بقضايا النضال القومي، قد وضع قضية العراق في صلب اهتماماته ومحور نشاطاته، ليس لأن العراق بلد عربي تعرض للاحتلال والتدمير فحسب، بل لأن قضية العراق ترتبط بالنضال القومي التحرري ضد الهيمنة والعدوان، كما هو الحال في قضية فلسطين، وكل قضايا النضال القومي التحرري من المحيط إلى الخليج.

ودراسات هذا الكتاب تعرض جوانب عديدة من قضية العراق في مواجهة الاحتلال وتداعياته، كتبت بأقلام أجنبية، وعربية ومنها عراقية، وهي شهادات توثق قدرة الأمة العربية على المقاومة والمجابهة، وتؤكد حتمية انتصار شعب العراق والأمة العربية إزاء كل محاولات الاحتواء والمصادرة والهيمنة.

إنها شهادات عن مرحلة حاسمة في نضال الأمة العربية، والعراق بشكل خاص، من أجل الحرية والكرامة.

اختلاق الميثولوجيا

مارسيل ديتيان

ترجمة: د. مصباح الصمد

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨



من اختلق الميثولوجيا؟ وما هي حدود هذا الميدان المسكون بحكايات لا يطالها النسيان، وتبقى مقترنة بلذة روايتها وبالحرص على تفسيرها وتأويلها؟ وإذا كان صحيحاً أن كل قارئ في العالم يعتبر الأسطورة أسطورة بالفعل، فما الذي يجعل علم الأساطير لا يزال عاجزاً عن التمييز، بدقة بين قصة وأسطورة؟

وعلى غرار سمكة ذائبة في مياه الميثولوجيا، فإن الأسطورة شكل لا يمكن العثور عليه، فلا هي نوع أدبي، ولا هي سرد ذو خصوصية، لكن الحديث عن الميثولوجيا كان ولا يزال، بصورة مباشرة أو مواربة، يعني الحديث بالإغريقية أو انطلاقاً من بلاد الإغريق.

من هنا كانت ضرورة البحث في نسب الميثولوجيا، لكي نعيد التفكير فيها، كمادة معرفة، ومادة ثقافة أيضاً.

احجز مقعدك في الجنة

جمال الشاعر

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ١٦٠ صفحة



يخوض جمال الشاعر بكتابه الجديد «احجز مقعدك في الجنة» الصادر عن الدار المصرية اللبنانية، مناطق إيمانية ودينية

يغفل الكثيرون عن الانتباه إليها. فعبر ثلاثين طريقة يمكن للمؤمن أن يحجز مقعده في الجنة إذا اتبعها، وكلها أمور بسيطة لا تكلف الإنسان شيئاً سواء بالقول أو الفعل. الكتاب ليس بحثاً في الدين أو اقتراباً من الفتوى، إنه تذكرة من صديق يهمس في أذنك: الجنة في انتظارك، فتعال معنا لنحصل على الجائزة الكبرى، وهي كما قال الشيخ الشعراوي: «رؤية النعمة في الدنيا والمنعم في الآخرة». وقبل أن تحجز مقعدك في المنصب، أو تجلس في مقعد رجل الأعمال أو.. أو.. ابحث عن مقعدك في الجنة بعد أن تجيب عن هذه الأسئلة التي هي شرط هذا الحجز:

- هل تصلي الفجر حاضراً؟
- كيف تصلي الصلوات الخمس؟
- ماذا تفعل حين يمرض أحد جيرانك أو زملائك أو أقاربك؟
- على أية شاكلة تفضل التصدق.. علانية أم سراً؟
- أين تضع المصحف الشريف.. في السيارة، في المنزل، أم في قلبك؟ قال صلى الله عليه وسلم: «من ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب».
- كيف تستعد لصيام رمضان؟ هل تحسن الصيام؟ هل تقوم ليلة القدر؟ هل تصوم الاثنين والخميس والليالي القمرية؟

وهكذا يجعل جمال الشاعر يحس الفنان. وروح المؤمن من حجز مقعد في الجنة أمراً يسيراً وبسيطاً. فهو لا يفتي بل ينصح.. لا يأمر، بل يشير إلى الطريق، لا يعقد الأمور كما يفعل بعض الدعاة، بل يفضفض بأسلوب رشيق وتأملات عميقة حول سعة الإسلام ويسره، وكيف أن الله سبحانه وتعالى يفرح بعبده التائب أكثر من فرحة الأم بابنها. وإليك خريطة الطريق للحصول على مقعد في الجنة:

- اتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن.
- المؤمن لا يقرب الشبهات: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.
- سد الذرائع مقدم على جلب المنافع.
- ديمومة الإخلاص.
- إغاثة الملهوف، وفك كرب المكروب، والمعسر، وستر أسرار الناس.
- التحفيز على فعل الخيرات، فالدال على الخير كفاعله.
- مخالطة الصالحين.

وفي شرح ذلك يذهب جمال الشاعر إلى مشاهد واقعية تصادفنا في الحياة اليومية، يمكن أن نخرج منها بزاد روحي وفير، بدل أن نجعلها سبباً في معصية. حتى إنه يذهب إلى عفاريت الإنترنت والثقافة الأمريكية الشائعة بين الشباب، من خلال الجنس الإلكتروني، فبدل أن نستفيد علمياً وثقافياً نذهب إلى الطريق الآخر، والحل أن نذهب إلى الأطفال ونعد لهم برامج دينية مناسبة لهم، فمن يستطيع أن يجذب الأطفال إلى الدين فسيغير شكل المجتمع.

كما أن العلم، وهو الفريضة الغائبة في حياتنا، يعد واحداً من أهم الطرق التي تقربنا من الله، وهو الأداة التي تجيب عن السؤال الأهم: لماذا تقدم الآخرون وتأخر المسلمون؟ فهل نحن لدينا إحساس عميق بالعجز في مواجهة العلم، بدعوى أن كل اكتشافات الغرب قديمة لأنها موجودة في الإسلام؟!

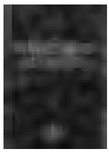
كتاب جمال الشاعر «احجز مقعدك في الجنة»، سياحة روحية مع الأفكار الإسلامية ومشكلات المسلمين، وهذه طبعته الثانية، بعد أن نفدت الطبعة الأولى في شهور قلائل. يقول جمال الشاعر: في مكة بجوار الحرم قابلت مهاجرين مسلمين أمريكيين قرأوا الطبعة الأولى وطلبوا المزيد، ومن كندا جاءتني رسائل تطلب طبعة ثانية، ومن السعودية، ومن دول عربية وإسلامية مختلفة. وهذه الطبعة هديته مع الدار المصرية اللبنانية إلى القراء الكرام.

⁂

الصراع في الشرق الأوسط من هيرتزل إلى شارون

طاهر شاش

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ٢٣٠ صفحة



في حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ قتلت إسرائيل الأسرى المدنيين المصريين العزل بدم بارد وبوحشية بالغة.. أمرتهم بحفر قبورهم بأيديهم، وأطلقت الرصاص على رءوسهم.

في عام ١٩٤٧ و١٩٤٨، طردت إسرائيل ٧٥٠ ألف فلسطيني ليصبحوا لاجئين، ورفضت عودتهم في حين فتحت أبوابها لليهود القادمين من جميع أنحاء العالم.

منذ يونيو ١٩٦٧ فرضت إسرائيل احتلالها غير المشروع للأراضي العربية، وقامت بفرض الأمر الواقع فيها.. بإحداث التغييرات الجغرافية والسكانية والإداريه لتتمكن من ضم أجزاء كبيرة منها، وأخضعت الشعب الفلسطيني لأقسى أشكال القمع.

ضربت عرض الحائط بمبادئ القانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية، على الرغم من توجه العرب للسلام وتقديمهم التنازلات بما في ذلك مبادرة القمة العربية في بيروت، لا تزال إسرائيل تعرقل كافة المساعي، وتواصل العمليات الاستيطانية وإجراءات التهويد في الأراضي العربية المحتلة.

ترتبط إسرائيل مع الولايات المتحدة بعلاقات خاصة تتمثل في دعم الدولة العبرية سياسياً وعسكرياً واقتصادياً. ويلعب اللوبي الإسرائيلي دوراً خطيراً في توجيه السياسة الأمريكية لخدمة الأهداف الإسرائيلية، الأمر الذي أدى إلى غزو العراق والتهديد بضرب إيران وحصار سوريا.

وهذا الكتاب هو محاولة موضوعية لشرح أبعاد هذه السياسة العدوانية وتفسير أسبابها، الأمر الذي اقتضى إلقاء بعض الضوء على التراث الديني والتاريخي لليهود وعلى الحركة الصهيونية وأهدافها ووسائلها، فضلاً عن علاقة هذه الحركة ودولة إسرائيل بالدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

⁂

المسلمون والديمقراطية

معتز بالله عبدالفتاح

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٣٠٢ صفحات



يسعى هذا الكتاب للإجابة عن تساؤلات تؤرق النخبة والعامة معاً في العالم الإسلامي، الذين لا تحظى دولهم في عمومها بما يحظى به «الغرب المسيحي العلماني» من حرية وديمقراطية. ومن ثم فإن التساؤلات حول الديمقراطية على دقتها وتعقيدها تبقى مشروعة، ومنها مثلاً: هل القيم الإسلامية بطبيعتها ضد الديمقراطية. وهل لهذه القيم أسانيد في الشريعة الإسلامية وفي الأصل القرآني، فإذا كانت الإجابة بلا، وهي فعلاً كذلك، يحق لنا أن نتساءل عن العوامل الأخرى التي تحول بين ديار المسلمين والتحول الديمقراطي.

هذا الكتاب يحاول الإجابة عن هذه التساؤلات عبر الجمع بين أساليب ثلاثة في جمع البيانات، أولاً: تحليل مضمون الكتابات التي تربط بين الإسلام ونظام الحكم، إضافة إلى مقابلات شخصية مع مجموعة من أصحاب هذه الكتابات. وثانياً: دراسة وتحليل عدد من استطلاعات الرأي التي تكشف عن توجهات الأفراد نحو الديمقراطية والعوامل التي تشكل هذه التوجهات. وثالثاً: مناقشات معمقة مع مجموعات نقاش مركز في أحد عشر مجتمعاً ذي أغلبية مسلمة.

بين الاستنتاجات الدالة مثلاً التي أفرزها التعرف على آراء النخبة والأفراد في التحول الديمقراطي، أن الطبقات الوسطى قد تكون أقل تأييداً للديمقراطية إذا كانت تترقب ثروة قادمة، أو كانت تعتمد في تكديس هذه الثروة على مزايا حكومية. هذا في المجتمعات الغربية، أما في المجتمعات الإسلامية فإن وجود الثروة أو غيابها ليس له تأثير بالإيجاب أو السلب على الديمقراطية، وهذا يمثل استثناء واضحاً. إذ تزدهر الديمقراطية في دول العالم التي يزيد فيها دخل الفرد. وفي المجتمعات الإسلامية، هناك تباين واضح في هذه المسألة من مجتمع إلى آخر. ويلاحظ المؤلف أن هناك تأثيراً سلبياً لارتفاع مستوى التعليم على التوجه نحو الديمقراطية في السعودية والإمارات. أما الأولى فلأن مناهج التعليم تكرس فكرة عدم التسامح مع الآخر، ويرجح المؤلف أن يكون السبب في عدم قبول الديمقراطية لدى المتعلمين في الإمارات إلى العمر، إذ يميل الأشخاص الأكبر سناً إلى عدم التسامح أو قبول الآخر.

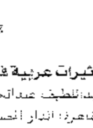
وفيما يتعلق بتأثير التدين على قبول القيم الديمقراطية وشيوع التسامح، يشير المؤلف إلى أن التدين في ذاته لا يقف عائقاً ضد تبني المسلمين لقيم الديمقراطية، وإنما ارتباطه بخطاب متشدد أو منغلق يزيد الفجوة بين أبناء الوطن الواحد. استنتاجات علمية غزيرة ومعمقة يقدمها المؤلف في هذا الكتاب تجيب على السؤال الأهم: لماذا تغيب الديمقراطية عن بلاد المسلمين؟

⁂

تأثيرات عربية في روايات إسبانية

عبداللطيف عبدالحليم

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ١٢٦ صفحة



قدم الامتزاج العربي الأندلسي أكبر نموذج على اختلاط الحضارات والثقافات، وذلك بسبب سيطرة الخلافة الإسلامية لمدة ثمانية قرون على الأندلس. فانتقل الأدب العربي بكل أجناسه كالمقامة والشعر والنثر إلى اللغة الإسبانية، مما قدم إلى العرب والإسبان ولمحة تراثية جديدة

يتولون منها حتى يملأوا كتبهم ودواوينهم، وذلك لاختلاف طبيعة المكان والشخوص، ويرصد المؤلف هنا عددا من الحكايات التي انتشرت في إسبانيا وهي عن أصول عربية مثل حكاية آكل الترمس الذي جاء عليه العيد دون أن يكون معه ما يأكله إلا حبات الترمس، فأخذ يسأل أهناك من أرق مني حالا فإذا بأحد المارة يلتقط قشر الترمس ليأكله فعرف أنها رسالة من الله انتقلت إلى كتاب له عن خوان مانويل متحولة إلى رسالة نصح؛ ومن كتاب الملح الإسبانية التي جمعها بات وميليا قدم المؤلف حكاية التينات الثلاث، والخطيب الذي يرتج عليه، والمحارب الذي لا مخ له. ويقدم المؤلف الأصول العربية لهذه الحكايات وغيرها كحكايات اللصوص في الأدب الإسباني في القرن السابع عشر. لقد لعبت المصنفات الشعبية العربية دوراً ملموساً في مصنفات الأدب الشعبي الإسباني، وينبغي أن نفهم أن الشعبية هي مصنفات فصيحة يتناقلها «الشعب»، ترضي نزعته الفنية والخلقية والشخصية، التي تروق لها النادرة، والقصة بمفهومها الساذج، والمثل المأثور وبين الشعر الرائق، والحكمة البليغة وكتب هذا النوع من العربية كثيرة منها: فاكهة الخلفاء لابن عربشاه، وسراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي، وغيرها مما ساهم في تغيير أو تحويل مسار الفكر والحضارة الأندلسية لفترة زمنية ليست بالوجيزة.

*

فضفضة

كتّاب ومفكرين

عماد الغزالي

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨، ٢٧٩ صفحة



يكتسب فن الحوار الصحفي، في المجال الثقافي بخاصة، أهمية بالغة، في العصر الحديث، كونه نافذة ضوء باهرة على شخصية المفكر أو الأديب المحاور؛ كما أنه من ناحية أخرى يكشف عن شخصية الصحفي الذي أجرى الحوار؛ لأن المفكر أو الأديب قد يسكت عن بعض الآراء في كتاباته، ويكتمها خوفاً أو رهبا، أو مداراة لظروف سياسية واجتماعية، فيأتي الصحفي لينبش في المسكوت عنه، وإذا تأملنا حوارات الكتاب الغربيين، التي يصدر أغلبها في كتب، ورأينا مدى العمق والقضايا الشائكة التي تتناولها: لعرفنا أهمية هذا الحقل الثقافي، الذي يتعامل معه بعض مثقفينا على أنه منة يتفضلون بها على الصحفي، بينما العكس هو الصحيح. ومن ناحية أخرى يتعامل بعض المسئولين في الصحافة مع فن الحوار على أنه أسهل أنواع العمل الصحفي، وهو اعتقاد خاطئ، وغير مهني.

إنها قضايا كثيرة، يثيرها الكاتب الصحفي عماد الغزالي بكتابه الجديد «فضفضة.. كتاب ومفكرين» الصادر أخيراً عن الدار المصرية اللبنانية بغلاف الفنان محمد حجي، في طبعة أنيقة وفاخرة، حرصت عليها الدار في المرحلة الأخيرة، وهو كتاب يحتوي على ثمانية عشر حواراً، تغطي كل وجود ثقافتنا المصرية، ومن بين الذين حاورهم عماد الغزالي: السيد يس، إسماعيل سراج الدين، جلال أمين، سلامة أحمد سلامة، أدونيس، محمد سليم العوا، سمير مرقص، قاسم عبده قاسم، جهاد الخازن، وحيد عبدالمجيد، جابر عصفور، نبيل عبدالفتاح، أنور عبدالملك، رياض نعسان أغا، محمود أباظة، طارق البشري، جمال الغيطاني، عبدالرحمن الأبنودي.

وهي حوارات نشرت في جريدة «الوفد» في عامي ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧ والكتاب أهداه الكاتب إلى المفكر طارق البشري «المفكر والإنسان كما ينبغي أن يكون».

الكتاب من جانب آخر سياحة فكرية في عقول أبرز مثقفينا وأدبائنا، يمزج بين العام والخاص، لا يترك قضية دون أن يوفيها حقها، وليشبعها أسئلة وبحثاً وإلحاحاً على الإجابة، وهو بهذه الصفة يخرج من عابرية الحوار الصحفي إلى الوثيقة الفكرية، التي ترقى بدورها إلى دور شهادة على العصر، تكشف عن أن كتابنا وأدباءنا ومفكرينا لديهم الحلول الناجحة لكل المشكلات التي تعاني منها مصر، والوطن العربي بما لديهم من جرأة فكرية وتصورات دخول المستقبل كأمة حضارة لها وزنها بين الأمم.

*

وقفة قبل المنحدر

علاء الديب

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ١٠١ صفحة



صدر هذا الكتاب لأول مرة في عام ١٩٩٥، وكان بديلاً كما يقول مؤلفه، الأديب البارز في جيل الستينيات الأدبي، للهروب مع أي شيطان أو الانتحار، وهي أوراق عن السنوات من ١٩٥٢ حتى ١٩٨٢، والمدهش أنك حين تقرأها، أو تقرأ ما كتبه المؤلف عنها، يخيل إليك أنها تخص عصرنا، وأنه يقصد سنواتنا لا هذه السنوات التي مضى عليها الآن ربع قرن، أو أنه يعنينا نحن البشر العائشين في العقد الأول من الألفية الثالثة لا العقدين الأخيرين من الألفية الثانية. وإذا كان المؤلف يتعجب مما حدث للناس والبلد في هذه السنوات الثلاثين، ويتعجب كذلك أن يستطيع إنسان تحمل كل الذي جرى من تقلبات وتحولات، فما المدى الذي يمكن أن يصل إليه في اندهاشه إن كتب عما جرى من تحولات في ربع القرن الأخير، يقول صاحب «زهر الليمون»: يقول الناس كل يوم له شيطان، وشيطان تلك الأيام كان يعمل بجد واجتهاد: لكي لا تكتمل الأعمال ولا تتحقق الأحلام، يعمل لكي يسود صراع دام بين الناس، وأن تصل لنهاية يوملك منهكاً مهدوداً، وأنت في الحقيقة لم تحقق شيئا. تغيرت معاني الكلمات ووجوه الناس، وخطوط الأفق في القرى والمدن، تغير الصوت والصدى، الظاهر والباطن حتى النخاع، والتغير سنة الكون منذ كان، لكنني أعتقد أن التغير لم يكن يحدث من قبل بهذه القسوة والسرعة والفظاعة.

يحكي علاء الديب بعضاً من تجاربه المريرة، منها تجربته في الإبعاد عن العمل الصحافي، وقد جرى ذلك معه مرتين، في المرة الأولى أبعد عن عمله في مجلة صباح الأخير بعد اتهامه بالاشتراك في مؤامرة لا يعلم عنها شيئاً. وفي المرة الثانية، ألقت به التجربة في أتون حزن غامر.. لم أفقد في التجربة الأمان فقط، أو ثقتي في مهنة الصحافة أو الكتابة. ولكنها كشفت لي عن معنى يتراكم في واقع حياتنا، ونحاول دائماً أن نتجاهله وهو: أن المعنى الحقيقي لكلمة مواطن مازال مفقوداً، ومازلنا نبحث عنه. كم ليلة أمضيتها وأنا أشعر أنني بلا وطن.

يحكي المؤلف عن هذه التجارب وغيرها، عن موت عبدالناصر وأثر ذلك عليه وعلى الناس، عن تجربته القصيرة للعمل في إحدى صحف الخليج، عن أصدقاء تحولوا من النقيض إلى النقيض، عن الأبطال الذين سقطوا، والكبار الذين باعوا كل شيء من أجل حفنة أموال، يقول: أفقدني التغير السريع المضطرب قدرتي على الانتماء، قدرتي حتى على التصديق، لم أكن مشاركاً ولم أكن مطلوباً عندما تحطم المشروع الكبير، تحول إلى كابوس وصنع بعض الناس الشطار من أشلاء المشروع وشظايا الكابوس مؤامراتهم الخاصة، الجريئة منها والدنيئة، أما أنا فقد وقعت بعد ٦٧ ميتاً.

*

ثقافة التطرف
التصدي لها والبديل عنها

حمزة المزيني

بيروت: الانتشار العربي، ٢٠٠٨، ٢٩٩ صفحة



شهدت السنوات الست الماضية نشاطاً غير مسبوق في الحوار بين مختلف الأطياف الوطنية في المملكة العربية السعودية التي كانت تعبر عن وجهات نظرها بمستويات من الصراحة والشفافية غير معهودة. وكان معظم هذا الحوار يتركز حول كثير من القضايا الفكرية والدينية التي تختلف الاجتهادات المشروعة فيها.

وتصور الصحف السعودية في هذه الفترة مدى اتساع هامش الحرية الفكرية والتعبيرية الذي أتاح لكثير من الأصوات الوطنية من مختلف التيارات الفكرية والثقافية أن تشارك بآرائها في مناقشة هذه القضايا. وكانت هذه التيارات تعبر عن الاختلافات في اجتهاداتها مما يتيح للاحظ السياق الثقافي والفكري السعودي أن يكتشف مدى التنوع الذي يزخر به وطننا.

وكانت القضايا الدينية أبرز القضايا التي دار حولها الحوار؛ ذلك أن كثيراً من الكتاب وجدوا الجو ملائماً للتعبير عن اختلافهم مع كثير من الاجتهادات الدينية السائدة التي تنطلق من رأي واحد يرى أنه هو الرأي الصحيح في كثير من القضايا التي تحتمل اجتهادات متعددة.

ومن المهم أن ألاحظ هنا أن الإسهامات في هذه الحوارات جوبهت في بداية هذه الفترة بكثير من الاستنكار والرفض والاعتراض، لكن هذا كله أخذ في الانحسار مع استمرار الحوار وتعود الفرقاء المختلفين على الاستماع إلى الآراء المخالفة لآرائهم. لقد خفت، أو كادت تختفي، تلك الحدة التي كانت تقابل بها الاجتهادات المخالفة للسائد. بل إننا نشهد الآن أن بعض الأصوات المحافظة أخذت في التخلي عن بعض الاجتهادات المتشددة التي كانت تعدها الحق الذي لا مراء فيه.

وأجدها مناسبة هنا أن أجمع بعض المقالات التي كتبتها إسهاماً في ذلك الحوار الوطني الثري رغبة في أن تكون شهادة على هذه الفترة الخصبة من الحوار الذي لم يكن ممكناً في الأجيال السابقة.

وقد نشرت هذه المقالات كلها، إلا عدد محدود منها، في صحيفة «الوطن» السعودية التي تميزت بأنها الصحيفة الأكثر جرأة في نشر المقالات النقدية

والمقالات التى تتبنى الآراء المعارضة لها.

وأرجو أن تقرأ الأجيال القادمة من السعوديين هذه النقاشات على أنها مصدر للمتعة بعد أن تصبح القضايا محل النقاش فى هذه الفترة تاريخاً لا واقعاً، والله أسأل أن يستمر هذا الحوار ويتعمق من أجل مصلحة الوطن ورفعته.

※

الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية
اللورد والفلاح فى صنع العالم الحديث

تأليف: بارينجتون مور

ترجمة: أحمد محمود

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨، ٦٥٢ صفحة

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية بدعم من مؤسسة عبدالحميد شومان



فى هذا العمل الكلاسيكى من التاريخ المقارن ونظم الحكم، يستكشف بارينجتون مور الابن أسباب تطور بعض البلدان فى العصر الحديث كديمقراطيات، بينما تطور البعض الآخر كديكتاتوريات فاشية أو شيوعية. هو يبحث فى الأدوار السياسية التى قامت بها الطبقات العليا المالكة للأراضى وطبقة الفلاحين باعتبارها مجتمعات زراعية تطورت إلى مجتمعات صناعية حديثة.

«يفعل مور ما يحلم الكثير من المؤرخين بعمله: فهو يرى الحقائق العامة فى المواقف التاريخية الفريدة. وقد كتب عملاً يتسم بالمعرفة التراكمية العميقة بالقوى التى تصنع عصرنا المضطرب».

نيو ريببليك (New Republic)

«يأخذ بارينجتون مور على عاتقه فى هذا الكتاب الكبير رسم خريطة للمسارات التاريخية التى سارت فيها دول الغرب والشرق الرئيسية كى تصل إلى مرحلة المجتمع الصناعى الحديث.. وكتابه علامة بارزة فى التاريخ المقارن وتحد للباحثين من كل البلدان الذين يحاولون معرفة كيف وصلنا إلى ما نحن عليه الآن».

سى فان وودورد، يل ريفيو (Yale Review)

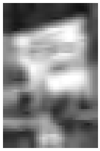
«خلال أجزاء الكتاب المختلفة هناك عمل مستمر لعقل علمى وأصيل يتسم بأندر موهبة، وهى الإحساس العميق بالواقع البشرى.. وسوف يؤثر هذا الكتاب فى جيل كامل من المؤرخين الأمريكيين الشبان ويضع أيديهم على أعظم المشكلات أهمية». (New York Times Book Review)

※

أسرار الصندوق الأسود.. وديع حداد - أنيس النقاش - جورج حبش - كارلوس

غسان شربل

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨، ٤٤٠ صفحة



يتألف الكتاب من أربعة أقسام تتناول حياة أربع شخصيات تقاطعت أعمالهم فى النصف الثانى من القرن العشرين واستطاعوا مجتمعين ومنفردين أن يهزوا ضمير العالم ويذكروه بالظلم اللاحق بالفلسطينيين، وتميزوا عن غيرهم باعتمادهم للمرة الأولى عمليات نوعية وجريئة أهمها خطف الطائرات.

لا يدعى غسان شربل التأليف وتدبيج العبارات، إنه يمارس «هوسه» الصحفى فى كشف الأسرار وجمع المعلومات وتقديمها للقارئ بأسلوب سهل ومشوق فى آن.

فها هو يحاور كارلوس «أشهر مطلوب فى العالم» قبل أن ينتقل اللقب إلى أسامة بن لادن فى القرن الحالى. يقول المؤلف فى مقدمة الكتاب «لم يسمح لى القضاء الفرنسى بزيارة كارلوس فى سجنه، حاورته عبر محاميته، فلم تطفئ أجوبته عطشى، راح يكشف يخفى.. لكن غسان شربل نجح فى استفزاز مشاعر كارلوس وحصل منه على معلومات ووثائق بخط يده تنشر للمرة الأولى.

فى هذا الكتاب يحاور المؤلف رجالاً ألفوا العمل السرى. خطفوا طائرات، احتجزوا رهائن، زرعوا عبوات، زوروا باسبورات.. إنهم رفاق الدكتور وديع حداد مسئول «المجال الخارجى» فى «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، وكذلك قائدها الراحل الدكتور جورج حبش. طالبان فلسطينيان التقيا على مقاعد الدراسة فى الجامعة الأمريكية فى بيروت، أغرقتهما النكبة فى أسئلة حول حال الأمة ومستقبلها، فعاشا من أجلها وماتا فى سبيلها.

هذا الكتاب حصيلة آلاف من ساعات العمل والأسفار فى اتجاهات مختلفة ويجد فيه القارئ ما يشفى غليله عن أولى العمليات النوعية للمقاومة: فى مطار الثورة فى عمان - مطار اللد - خطف وزراء أوبك فى فيينا - عملية عنتيبى - وكذلك عن أنيس النقاش وعلاقته مع وديع حداد وكارلوس ومهماته الإيرانية، والدور الفلسطينى فى الحرب الأهلية اللبنانية.

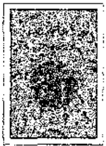
وأخيراً وليس آخراً: جورج حبش والبدايات: نواة حركة القوميين العرب، والثورة فى عمان وبيروت.. الى تونس.

※

ألفاظ عامية فصيحة

محمد داود التنير

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٢٤٥ صفحة



عندما وصل الحال إلى اختلاط الحابل بالنابل ضاع الأصل وظلت الصورة ذات الدلالات والمضامين المفقودة، أو غير الواضحة، هذا ما حدث بالفعل فى تراثنا العربى، بعد انتشار الدواخل اللسانية، وشيوع الانتهاك اللغوى القوى، والذى تتربى عليه الأجيال الراهنة.

قدم المؤلف موسوعته لجمع حوالى ألف وأربعمائة كلمة من العامية، يعتبرها العرب ليست فصحى لكنها ذات جذور عربية أصيلة، ولكن أحيانا ما يختلف الاستخدام ككلمة حاتى وهى تعنى الكثير الترب، فحتى التراب أكثر منه، والناس فى مصر يطلقونه على صانع الكباب ولا يعلم أصل ذلك، فالكلمة صحيحة والاستعمال خاطئ.

وما لم يتنبه بنو العروبة للثروة الغالية التى بين أيديهم والتى تنسال من بين أصابعهم يوماً بعد يوم، ولا سيما مع انحدار مستوى التعليم، فالأمر سيكون جد خطير، ويقدم المؤلف تصحيح طوائف كثيرة من الألفاظ العربية التى حرفتها العامة ونطقت بها على غير وجهها العربى السديد، منها تسهيل العامية فى الهمزة كما فى استاهل بدلاً من استأهل والبير بدلاً من بئر، وتبدل العامية الثاء بالتاء، مثل التلت بدلاً من الثلث، ومن هنا اتجه المؤلف لجمع الكلمات العامية وردها إلى أصلها العربى الحقيقى مع بيان معناها، وإزالة ما بها، كما أنه يحاول تأهيل الكتّاب إلى استخدام الفصحى البسيطة ولا يقعروا فيزيدوا الناس بعداً عنها مما يسبب نسيانها والنسيان هنا هدم للهوية وللحضارة العربيه والإسلامية بكل معانيها.

※

التربية والأيديولوجيا
دراسة فى العلاقة بين التربية وبنية النظام السياسى

شبل بدران

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات، ٢٠٠٨، ٣٢٥ صفحة



يعالج د. شبل بدران، وهو واحد من أهم خبراء التعليم فى الوطن العربى، قضية بالغة الخطورة، وهى العلاقة بين النظام السياسى السائد، وبين التعليم كقيمة تربوية، فكيف يؤثر النظام بمكوناته المتناقضة، والمتصارعة أحياناً، فى العملية التعليمية، هل يوظفها لخدمة أغراضه، وتكريس الأوضاع السائدة، أم أنه حريص فعلا على خلق نظام تعليمى قوى يرسخ قيم الحرية والديمقراطية، وثقافة حقوق الإنسان، ولماذا يلجأ إلى المنظمات الأجنبية لتمويل نظامه السياسى، وما الذى جرى فى التعليم المصرى منذ عام ١٩٨٥ وحتى عام ٢٠٠٧، هى الفترة التى شهدت اضطرابا واضحاً فى سير التعليم المصرى، وخروج الجامعات المصرية من تصنيف الجامعات الأهم فى العالم، هل الدور السياسى فى إضعاف التعليم سبب فى ذاته، أم أن انفصال التعليم عن الواقع، وعدم تحديد الهدف من العملية التعليمية، ماذا نريد بالضبط لخلق مواطن عصرى، على خلفية التعليم الذى تلقاه.

ولتوضيح فكرته قسم د. شبل بدران كتابه إلى ثمانية فصول ليحيط بكل الأسباب والعلاقات المتشابكة بين التعليم والنظام السياسى، وكيف يغرس هذا النظام نوعاً من التربية يسهم فى خلق مواطن مصرى صالح من عدمه، فالإطار الذى يتحرك فيه النظام التعليمى وما يتخذ من سياسات واستراتيجيات وتوظيف للتعليم قد يجعل منه وسيلة لتحقيق أغراض أحد طرفين: طرف يجعله أداة لإعادة إنتاج العلاقات القائمة من خلال مناهج تنتج نمط الشخصية المتكيف والمطيع والقانع والمنفصل، والمغيب الوعى، والمغترب؛ لكى ينسجم ويتسق مع أيديولوجية السلطة السياسية التى تسيطر على مقاليد الحكم، ويتخذ لذلك أسباب الترويض الفكرى والإذعان والاستسلام والقهر وأحياناً ليضمن ما عُرف بالوظيفة المحافظة للنظام التعليمى، ويصطنع فى سبيل ذلك ما يراه مناسباً من أنواع المعارف ومتطلبات التفكير وأنواع

الضرورات والامتحانات وغيرها من المناهج الرسمية، فضلاً عما يتخذه من مناهج وأساليب خفية مستترة ومتضمنة بين ثنايا العملية التعليمية والمناخ الدراسي، والوقائع التي تدين نظام التعليم المصري في ذلك كثيرة وغير خافية واستدعى بعضها تدخل الرئيس شخصياً كما جرى مع آلاء التي كتبت رأيها الشخصي في موضوع إنشاء في الامتحان، وكيف تزلزل المسئولون وحققوا معها، وما جرى مع التلميذ الذي كتب عبارة يشتم منها رائحة سياسية مثل جملة: شعب مظلوم وحاكم ظالم، وما جرى له ليس بعيداً عن الأذهان، وما خفي كان أعظم.

هل يعطينا تعليم كهذا مواطنا يصلح لأي شيء؟

وهل يمكن أن يكون التعليم، والقيم التربوية المتضمنة فيه نقيض ذلك، أي يحقق ما يصبو إليه الطرف الآخر سعياً للتحرر والإتقان والإبداع في سياق نظام سياسي اجتماعي ينشد دفع حركة التطوير المجتمعي، مؤكداً تنمية طاقات الفرد إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه، ومستهدفاً تكوين الإنسان الواعي بذاته وبما حوله، وذلك بجعله كائناً فاعلاً قادراً على صناعة مجتمعه وتاريخه، وفي سبيل ذلك لا يتخذ من المعلومات المقررة إلا ما هو مادة لتنمية العقل الناقد والإرادة الفاعلة.

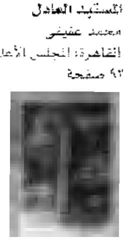
شدان الطرفان في النظر إلى العملية التعليمية شكلا صورتها فيما يزيد على خمسة وعشرين عاماً، يضاف إليهما ما تطلبه المنظمات الدولية من نوع محدد للتعليم المصري، تقدم بناء عليه معوناتها له. فكيف ستنتهي هذه الحال؟ د. شبل بدران يشخص المرض وكيفية علاجه في هذا الكتاب المهم الذي يأتي في سياق البحث عن نظام تعليم قوي للمجتمع المصري.

*

المستبد العادل

محمد عفيفي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨، ٩٢ صفحة



يحمل تعبير المستبد العادل تناقضه في داخله، إذ كيف يكون المستبد عادلاً، وكيف يكون الحاكم العادل مستبداً؟ هي إذن خرافة، أو محاولة يهرب بها الإنسان من أزمات واقعه.

المؤلف يتابع هذه الفكرة في واقعنا المعاصر، بدءاً من صاحبها الإمام محمد عبده، والتي أطلقها في مقال نشره في عام ١٨٩٩ في مجلة الجامعة العثمانية تحت عنوان «إنما ينهض بالشرق مستبد عادل»، وكان الهدف من المقال هو الرد على دعاة إصلاح أحوال الشرق بالأخذ بالحياة النيابية والحريات الديمقراطية، ووفقاً لنهج الإمام محمد عبده في الإصلاح التدريجي، فقد كان يخشى إن نحن أخذنا بهذا النهج ألا نحقق شيئاً بل يقود الأمر إلى انتكاسة خطيرة. وكانت دعوة الإمام هذه علامة فارقة في تاريخ الفكر العربي والإسلامي، فقد كانت علة العلل التي يعاني منها الشرق برأيه هي افتقاره إلى الزعامة الرشيدة، التي تتميز بالقوة والقدرة على اتخاذ القرار بسرعة وتوحيد الصف، أو بحسب قوله: «مستبد يكره المتناكرين على التعارف ويقهر الجيران على التناصف»، وهي مهمة ستأخذ من صاحبها خمس عشرة سنة، يستطيع خلالها أن يحشد حوله المؤمنين بفكره في الإصلاح.

ويضع الإمام برنامجاً تدريجياً لتحقيق الإصلاح الديمقراطي يبدأ بالمجالس البلدية، فمجالس الإدارات، وصولاً إلى المجالس النيابية، لكن الأهم في هذه المسألة كلها، هو وجود الإمام العادل الذي «لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذي يحكمه، فهو لهم أكثر مما هو لنفسه».

وجاء الانتقاد الأساسي لفكرة المستبد العادل على يد أحمد لطفي السيد الذي يمكن اعتباره بدرجة أو بأخرى من تلاميذ الإمام، لكنه كان أكثر انحيازاً للفكرة الليبرالية في صيغتها الغربية، حتى إنه عرف بأنه أبو الليبرالية المصرية. وقد هاجم لطفي السيد في مقالة شهيرة هذه الفكرة وأصحابها «الذين يظنون حكومة المستبد العادل هي خير الحكومات»، وكتب في مقالته التي صدرت في ١٠ يناير ١٩١٤ تحت عنوان: «حقوق الأمة» رافضاً الجمع بين فكرة الاستبداد والعدل في نموذج واحد، واعتبرها فكرة خيالية لا أساس أو سند لها في الواقع.. «ما أظن مذهب الاستبداد العادل في عقول أنصاره إلا أمنية يتمنونها لمثل أعلى من حكومة موحدة الكلمة قوية البطش بعيدة عن الشهوات الحزبية والفردية سريعة الحركة لا بطيئة كالحكومات النيابية».

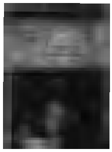
ويقدم المؤلف كذلك إسهامات المفكر السوري عبدالرحمن الشهبندر في الموضوع، ثم يتناول في الفصل الرابع نموذج الرئيس جمال عبدالناصر، باعتباره تجسيداً لفكرة المستبد العادل من وجهة نظر أصحابها، مستنداً إلى مذكرات ثروت عكاشة وزير الثقافة في الستينيات، وينتقل إلى الكيفية التي تناول بها الشاعر نزار قباني الفكرة وعبر عنها في قصائده، وينهي كتابه بملاحق تضم مقال محمد عبده ومقال أحمد لطفي السيد ومقال الشهبندر، وقصائد لنزار قباني.

*

نجيب محفوظ وفن صناعة العبقرية

مصري حنورة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٢٩٩ صفحة



قضى نجيب محفوظ عمره باحثاً عن شيء تصور أنه يمثل رسالة الإنسانية في الحياة، ألا وهو تقديم المثال للباحثين عنه، والمثال الذي كان يرسمه المؤلف كان دائماً مثالاً لا إنسانياً، انه يعري هذا الإنسان المغترب ويحاول أن نقترب ما أمكن عما بداخله.

بهذه الكلمات يقدم المؤلف لكتابه الذي جاء ثمرة علاقة مميزة مع نجيب محفوظ امتدت لأكثر من ثلاثين عاماً، كان خلالها محفوظ يصنع عبقريته الفريدة.

ويعترف المؤلف بأن مصطلح صناعة العبقرية نفسه ينطوي على تناقض بنيوي، إلا أنه يقوا أيضاً بأنه قصد هذا المصطلح، ليبرهن على أن عبقرية محفوظ على وجه الخصوص خاصية مكتسبة بجهد إرادي ووعي موجه.

قسم المؤلف كتابه إلى أربعة أبواب، يدرس في الأول منها مفاتيح العبقرية عند نجيب محفوظ، والثاني شخصية العبقري، والثالث العملية الإبداعية عند نجيب محفوظ، فيما يخصص الفصل الرابع للتحليل الإبداعي لبعض أعماله وخصوصا «قلب الليل» و«رحلة ابن فطومة».

الفكرة الأساسية هنا أن نجيب محفوظ لم يولد عبقريا في الأدب والرواية، بل كان إنساناً عادياً يهتم بالسياسة ويبجل زعيمه سعد زغلول مفجر ثورة ١٩١٩، ولم ينتبه أصلاً إلى إمكانية السير في طريق الأدب إلا بعد التخرج بعامين، ومن هنا يمكن القول إن منشأ العبقرية عنده كان هادئاً، ونما في سياق طبيعي يمكن أن نطلق عليه السياق الإنساني، ومن هذه التلقائية الإنسانية نبعت مواهبه التي استخلصها أكثر من باحث في مجال الدراسات النفسية الخاصة بالإبداع والتذوق الفني، فالمبدع الحقيقي شخص قادر على أن ينخرط في نشاط ترويحي فكاهي، كما أن كثيرا من المبدعين يتميزون بالسخرية من الواقع ومن الآخرين ومن أنفسهم أحيانا، لكن نجيب محفوظ بعد أن قرر الاتجاه إلى الأدب، بدأ يقرأ بشكل منتظم مثل تعلم الفلسفة في كلية الآداب بشكل منتظم - أي أنه كان يأخذ نفسه بالصرامة الواجبة للتعلم، ومثلما وجد نفسه يطرق أبواب الأدب، اهتدى بعد محاولات عدة إلى أن فن الرواية هو المجال الذي يمكنه أن يبدع فيه أكثر من أي جنس أدبي آخر، وكان أن انصرف إليه دون سواه، وهذا ملمح مهم في عبقرية محفوظ، فهي ليست موروثة عن أسلافه وليست نتاج ظروف اجتماعية مهيأة للإبداع، إنما هي صيغته الخاصة، وضع أسسها بنفسه ورعاها خطوة فخطوة.

*

الاتجاه القومي في الأغنية الوطنية العربية

مصطفى عبد الغني

القاهرة: دار العالم العربي، ٢٠٠٨، ١٦٨ صفحة



منذ القدم كان الشعر مرآة العرب، ومازال الأدب ديوان العرب حتى يومنا الحالي، اختار المؤلف منه فن الأغنية، لتكون نموذجا يحتذى في التعبير عن الحياة الاجتماعية والسياسية، فواكبت الأغاني جميع مراحل وطننا العربي مروراً بالأزمات الاستعمارية، وفي لحظات الاستقلال وفي الانتكاسات العسكرية، وفي حمل مضامين عميقة وترسيخ مبادئ كالعروبة والمواطنة وغيرها من الشعارات التي حملتها الأغاني وفي الفصل الأول من هذا الكتاب يقدم المؤلف الفنان محمد عبدالوهاب كمثال تطبيقي، على تطور أدائه من تلحين القصائد الفصحى إلى تلحين أغان عامية مصرية ولبنانية وغيرها حملت المعاني الوطنية، مساهمة منه في الدور الفعال واعترافا بعمق وتأثير الفن على الشعور العام، وقدم المؤلف أيضاً عبدالحليم حافظ كفنان ناصر الثورة مع الزعيم الراحل جمال عبدالناصر، وكان من أهم أبنائها، والذين تغنوا لها وغنوا لكل المعاني التي قامت من أجلها الثورة، كما يؤكد الكتاب على دعم الفنانين الكبيرين (محمد

عبدالوهاب (أو عبدالحليم حافظ) لثورة يوليو وللأنظمة العربية المتحررة عن خلال أغانيهما التي كان لها دور بارز في تأييد الشعوب العربية، ورصد لجهودهما الفنية في زمن الحلم القومي مقدما نماذج عديدة لهذه الأغاني.

كونية الإسلام

صلاح سالم

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ٦٠٨ صفحات



للإسلام دعوة كونية، دور عالمي وتبشيري هدفه هداية الإنسانية جميعا، وربما لهذا السبب - كما يقول المؤلف - يتصادم مع المسيحية، أي أن الصدام بينهما ناتج عن تفتحهما لا عنصريتهما.

غير أن الصراع الجوهري في حقيقته يدور الآن بين الإسلام باعتباره دينا سماويا يمتلك عقلانيته المؤسسة وعبقريته الخاصة ورؤيته المميزة في التعامل مع قضايا الحياة والبشر، وبين الحداثة التي صارت هوية الغرب الحاضنة، بعد هزيمة مسيحية بولس الرسول واندثارها طوال قرون النهضة والإصلاح الديني.

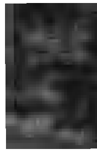
وبعكس كونية الحداثة الغربية الهادفة إلى الهيمنة والسيطرة على العالم بزعم نشر الحريات والديمقراطية، فإن كونية الإسلام طابعا أصيلا في صلب عقيدته، وهي واضحة جلية في القرآن والسنة، وفي تجربة دولة الإسلام الأولى في عهد الرسول والخلافة الراشدة. وينبع الوعي الكوني للإسلام من مكونات ثلاثة أساسية تشكل معالم عهد الاستخلاف، بين الله والإنسان، وهي العقلانية والعالمية والتسامح. والإسلام يقدم للإنسان صورة بالغة الحيوية، عبر صورة بالغة السمو للألوهية، فالله هو الواحد الذي ليس كمثله شيء في الأرض أو في السماء، وصورة بالغة العقلانية للنبوة، تتفق مع نضج العقل البشري في التاريخ، وكون أن محمدا هو الرسول الخاتم لسلسلة أنبياء الإسلام.

يرفض الإسلام فكرة الخطيئة الأولى كما تبدت في العقيدة المسيحية الكاثوليكية ويرفض فكرة المخلص، وطريق المسلم للتخلص من آثامه وشروره ليس سوى قوة إيمانه وتوبته والإيمان بعدل الله ورحمته، وهو ما جعل عبادة الشخص المسلم فردية، لا طقوس جماعية فيها، ولا سلطة فيها لأحد عليه، ولا كهنوت يربطه بسلطة دينية مهيمنة، ولهذا يشعر المؤمن بإمكانية تحقيق ملكوت الله على الأرض، وبأن الله وضع نظاما علميا واقعيا له قوانين تاريخية ومجتمعية، وضمنه بنود عهد الاستخلاف ليسير البشر بمقتضاه على الأرض، وهو ما يعطي للجهاد - بمعناه الحضاري الشامل لا العسكري فحسب - قيمته الحقيقية، إذ يمنح هذا الفهم للجهاد السلم الحقيقي الشجاعة اللازمة لتقويم عجلة التاريخ كلما انحرفت عن جادة الصواب.

موازين الشعر ومحاولات التجديد

محمد أبو عاصود

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٨، ٢٤٨ صفحة



نظمت العرب الشعر فطرة وسجية معبرة عما جاشت به مواطنها من حب واشتياق ولوعة وفراق، كما تغنى فرسانها ببطولاتهم وانتصاراتهم وحروبهم التي امتلأت مجداً وشموخاً، وكان ذلك على مر العصور وحتى الزمن الراهن، لذلك كان بديهيا، أن يهتم مفكرو اللغة على دراسة هذا الشعر، وتخصيصه بعلم عروض وهو علم موازين الشعر، يتعرف الدارس من خلاله على أبحر الشعر المعروفة كالطويل والمديد والرمل والرجز وغيرها، وشكلها الشعري السليم، ومجموعة العلل والزحافات التي تدخلها، فتخضع هذا البحر أو تغير في بنيته الشكلية، وقدم التجديدات التي حلت على الشعر في العصور المختلفة كالإسلامية والموشحات والشعر الغنائي وغيرها، وهذا لما للشعر في التاريخ الإسلامي من مكانة مرموقة، حيث إنه يحرك الأفئدة ويقوي السواعد وفي كل الأزمات حاز الشعراء مكانة متميزة عند الحكام والسلاطين، وقد قام على ذلك مهن عديدة، وساعد الشعراء في إعلاء سلطان مكان آخر، وتحريك جيوش بأكملها، وإلى يومنا هذا يقوم الشعراء برسم الحياة الاجتماعية والسياسية في أبيات تحمل آراءهم وأفكارهم، وأحياناً ما تكون لسان البسطاء حاملة أحلامهم وآمالهم ومشكلاتهم.

كيف تكتب السيناريو؟

محمد السيد عيد

القاهرة: أخبار اليوم، ٢٠٠٨، ١٨١ صفحة



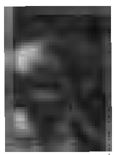
يقدم المؤلف في بداية الكتاب تعريفا شاملا وافيا، لمعنى الدراما بمنظور واسع وتاريخي، وما تبع هذا التعريف من تطورات وتغييرات وتشكيل أدخلته عليه الحضارات المختلفة، وأردف موضوع الدراما بالمكملات كالزمان والمكان وأهميته هذا بالنسبة للحدث وكيف أن تحديد زمان الحدث كان يكون تاريخيا قديما أو وسطا، وأنه لابد من رسم المكان أو تنفيذ هذا ليساعد المشاهد المتابع للدراما لاستيعاب الأحداث، فأهمية الزمان والمكان تبرز الحدث الدرامي وتساعد المخرج في رسم الشخصية المؤدية، وهذا هو الضلع الثالث في مثلث العمل الدرامي، وتناول المؤلف الشخوص بالتحليل النفسي والفسيولوجي ليساهم في إعداد الممثل أو المؤدي للعمل الدرامي، بالطريقة الأكثر صحة وسلامة شارحا ذلك منذ العصور اليونانية القديمة ومرورا بأزمنة مختلفة وأعمال درامية متنوعة اجتماعية وتاريخية وسياسية ودينية وعسكرية.

كما احتوى الكتاب على نماذج من الحوادث والمشاهد الكاملة، لتقريب المفهوم من القارئ، ومحاولة عملية لاطلاعه على مسرحيات ونصوص مكتوبة ومشاهد ممثلة.

البترول ذروة الإنتاج وتداعيات الانحدار

حاتم الرفاعي

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٨، ٣٠٣ صفحات



في بانوراما سريعة يعرج المؤلف من خلالها على مشكلة نضوب البترول من خلال عرضه لمفهوم سنوات الذروة، وكيف أن المشكلة لن تمهلنا في سنوات الذروة فهي تبدأ من الآن حيث يبدأ العالم استهلاك أكبر للوقود من الحد المتعارف عليه، كما أن هناك ندرة تصيبه حتى منسوبها وهي من أجيد الأدوار العالمية، يقدم المؤلف البداية من خلال حديث مطول عن تاريخ البشرية، وقبل ذلك استخدام الطاقة وصولا إلى البترول وتأثيره السريع في النمو الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، وكيف أصبح أحد أدوات وأسباب الصراعات العسكرية في العصر الراهن، ومع انتهاء عصر البترول ستنتشر مشاكل اجتماعية عديدة كالفقر والبطالة والجوع والانعزالية، ومشاكل سياسية واقتصادية ستواجه الأنظمة دون رحمة أو هوادة، يحاول المؤلف طرح العديد من بدائل الطاقة مبينا أهمية محاولة استخدامها، وتطبيقها في مجالات الحياة المختلفة، ولابد من شفافية حقيقية بين الشعوب والأنظمة حتى تساهم في الحل وفي تفادي وجود أزمة حقيقية سيقف الجميع أمامها، كما أن البشرية تحتاج إلى عقود قادرة على ابتكار حلول خلاقة لمشاكل غير مسبوقة، وقدرة عالية على التأقلم على أسلوب مختلف للحياة يتفاعل مع معطيات جديدة، إن الإصرار على الجمود على أسلوب الحياة الذي اعتدناه هو أقصر طريق لانتحار الشعوب وفناء الأمم.

الدولة الوطنية المعاصرة: أزمة الاندماج والتفكيك

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ٦٦٦ صفحة



شهدت العقود الأخيرة من القرن الماضي وبدايات هذا القرن تراجعا في فكر وبنية الدولة الوطنية في أكثر من منطقة في العالم، حتى أضحى مصطلح التفكيك أو الاحتواء والتفتيت يترافق مع التصورات المعروضة إزاء قدرة المؤسسات الحاكمة على تطوير كياناتها وتأسيس مشروعها التحديثي لضمان استمرارها وبقائها.

وإذ سجلت حقبة التحرر والاستقلال الوطني إنجازات ذات أهمية خاصة في إطار صياغة العلائق الاقتصادية والاجتماعية الضامنة للقدرة على التطور والبناء، إلا أن هذه الحقبة استمرت بالتناقص والتراجع أمام أهم عناصرها، وهو بناء التجربة الديمقراطية التي تضمن المشاركة في

صناعة القرار، وتعزيز الهوية الجامعة التى تجسد الإرادة العامة وخدمة المصالح المشتركة.

لكن، سيبقى موضوع الدولة الوطنية، ومستقبلها، تحدياً مفروضاً على الكيان العربى، ذلك أن تصاعد وتنوع تحديات العولمة والهيمنة والاستعمار الجديد لا يمكن أن يواجه دون عمل فكرى، وجهد قومى، موحد.

ولعل فى موضوعات هذا الكتاب، وعلى اتساع وتنوع القضايا التى تناولها، ما يشكل مساهمة فكرية هادفة وموضوعية فى سياق اهتمامات مركز دراسات الوحدة العربية ببناء الدولة فى بعديها الوطنى والقومى، والعمل على رفد مستقبلها بمقومات البقاء والتطور.

وقد رصدت البحوث الثمانية المختارة لعنوان هذا الكتاب ما يسلط الضوء على الدولة الوطنية، من حيث إعادة الإنتاج فى مواجهة التفتيت، ومن حيث التطور الديمقراطى.

❀

فلسفة الحداثة فى فكر المثقفين الهيغليين ألكسندر كوجيف واريك فايل

محمد الشيخ

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨ ، ٦١٥ صفحة



ثمة زمرة من المثقفين الهيغليين الكبار كان من قدرهم أن غمطوا حقهم من جهة عناية الدارسين بفكرهم، وبين شهرة فلسفة الأب الروحى النظرية - هيغل، وشهرة فلسفة الابن الروحى العملية - ماركس، بقى هؤلاء فى طى الغمرة. يجد القارئ فى هذا الكتاب، محاولة للنظر فى فكر اثنين منهما - ألكسندر كوجيف واريك فايل - اللذين نظرا فى أمر «الحداثة» بأدق نظر، تجرآ على إعلان «نهايتها»، بل «نهاية الفلسفة» و«نهاية التاريخ»، وذلك بما لم يجرؤ عليه أحد من قبلهما، وبما لم يدركه أحد من بعد غور بعدهما. وهو نظر لم يكتف فيه المؤلف بمجرد الوقوف على أنظار هذين المفكرين الهيغليين - اللذين أسسا لأحد أعرق مدارس الفكر الفلسفى الحديث التى صارت تعرف اليوم باسم «المدرسة الهيغلية الفرنسية» - فى شأن «الحداثة» بالوصف والتحقيق، وإنما تجاوز ذلك إلى محاولة «تأصيل» أنظارهما، بدءاً من «بسائط المفاهيم» التى استندا إليها، و«استشكال» أمر نظرهما فى شأن «الحداثة»، وذلك ليس بتتبع «ما فكرا فيه» ونظرا، وإنما أيضاً لاستطلاع «ما لم يفكرا فيه» وأعرضا عنه، عنينا ظاهرة «العدمية» - ذلك الضيف غير المحبوب الذى ما فتئ يهدد الحداثة أكبر تهديد.

يتألف الكتاب من مقدمة واثنى عشر فصلاً، فى قسمين، يعالج القسم الأول موضوع نظرية الحداثة فى فكر ألكسندر كوجيف، والقسم الثانى يعالج نظرية الحداثة فى فكر إريك فايل.

❀

أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية: مدخل إلى الفلسفة الفنومينولوجية

إدموند هوسرل

ترجمة وتقديم: د. إسماعيل المصدق

مراجعة: د. جورج كتورة

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨، ٦٧٠ صفحة

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم



يحلل هوسرل فى هذا الكتاب أزمة المعنى والتوجهات فى الثقافة الأوروبية فى العصور الحديثة، إنه يرى أن النزعة «الموضوعية» التى تسيطر على هذه الثقافة تفهم العلم فهماً ضيقاً يُقصى الأسئلة الحاسمة بالنسبة إلى الوجود البشرى: أسئلة المعنى والغاية، الحرية والتاريخ، وهى تبرر هذا الإقصاء بأن العلم لا يمكن أن يعالج إلا ما يعطى بكيفية موضوعية ودقيقة، أى باستقلال عن كل وضعية ذاتية نسبية، ولتبديد هذا التصور، يبين هوسرل أن العلوم الوضعية الحديثة ترتكز، بالرغم من دقتها وموضوعيتها، على التجارب اليومية التى تعطى كيفية ذاتية نسبية، فى أفق عالم العيش. إن النزعة الموضوعية تقوم إذاً على نسيان هذا العالم بصفته الأفق الذاتى النسبى لكل إمكانيات تجربتنا، والأرضية التى تنشأ عليها كل ممارساتنا، بما فيها الممارسة النظرية العلمية، وعليه لا يمكن الخروج من الأزمة إلا عن طريق إعادة ربط العلوم الحديثة بأساسها المنسى، أى بعالم العيش.

❀

نبلاء الإنسانية: أعلام الفكر والفلسفة والفن (١٦٣٣ - ١٩٩٨)

صدقى إسماعيل

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨ ، ٣٦٠ صفحة



يتضمن الكتاب نبذاً عن العديد من الأدباء والشعراء والفلاسفة والفنانين العالميين الذين تركت أعمالهم أثراً كبيراً فى الأوساط الثقافية العالمية، وهى نماذج فذة للتجارب الأدبية والفنية لألمع الشخصيات العالمية، ولطليعة الكتاب، الذين كانت لهم رؤية معينة فى كل ما يتعلق بمصير الإنسان.

ويجد القارئ تعريفاً بعدد كبير من العباقرة ما بين عامى ١٩٣٣ و١٩٩٨، نشأتهم، أعمالهم، وأسباب تميزهم وشهرتهم، كما يطالع مقابلات شخصية مع معظمهم تحت بطاقة تعريف بكل منهم ثم نبذاً عن أهم أعمالهم وإضاءاتهم، يعينه على ذلك الفهرس المثبت فى آخر الكتاب والذى يحتوى على أسمائهم بالترتيب الأبجدى.

❀

منطق الحضارة عند عبدالعزيز الدورى

إيناس صباح مهنا

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨ ، ٢١٥ صفحة



يُعد العلامة الدكتور عبدالعزيز الدورى من أبرز مؤرخى زماننا الحاضر، فقد وضع لنا محاولات لفلسفة التاريخ العربى (الحضارى)، أو لنقل الوصول إلى فكرة شاملة تعبر عنه، وهو ما يمكن أن نعتبره استكمالاً لفلسفة الحضارة، وامتداداً للمدرسة الخلدونية فى العصر الراهن.

ويعد البحث فى فلسفة التاريخ العربى - الإسلامى، مدة ستة عقود، من أهم انشغالات العلامة الدورى، فضلاً عن كونه مفكراً قومياً يؤمن بدور الأمة العربية - الإسلامية فى صنع الحضارة الإنسانية وتعزيز دورها بين الأمم الأخرى. وهو يرى أن الوصول إلى فلسفة التاريخ الحضارى العربى - الإسلامى لا يتم إلا عن طريق تاريخ التاريخ أو تحقيب التاريخ العربى - الإسلامى، لكى يتمكن من الوصول إلى فكرة (أو فلسفة) لهذا التاريخ تعبر عن هويته الثقافية وخصوصيته الحضارية.

لقد حاولت المؤلفة أن تصل إلى معظم آراء الدورى وقراءاته لمنطق التاريخ العربى - الإسلامى (أو كما يسميه ابن خلدون بعلم العمران/ الحضرى) عبر مؤلفاته ودراساته، لاسيما ذات الصلة بفلسفة التاريخ والحضارة، إلى جانب المقابلات الفكرية التى أجريت معه طوال نصف قرن بالصحف والمجلات الفكرية.

وتخلص الباحثة إلى القول: إن العلامة الدورى، فى منظوره الحضارى - المعاصر، إنما يقيم معالم منظوره الفلسفى على قواعد جدلية - عضوية، أساسها فكرة القومية والدين، وركائزها: جدل الأجيال، ممثلاً الأصالة والمعاصرة، وجدل النهضة والانحطاط، وجدل الذات والآخر، محتفظاً له بموقف متميز بين الأجوبة العربية لموضوع النهضة - الدينية - والليبرالية والشيوعية والقومية، خرج منها برؤية تكاملية معاصرة، تنتقد، وتتجاوز إلى حيث يجب أن تكون النهضة المنشودة.

❀

العصا الغليظة ثلاثية الاستبداد والقهر والتخلف

حلمى محمد القاعود

القاهرة: كتاب المختار، ٢٠٠٨، ٢٢٤ صفحة



هذه الكلمات كانت صدى لأحداث جرت فى الفترة القريبة الماضية، وتمثل نتائج لواقع مؤسف تعيشه أمتنا عامة، وشعبنا المصرى خاصة، منذ مطالع القرن العشرين، ومازال مستمراً حتى اليوم، ويزداد سوءاً كلما مر بنا الوقت، مما يعطى انطباعاً بالتشاؤم والإحباط وفقدان الأمل فى المستقبل!! ويمنح هذه الكلمات مشروعية القراءة والتأمل حتى تتغير الأحوال!

شعوب العالم كلها، حتى تلك التى لم يكن لها اسم على الخريطة الدولية، عرفت كيف تتعايش وتتوافق وتؤسس لبناء حضارى فى الصناعة والزراعة والتجارة والاقتصاد والعلم والمعرفة

وتجديد الدماء السياسية والفكرية والثقافية، ولكننا نخطو إلى الأمام خطوة، ونعود إلى الوراء خطوات.. وسبب ذلك واضح لا يخفى على أحد، وهو «العصا الغليظة» التي تستخدمها السلطة ضد شعبها: ترفعها مؤقتاً في بعض الأحيان، ولكنها تعود وتستخدمها بشراسة أشد ووحشية أكبر، مما جعل «المصري» بلا قيمة ولا ثمن، داخل وطنه وخارجه على السواء، مهما علت مكانته وارتفع مكانه..

إن ثلاثية الاستبداد والقهر والتخلف تمسك بخناق الشعب، والأمة، مما أعطى لأعدائنا وخصومنا فرصة العمل «الأمن» داخل أوطاننا، وصرنا «معرة الأمم»، لولا ومضات تبرق هنا وهناك تبشر بالأمل في العمل والمقاومة والتضحيات، وهو ما يضع على عاتق نخبتنا مهمة صعبة وشاقة في مقاومة الاستبداد والقهر والتخلف جميعاً..

لقد شهدنا على مدى عامي ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ حراكاً سياسياً ملحوظاً، ولكنه كان مقصوراً على نخبة محدودة: دفعت ثمناً باهظاً لمواقفها، في ظل قسوة بوليسية مفرطة، وتهالك إداري واضح، وفساد غير محدود، وكذب مفضوح تقوم به أبواق مأجورة من متملقي السلطة وكتابها، ومع توالي الكوارث والمصائب التي تصيب المصريين مثل غرق العبارات، وتصادم القطارات، والإصابة بأوبئة الطيور والحيوانات.. فإن الأمور في حاجة إلى استنهاض الهمم واستثارة العزائم لمعالجة أوضاعنا المتردية والانهيار الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتعليمي والتربوي.. والعلاج يبدأ بوصفة بسيطة جداً وسهلة للغاية اسمها: «الحرية».. وبالحرية يمكن أن نبني وطناً حقيقياً، وأمة واعدة..

❊

عزيز العظمة: المُلكيّة الإسلامية. السلطة والمقدس في أنظمة الحكم الإسلامية والمسيحية والوثنية

ترجمة: عدنان حسن

قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ٣٧٤ صفحة



يبين الكتاب أن تكون مجموعة متنوعة من الأنماط الإسلامية على وجه التخصيص لتعبير السلطة قد تطلب عدداً من القرون، وأنها لم تكن بأي حال من الأحوال فريدة من نوعها، وأن التعبيرات الإسلامية للسلطة، وحتى تأكيدات قداستها، لم تكن بالضرورة من مهمة الخطاب الديني على وجه التحديد، أو محصورة بالمؤسسات الكهنوتية السنية أو الشيعية.

إن الخطاب السياسي الإسلامي وجماليات السلطة الممارسة تاريخياً في أنظمة الحكم الإسلامية تصوران هنا على أنهما متنوعان ومتمايزان وعلى درجة عالية من التغيرية. ارتباطاً بذلك، يتبين أن تعبيرات السلطة الإسلامية تمتلك مجالاً للإنتاج والتداول أعرض بكثير من فئة علماء الدين الذين تنسب إليهم هذه التعبيرات على نحو عادي في الدراسات المعترف بها، وأن آراء هؤلاء الأفراد عن ثم لم تكن على الدوام أساساً ولا معيارية.

يتفحص الكتاب أيضاً الشروط التاريخية والنصية الملموسة للخطابات الإسلامية والتعبيرات الأخرى للسلطة. وهي جزئياً نتيجة لضيق شديد من الحالة لمعرفة وتحليل التصورات السياسية الإسلامية، وحالة معرفة الشروط التاريخية والنظرية والخطابية لهذه التصورات.

❊

العائلة

محمد الشارخ

بيروت، قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨



العائلة في رواية محمد الشارخ مجاز، فهي قد تشير إلى عائلة محددة وإلى سلطات حاكمة في آن، كانت كياناً موحداً دخل في طور التفكك والتداعي.

تبدأ لغة الاستهلال التقريرية، التي توحي بسيرة ذاتية تسيغ على النص كثيراً من الصدق والمصداقية.

أما لغة النثر فهي تصف، من دون إملال أو تزيّد، لقاء الإنسان الخليجي بذلك الهولندي المليء بالتناقضات، الذي أعطى وجوده مجالاً، أو ذريعة، للحديث عن الإسلام.

وما قد يثير القارئ السيطرة الكتابية المدهشة عن موضوع أسرى جوانتانامو في عوالمهم الداخلية ومعاناتهم الخارجية، التي تدل على حساسية أدبية عالية.

إضافة إلى ذلك، هناك الوصف الحي الدقيق لعائلة عبداللطيف النصر في تناقضاتها التي لا تنتهي: يسر الخارج وعسر الداخل، الأمان الاقتصادي والقلق الروحي، تنوع الشخصيات داخل الوحدة العائلية، البحث المستمر عن الهرب إلى اتجاهات مختلفة: هرب إلى الداخل وهرب إلى الخارج، وهرب إلى لا مكان.

نص (العائلة) محمل بثقافة عالية، من ذلك الدين الإسلامي في تأويلاته، أو القضية الفلسطينية والصهيونية والنازية، أو أحال إلى العلاقة الوثقى بين الاستبدادين السياسي والديني.

ربما تكون رواية «العائلة» هي النص الروائي العربي الذي ذهب بموضوع «الآخر» إلى حدوده الأخيرة، وذلك في اقتصاد لغوي بعيد عن البلاغة والتبسيط.

محمد الشارخ شخصية ورجل أعمال كويتي قد عرفه العرب عبر شركة صخر للكمبيوتر والبرامج العربية التي أسسها في ثمانينيات القرن الماضي، حتى صار اسم الحاسوب مرادفاً لاسم صخر. فدخل عن طريقه ملايين العرب للعالم الرقمي. كما حصلت على براءات اختراعات أمريكية للترجمة والتخاطب الآليين وقراءة النصوص آلياً باللغة العربية وهي المبادرة الوحيدة في العالم العربي للحصول على براءات اختراع في مجال مكننة اللغة العربية واستخدامها في العصر القادم.

اهتمامه بثقافة الحاسوب وتعريبه لم يكن بذخاً أو ملحقاً، بل جزء لا يتجزأ من شخصيته الثقافية العربية، وهاهو محمد الشارخ يجدد العلاقة الشخصية بالثقافة ويطل علينا عبر هذه الرواية، التي تلي مجموعات قصصية نشرها من قبل في كتب ومجلات وفصليات أدبية عربية مختلفة.

❊

هذيان تحت الاحتلال

بيوت: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨



الاحتلال جريمة بشعة تدفع بالإنسان إلى الجنون والهذيان والثرثرة، وتخلق منه إنساناً آخر وذات أخرى.

تحت الاحتلال: يهذي الناس بشكل غير طبيعي ويثرثرون بشكل غير طبيعي، ويسلكون سلوكاً آخر تعبيراً عن رفض الغزو ونتاجه غير الإنساني والأخلاقي.

عندما وقعت بغداد تحت الاحتلال، هذت بغدادُ ذاتُها مثلما هذى (البغاددة) أنفسهم هذياناً لم يُشهد له مثيلٌ في تاريخ الأمراض النفسية التي تصيب النفس البشرية إثر حالة مرفوضة.

هذيانٌ تحت الاحتلال عمل أدبي تشكله مجموعة من هذيانات لأشخاص واعين وغير واعين، يهذون تحت تأثير الاحتلال: يهذي مقاتل عراقي مقاوم للمحتل حتى النخاع، يهذي العميل المحتقر لنفسه وذاته، يهذي كل الذين اغتيلوا بطريقة خاطئة، تهذي امرأة مفجوعة بفقدان الأبناء والزوج، يهذي شاعر فقد قصائده، يهذي العشاق الذين سُلبوا حق ممارسة الهوى في أوطانهم، يهذي مدير الطب العدلي في بغداد وهو لا يستطيع أن يكتم عدد القتلى في ثلاجات الموت، يهذي القاتل والمقتول، يهذي الشهداء الأحياء عند ربهم، يهذي خلفاء بغداد وأمراؤها واحداً بعد الآخر، يهذي علماؤها ومثقفوها وكفاءاتها العلمية، يهذي الأغبياء والمخبولون.

يهذون أمام المرآة، أمام الحواجز والجدران الأسمنتية التي امتلأت بها شوارع بغداد وطرقاتها، يهذون عبر المحمول، يهذون أمام البيوت الكثيرة التي طمرها صاروخ أطلقه جندي أمريكي خطأً من طائرة أمريكية بدافع القضاء على الإرهابيين.

هذيان لحظة الصمت الذي تعقبه عاصفة شديدة، وهذيان لحظة العنف الأمني الذي أحال ليل بغداد ونهاره إلى جحيم لا تطاق.

سيهذي العراقيون إلى أن تتحرر بلادهم وتزال من شوارعها وطرقاتها الجدران الكونكريتية والحواجز التي تعيق حرية مرورهم إلى حياة آمنة.

❊

نقد الحداثة في فكر هايدجر

محمد الشيخ

بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠٠٨، ٦٩٤ صفحة



عادة ما كان يصف المفكر الألماني مارتن هايدجر (١٨٨٩ - ١٩٧٦) الحوار بين أهل النظر بأنه حوار «ودأء» و«أخلاء» و«أصفياء»، وقد حاول المؤلف في هذا الكتاب أن ينظر في الكيفية التي حاور بها هذا المفكر - الذي عد أحد أكبر مفكري عصرنا - مفكري الحداثة ومنظريها، وأن نحاوره بشأن نظرياته في نقد الحداثة الحوار الجميل، والحال أنه لئن كان لمفكر معتكف الغابة السوداء «ما فكر فيه»، فإن له أيضاً «ما لم يفكر فيه»، وما أعظم «ما فكر فيه» الفيلسوف! لكن أعظم منه «ما

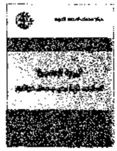
لم يفكر فيه!! وهذا الكتاب، اولا وقبل كل شيء، نظر في «ما فكر فيه» هايدجر، وذلك قبل أن يكون هو سعياً إلى التفكير في «ما لم يفكر فيه». لقد فكر هايدغر في شأن «الحداثة» بأعمق فكر يكون أوجده وأبدعه، على أنه بنى نظره هذا على مقدمات كادت أن تخفى على الكثير من الذين إن هم وقفوا على نتائج أفكاره فما وقفوا على أصول أفكاره. ولهذا يقترح هذا الكتاب إعادة بناء فكر هايدجر في «الحداثة» بدءاً من بسائط المفاهيم التى استند إليها الرجل، ثم انه ليأخذ بيد القارئ آخذ الرفقة إلى أن يفضي به إلى النتائج التى انتهى إليها هايدجر في نقده للحداثة. وقد قاد المؤلف في هذا نحو وجيه: محاولة إنطاق أفكار هايدجر لغة الضاد بما يضمن اختفاء رطانة هايدجر داخل العربية.

٭

ثورة الصورة المشهد الإعلامي وفضاء الواقع

مجموعة باحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ١٧٤ صفحة



مع كل البدهيات التى غدت معروفة حول دور وسائل الاتصال واتساع دائرة التأثير المباشر للإعلام، إلا أن الحضور الحاد والمؤثر للإعلام في صياغة أسلوب حياتنا اليومية، أضحى ظاهرة تستحق التأمل والملاحقة والبحث عن وسائل التعامل معها، وتحليل نتائجها وأبعادها؛ إذ لم يعد كافيا الحديث عن الظواهر الإيجابية أو السلبية في بنية المجتمعات الراهنة ومدى قدرة الإعلام في التأثير فيها، بل إن الأمر يتعدى ذلك إلى البحث عن معنى المسئولية الأخلاقية والمهنية لوسائل الإعلام، والوقوف إزاء ظاهرة عولمة الإعلام أو فساد الإعلام وغيرها من المقولات للوصول إلى تحديد ملامح المشهد الإنساني من أطرافه المختلفة، القيمية والعقائدية، ثم القوى الفاعلة في التأثير المباشر برسم السياسات، وصولاً إلى تأثير حدود ومعالم حلقة التواصل على مختلف المستويات وعبر تنوع الوسائل. ويستمر المؤتمر موضحاً إلى جانب هذا راسماً صورة للحرية الإعلامية وهو موضوع مثير للجدل والمدى الذى وصلت إليه وسائل الإعلام في سبيل التحرر من الرقابة والقيود. وقدم فاضل البدراني واقع الصحافة العراقية في زمن الاحتلال الأمريكي، وتابع خالد على الهمداني دور وسائل الإعلام في الانتخابات ومدى التأثير الذى تمارسه عليها، ويتناول المنصف وناس القيم المدنية من خلال الفضائيات العربية قراءة تفكيكية في بعض التجارب وغيرها من الموضوعات التى تسهم في إلقاء الضوء على الإعلام في الزمن الراهن، وإلى أى مدى تأثر الشارع العربي على اختلاف أصعدته.

٭

الخطاب القومي العربي المعاصر من خلال أبحاث مركز دراسات الوحدة العربية (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠)

الطاهر المناعي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ٦١٥ صفحة



شاء الباحث طاهر المناعي أن يختار الخطاب القومي العربي المعاصر من خلال أبحاث مركز دراسات الوحدة العربية، موضوعاً لنيل درجة الدكتوراة، بدافع ذاتي قومي اولاً، وبدافع علمي، يجد ما يبرره في الثقافة العربية نفسها؛ فالفكر القومي جزء من النشاط الفكري العام في الوطن العربي، ومن أقدم تجلياته.

ويرى الباحث أنه بإنشاء مركز دراسات الوحدة العربية حدثت نقلة نوعية في خطاب الفكر القومي العربي، وفي آليات تعامله مع الواقع. وهو يرى أن القوميين العرب وجدوا في هذا المركز فضاء ثقافياً ملائماً لتجسيد طموحاتهم، فأضحى بفضل نشاطهم وعطاءاتهم البحثية أغزر المراكز إنتاجاً، وأكثرها جدية، وبالمقابل بعث المركز روحاً جديدة في الفكر القومي العربي من خلال تخطيطه وتحديد رؤاه، وإنتاجه الضخم والمتنوع، مما جعل هذه المؤسسة الفكرية عمارة رائدة في مسيرة الحركة القومية العربية.

في هذا المناخ استنطق الباحث النصوص المنشورة، الصادرة عن المركز، خلال السنوات (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠) (وهي فترة موضوع الرسالة)، فوجه عنايته أولاً إلى دراسة تأسيسية الخطاب القومي العربي التقليدي، ليتعرف إلى ظهور مرحلة تالية خصص لها القسم الثاني من الدراسة، حيث تعمق بخطاب المركز من حيث القضايا والمشاغل، في تحليل ضافٍ لجوانب هذه المشاغل السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، تلك التى استحوذت على اهتمام الباحثين العرب، ولاسيما المتعاملين منهم مع المركز.

وفي القسم الثالث من الكتاب نهض الباحث بدراسة طبيعة الخطاب القومي العربي من حيث الأسس والمناهج ومن حيث الأبعاد والحدود.

٭

مجلس التعاون لدول الخليج العربية: قضايا الراهن وأسئلة المستقبل

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ٢٨٠ صفحة



اتسمت مسيرة مجلس التعاون لدول الخليج العربية التى اقتربت من ثلاثة عقود من الزمن، بالعمل من أجل تأكيد فكرة اللقاء الجامع (مجلس التعاون) وضمان دور وفاعلية الشركاء حول كينونته القانونية والمادية، والعمل من أجل تأكيد حضوره في إطار ثلاث منظومات سياسية مؤثرة في محيطه: المنظومة الأولى هي انتساب هذا التجمع عملياً لمنظومته الأكبر وهي الوطن العربي، باعتباره يعبر عن هوية الدول الأعضاء في ذلك المجلس، والمنظومة الثانية هي الوجود الجغرافي في منطقة إقليمية شهدت ومنذ عقد الثمانينيات من القرن الماضي اختلالات وصراعات كبيرة، ومازالت قائمة على موازنات قلقة تهدد باحتمالات غير متوقعة من الصراع، والمنظومة الثالثة هي المنظومة الكونية. فالدول المنضوية في إطار مجلس التعاون الخليجي تشكل مداراً سياسياً وجغرافياً يوصل بين نقاط حيوية ضمن مناطق شديدة التوتر والحساسية في إطار احتدام الصراع الدولي على المصالح، وفي المقدمة منها الصراع من أجل الوصول والهيمنة على مصادر الطاقة الوفيرة في منطقة الخليج العربي.

ومركز دراسات الوحدة العربية، في إطار اهتماماته بقضايا الوطن العربي بشكل عام، وبالأطر القانونية (الدستورية) للأنظمة العربية ونقاط اللقاء والتوحد، وكذلك المشكلات والتحديات، ومنها تجارب العمل التوحيدية على اختلاف صيغها ومستوياتها، فقد أولى اهتماماً متواصلاً بالتطورات التى شهدتها منطقة الخليج العربي، وبتجربة مجلس التعاون لدول الخليج العربية، باعتبارها إطاراً جامعاً يمكن أن يشكل تجربة لعمل وحدوي قابل للنمو والتطور والتكامل. وهذه الدراسات والبحوث التى كتبت في فترات زمنية مختلفة، وتناولت قضايا وموضوعات متصلة باهتمامات وواقع مجلس التعاون لدول الخليج العربية، إنما تشكل مساهمة فكرية في إغناء تلك الموضوعات، وتضيء جوانب من الواقع، وتثير اسئلة مشروعة حول آفاق ذلك التجمع العربي ومستقبله وتاثيره في مستقبل تلك المنطقة، وفي وحدة الأمة وتطورها وكفاحها من أجل الحرية والسيادة.

٭

مخنوقة

رحاب أبو العلا

القاهرة: دار الفاروق، ٢٠٠٨، ١٤٣ صفحة



قدمت المؤلفة قصة لشعور داخلي، تموج به نفسيا في سن اقتربت من الثلاثين وحياة ملاها الملل وتسرب إليها اليأس لغياب العاطفة؛ التى تحتوى النفس وكذلك المشاعر الخاصة بالفتيات وهي الأمومة، فتحاول الفتاة رسم الواقع محللة أغلب المشاكل التى تجدها في طريق العمل، سواء مشكلات سياسية أو اجتماعية أو غيرها، كما انها تلقى نظرة على العلاقات التى تمر في حياة الإنسان تاركة آثارا مختلفة، وتحلم في مسيرة الفرد كما أنها قد تغير رؤية الإنسان لأمور بعينها. وترى المؤلفة أن الحياة تفقد متعتها وقيمتها إذا شعر الإنسان بأنه فقد حريته وسعادته فيها، وعاش في خنقة واكتئاب، ومن العجيب أن هناك علاقة قوية بين الشعور بالاكتئاب من جهة وازدياد وسائل الترفيه والتكنولوجيا الحديثة من جهة أخرى؛ كأنهما مرتبطان معاً.. فأجدادنا كانوا أكثر سعادة رغم بساطة حياتهم.

وكلما تقدم العلم وقدم للإنسان ما لم يكن يحلم به، انسحبت السعادة من حياته شيئاً فشيئاً وكأن يد الحياة تطبق على رقبتنا كل يوم.. ولكل شيء ضريبة.

٭

Bahgory: An Egyptian Artist's Words and Pictures

بهجوري: كلمات فنان مصري ولوحاته

Georges Bahgory
Translated by Humphrey Davies
جورج بهجوري
ترجمة: هامفري ديفيز
American University in Cairo Press 2008. 128 pp. $34.95



يلقي هذا الكتاب نظرة على الروح الخلاقة لواحد من أشهر الفنانين المصريين، روح عبر عنها من خلال الصور والكلمات. ينوه الرسام جورج بهجوري ببيكاسو ولوحات الفيوم باعتبارها أعظم المؤثرات في عمله؛ يخلق بهجوري آثارا فنية تجريدية أخاذة تشد الرائي إلى عالم قد تخيم عليه الظلمة والغرابة. وبوصفه مراقباً واعياً للأحداث المتلاحقة من حوله، ألف أن يضع رسوما تخطيطية يصف بها انطباعاته في هيئة مذكرات. تبرز العديد منها مشاهد للشوارع المصرية يمكن لأي شخص مطلع على الحياة اليومية للقاهرة التعرف عليها: رجل يركب دراجة ويحمل العيش فوق رأسه، الصبية وهم يلعبون كرة القدم، النساء في السوق، مرتادو المقاهي، الموسيقيون. ترافق تلك المجموعة الجديدة من لوحات الفنان مقتطفات رواية تحكي سيرته تحت عنوان «أيقونة فلتس». يتحول بهجوري بعدها من الفرشاة إلى القلم ليبدع صورا نثرية موجزة، كل واحدة منها مشهد مقتضب فوق نسيج غني من السرد المتخيل، يخالج وصفه وعي حاد الذهن لمناظر طبيعية حسية تمهب في لغته الفنية. يُعبر بهجوري عن نفسه بالكلمات في حماسة لا تقل عن حماسة تعتريه وهو يُعبر عن نفسه في اللوحات، وهو هنا يمنح القارئ بعداً آخر من أبعاد روحه الإبداعية في كتاب «بهجوري: كلمات فنان مصري ولوحاته».

جورج بهجوري: وُلد في الأقصر عام ١٩٣٥. درس في كلية الفنون الجميلة بالزمالك وكلية الفنون الجميلة بباريس، يستقر في باريس منذ خمسة وثلاثين عاماً، ويقيم في مصر فترات مؤقتة من حين لآخر. عرض أعماله في فرنسا ومصر وبريطانيا والعراق والأردن وتونس وإيطاليا.

هامفري ديفيز، مترجم رواية علاء الأسواني «عمارة يعقوبيان» ومجموعته القصصية «نيران صديقة» (دار نشر الجامعة الأمريكية في القاهرة، ٢٠٠٨) ورواية «بوابة الشمس» لإلياس خوري التي فازت بجائزة بانيبال للأدب المترجم.

Cairo: The Practical Guide

القاهرة: الدليل العملي

Compiled by Claire E. Francy
Edited by Lesley Lababidi
تجميع: كلير إي. فرانسي
تحرير: ليزلي لابابيدي
American University in Cairo Press" 2008" 256 pp." $17.59



كتاب تصفه جريدة ذا نيو يورك تايمز بأنه لا غنى عنه، كتاب يملأ فراغا حيويا قد يجده المغتربون والقاهريون على حد سواء ممن يحتاجون إلى يد المساعدة لتنظيم فترات الإقامة في القاهرة والاستمتاع بتحدياتها. أساسيات الحياة اليومية: إيجاد شقة، نقل الأغراض الشخصية، الاستقصاء عن خيارات مدارس الأطفال، الالتفاف حول بيروقراطية القاهرة الشهيرة، تعقيدات إطعام الفرد لنفسه وأفراد أسرته والباسهم من الأسواق المحلية، كلها بتفصيل ما بعده تفصيل في هذا الكتاب. جمع الكتاب نصائحه من مجموعة متنوعة من المطلعين: منهم القاهري ومنهم الأجنبي، وهي توفر للقارئ مخزونا هائلاً من الحقائق الحالية حول الأسعار والأحياء والمنتجات المتاحة وفرص العمل والتجارة ونطاق لا نهاية له من مناسبات ثقافية وترفيهية تشتهر بها القاهرة. خاطبت بينة هذه النسخة وتصميمها حاجات السياح المائلين إلى الاستقلالية بالإضافة إلى الأجانب المقيمين بأن اضافت دليلاً من A إلى Z للبضائع والخدمات والاهتمامات مقسماً من حيث الأحياء؛ وجزءاً لغوياً يتناول أساسيات اللغة القاهرية؛ وتفاصيل التسوق والأماكن السياحية من منظور المقيم القاهري. إن كتاب «القاهرة: الدليل العملي» الآن في نسخته الخامسة عشرة - هو المفتاح لفك شفرات تعقيدات الحياة والعمل والاستمتاع في واحدة من أكثر مدن العالم الكبرى إثارة وتعقيدا.

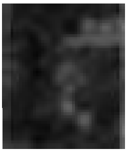
تعمل كلير إي. فرانسي معالجة نفسية اجتماعية ومستشارة اتصالات.

ربت ليزلي لابابيدي ثلاثة أطفال في القاهرة. ألفت كتاب «القاهرة: دليل الأسرة» وكتاب «لا صمت بعد اليوم: أصحاب الحاجات الخاصة في مصر» (دار نشر الجامعة الأمريكية في القاهرة، ٢٠٠٢) وكتاب «قصص شوارع القاهرة: سير التماثيل والميادين والجسور والحدائق ومقاهي الأرصفة في المدينة» (دار نشر الجامعة الأمريكية في القاهرة، ٢٠٠٨)

Egypt's Sunken Treasures

كنوز مصر الغارقة

Edited by Franck Goddio and David Fabre
Photography by Christoph Gerigk
Foreword by Zahi Hawass
تحرير: فرانك جوديو وديفيد فابر
تصوير: كريستوف جيريك
تقديم: زاهي حواس
American University in Cairo Press" 2008" 464 pp." $37.96



يعرض الكتاب في نسخته المزيدة والمنقحة صوراً كاملة ملونة لبعثة استكشافية تسبر الآثار الغارقة تحت الماء، بعثة رائدة غيرت خرائط التاريخ. ففي المياه الضحلة لخليج أبو قير على الساحل المصري تقبع أطلال ثلاث مدن عتيقة ازدهرت على سواحل البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الإسكندرية: الإسكندرية وهيراقليون وكانوبس، مدن غمرتها مياه البحر منذ العصور القديمة. يشرح الكتاب تعاملات جرت بين المدن الثلاث، وبين المصريين واليونانيين القدماء، وما خلفته كل حضارة على الأخرى من مؤثرات.

كذلك كشفت تلك الآثار الغارقة مؤخراً النقاب عن الحقيقة الكامنة وراء أحلام استثارتها هذه الأماكن الغامضة، إذ تحمل تلك البعثة في جعبتها دلائل قيمة على الطريقة التي عاش بها مواطنوها وشيدوا الهتهم. اكتشف عالم الآثار الغارقة الفرنسي فرانك جوديو آثارا عتيقة تتضمن مجموعة تماثيل ومجوهرات وقواصر وألواحاً حجرية وأجزاء من مبان، كلها مفقودة منذ ألفي سنة تقريباً. وعلاوة على صور فوتوغرافية مذهلة لعملية استكشاف الآثار أثار هذا الكتاب عقلية القارئ بأن ربط بين الآثار وحيوات عيلين ملكة طروادة وكليوباترا ومارك أنطونيو. يقدم الكتاب للقارئ القصة المثيرة لهذه الاكتشافات من قاع البحر: تمثال ملكة تتصور في صورة إيزيس أفروديت، تمثال قسيس يحمل برقة جرة أوزوريس-كانوبس، تماثيل ضخمة لملك وملكة، منحوتة هائلة للإله حابي، أطلال الكائن الخرافي السفينكس، ساحات من الأعمدة المتكسرة وكأن يد عملاق بعثرتها. لقد سلطت كل هذه الاكتشافات الضوء على عالم ملغز ساحر. تمت هذه الاستكشافات باستخدام أحدث المناهج المتطورة واعتمدت على معرفة وثيقة بالتاريخ. إنه كتاب مثير موجه لكل مهتم بالتاريخ القديم: فهذا الكتاب الفني بالصور هو أشمل الكتب - حتى الوقت الحالي - التي تناولت اكتشاف المدن المفقودة تحت خليج أبو قير.

وُلد فرانك جوديو عام ١٩٤٧، هو مؤسس ورئيس المعهد الأوروبي للآثار الغارقة في باريس. ألف عدة كتب ومقالات علمية حول مشاريع الأبحاث واستخراج الآثار الغارقة. وكان موضوع العديد من الأفلام الوثائقية التليفزيونية.

Granada

غرناطة

Radwa Ashour
Translated by William Granara
رضوى عاشور
ترجمة: ويليام جرانارا
American University in Cairo Press" 2008" 128 pp." $19.96



كانت مدينة غرناطة الأسبانية تضم مجتمعاً مسلماً قبل القرن الخامس عشر، لكن حين اجتاح ملكا قشتالة وأراجون المنطقة، جلبا معهما محاكم

التفتيش، إذ حظرا الثقافة الإسلامية وآدابها وأرغما السكان على التحول عن الإسلام. الأرجح ألا يكون قارئ الإنجليزية مطلعاً على تاريخ غرناطة، لذا قد تبث تلك الحقيقة بالإضافة إلى الهوامش التوضيحية شيئاً من الملل فى نفس قارئ الإنجليزية. لكن حالما يتأقلم القارئ مع الإيقاع الناعم للقصة، سيجدها فى منتهى الإثارة. سوف يعجب كل من يستمتع بالقصص الرومانسية بشخصيات مثل الحفيدة العنيدة سليمة فيما قد تبدو أحياناً كلمات مثل «الإرهابى» والمسلم المحارب فى سبيل الحرية، خارجة عن السياق التاريخى أو محشورة فى الحبكة للتأكيد على إيحاءاتها المعاصرة، وليس من أجل القصة، إلا أن اللغة فى المجمل غنية تستثير الذكريات والعواطف والشخصيات الجذابة.

«غرناطة» رواية مؤثرة عن ثقافة مختلطة تواجدت فى جنوب أسبانيا قبل طرد العرب واليهود. تحيك رضوى عاشور بقلم ماهر تاريخ حكم غرناطة وعالماً عربياً فى رواية تستدعى فقدان الإرث الثقافى وتلاشى شرائح سكانية مقهورة. تتتبع الرواية أقدار أبى جعفر المسلم – زعيم ذائع الصيت ووراق يمتلك حانوتاً فى حى الوراقين ويسكن فى حى البيازين – وزوجته وكنته الأرملة وولداها وتلميذاه. تشغل حيوات تلميذىْ أبى جعفر وولدىْ ابنه الراحل قلب الرواية. شهدوا جميعاً كريستوفر كولومبس وحاشيته فى موكب المنتصرين وهم يعرضون نباتات وحيوانات غريبة وأسرى بشريين من «العالم الجديد». تدمج المؤلفة فى الحكاية الاستعدادات لزواج سعد، واحد من التلميذين، وسليمة حفيدة أبو جعفر سيناريو يتكشف بكل رشاقة فى عدد من المشاهد المتوازية. وبينما يصادر حكام غرناطة الجدد الكتب ويحرق المسئولون مجلدات كاملة، ينقل أبو جعفر مكتبته الزاخرة بالمطبوعات إلى خارج البلدة. يكافح المسلمون المضطهدون لتشكيل حكومة مستقلة إلا أن الضغوط الاقتصادية والثقافية على عرب أسبانيا والحكام المسيحيين تتعاظم من جراء ثورات المسلمين. إنها حكاية لا تخلو من عزيمة أو أسى. سوف تروق هذه الرواية القراء المهتمين بالأدب الأسبانى والعربى، وكل معنى بالعلاقات المسيحية-الإسلامية.

كتبت رضوى عاشور سبع روايات وثلاث مجموعات قصصية وأربعة كتب نقدية. تعمل أستاذة للغة الإنجليزية بجامعة عين شمس.

ويليام جرانارا مترجم ومؤلف وأستاذ للغة العربية بجامعة هارفارد.

Islam and Textbooks in the Middle East: Comparing Curricula

الإسلام والكتب المدرسية فى الشرق الأوسط، مقارنة للمناهج

Edited by Eleanor Abdella Doumato and Gregory Starrett

تحرير: إيلينور عبد الله دوماتو وجريجورى ستاريت

American University in Cairo Press" 2008" 272pp." $19.96



لقد قيل الكثير عن الدور الذى لعبه النظام التعليمى بالسعودية فى تعزيز شعور بالكراهية أفضى إلى هجمات ١١ سبتمبر. لكن هل تستحق المناهج الدراسية السعودية أن تلام على غرز العنف فى نفوس التلاميذ؟ وهل تسللت الأفكار الوهابية إلى نصوص إسلامية تُدرسها المدارس العامة فى الشرق الأوسط؟ وفى محاولة لمواجهة تلك الأسئلة يسبر هذا الكتاب الأولويات السياسية والاجتماعية الكامنة وراء التعليم الدينى فى تسع دول بالشرق الأوسط، وعليه يكشف اختلافات مثيرة فى طريقة تقديم المناهج الدراسية للإسلام ليعكس التاريخ المحلى لكل دولة وسياساتها. كذلك يوضح الكتاب قدرة الدين الإسلامى المدهشة على التكيف فيما يجاهد القادة للتوفيق بين الهوية الإسلامية وحقوق المواطنة والحقيقة المعاصرة لعالم مستقل تهيمن عليه العولمة. من بين المساهمين فى الكتاب: تغريد القدسى وأوزلم ألطان وبيتى أندرسون وناثان براون وسيف دانا وإيلينور عبد الله دوماتو وجريجورى ستاريت ومحمد إس. عيسى وجوشوا لانديس وماندانا إى. ليمبرت وجلنار مهران وجيمز إيه. تورونتو. إن هذا الكتاب يُقدم على حد قول مجلة ميدوست بوك ريفيو «تدقيقاً وافياً قيماً ولا سيما فى أعقاب هجمات ١١ سبتمبر والاتهامات بتسرب الكتب المدرسية المشجعة على العنف إلى المملكة العربية السعودية والعالم الإسلامى».

إيلينور عبد الله دوماتو زميلة زائرة فى معهد واتسون للدراسات العالمية بجامعة براون. شاركت فى تحرير كتاب «النساء والعولمة فى الشرق الأوسط العربى: الجنوسة والاقتصاد والمجتمع» و«الحصول على إذن الله: النساء والإسلام والشفاء فى المملكة العربية السعودية والخليج العربى».

جريجورى ستاريت أستاذ مساعد فى علم الإنسان بجامعة نورث كارولينا بمدينة شارلوت. ألّف ستاريت كتاب «تفعيل الإسلام: التعليم والسياسة والتحول الدينى فى مصر».

Khan al-Khalili

خان الخليلى

Naguib Mahfouz

Translated by Roger Allen

نجيب محفوظ

ترجمة: روجر آلان

American University in Cairo Press" 2008" 312pp." $24.95



كان اكتمال رواية «خان الخليلى» عام ١٩٤٥ بمثابة نقطة تحول فى مسيرة نجيب محفوظ المهنية، إذ انصرف بها عن موضوعات تقليدية تتناول التاريخ المصرى القديم وتميز أعمال الكاتب الأولى. تعكس «خان الخليلى» اهتماماً عميقاً بحيوات المصريين المعاصرين ومشاكلهم. تقع أحداث الرواية فى عام ١٩٤٢ حين كانت الحرب العالمية الثانية فى ذروتها وحملة أفريقيا، تحتدم بطول الساحل الشمالى وصولاً إلى العلمين. تسرد الرواية فى خلفية من الجيشان العالمى حكاية أسرة عاكف، أسرة تنتمى إلى الطبقة المتوسطة التجأت إلى حى خان الخليلى التاريخى الصاخب. اعتقدت الأسرة أن القوات الألمانية لن تقذف أبداً مثل تلك البقعة الدينية من المدينة، وعليه التمس أفرادها الأمان وسط حوارى الخان المزدحمة ومقاهيه الخاصة بالناس ومساجده العتيقة المجاورة لمنطقة أمضى فيها محفوظ معظم أيام شبابه. يُقدم محفوظ بعينىْ أحمد – الابن الأكبر لعاكف ومحور الرواية الأساسى – رؤية ثرية للخان متكلاً على ذكرياته فى حشد مجموعة مفعمة بالحياة من الشخصيات، تلك الشخصيات التى تتقيد حيواتها بمناظر بيئته فى الطفولة وروائحه وطعومه. لقد ضحى أحمد الموظف بتعليمه وطموحه الشخصى كى يعول أسرته الصغيرة، وهو هنا يتفاعل مع أهل خان الخليلى وتقاليده ليبزغ جدل يتعارك فيه القديم مع الجديد، التاريخ مع الحداثة، الإيمان مع العلمانية. تعالج هذه الرواية واحداً من أبرز أسئلة العصر الحديث، فمحفوظ يسأل: هل يجب أن يتزامن التقدم بالضرورة مع تدمير ملامح الماضى. لقد رسم محفوظ حبكة جذابة الإيقاع حساسة اللغة لعائلة تقف عند مفترق الطرق بين القديم والجديد.

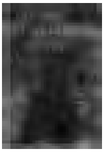
Islamic Monuments in Cairo: The Practical Guide

الآثار الإسلامية فى القاهرة: الدليل العملى

Caroline Williams

كارولين ويليامز

American University in Cairo Press" 2008" 316 pp." $24.95



تعتبر آثار القاهرة الإسلامية جزءاً من إرث متواصل يمتد إلى أكثر من ألف سنة من التشييد. لا يمكن لأية مدينة إسلامية أخرى أن تضارع القاهرة فى إرثها الرائع أو تتتبع التطور التاريخى للعمارة الإسلامية بمثل ذلك الوضوح. إن اكتشاف هذا الجوهر التاريخى، أولاً بصرياً بعيون الفنانين الغربيين فى القرن التاسع عشر ثم فكرياً بأقلام متخصصى الفن الإسلامى فى القرن العشرين، ينتظر الآن إبهاج الزائر من العامة. لا تزال هذه النسخة الجديدة المنقحة بالكامل من الدليل المبسط المفيد «الآثار الإسلامية فى القاهرة» تساير الزائر عبر مائتى أثر من أكثر الآثار الإسلامية تشويقاً. كما أنها لا تهمل مبادرات الترميم الحديثة والآثار المفتتحة مؤخراً مثل قصر الأمير طاز ومنزل الست وسيلة. ينصح جوناثان إم. بلوم فى مجلة المركز الأمريكى للأبحاث فى مصر «ألا تخلو حقائب كل زائر إلى القاهرة من هذا الكتاب. علاوة على أن محبى معمار القاهرة ودارسيه سيجدونه مرجعاً سريعاً دقيقاً وكذلك تذكاراً عزيزاً بالعديد من الرحلات الممتعة وسط «الآثار القاهرية». إنه دليل وصفه موقع لونلى بلانيت بالممتاز.

أتمت كارولين ويليامز دراساتها العليا فى تاريخ الشرق الأوسط من جامعة هارفارد والفن الإسلامى من الجامعة

الأمريكية فى القاهرة. تقيم فى القاهرة أو تزورها من حين لآخر منذ عام ١٩٦١.

❋

Nights of Musk: Stories from Old Nubia

ليالى المسك: قصص من النوبة القديمة

Haggag Hassan Oddoul
Translated by Anthony Calderbank

حجاج حسن أدول
ترجمة: أنتونى كالدربانك

American University in Cairo Press" 2008" 136pp." $17.95



لا تعوز تلك المجموعة القصصية الحدة أو الصنعة الأدبية المتقنة. تحيى الزوال المأساوى للحياة التقليدية للنوبة وثقافتها. لو تسببت السدود المبكرة التى شيدها المصريون عبر نهر النيل خلال النصف الأول من القرن العشرين فى تزايد أعداد النوبيين المهاجرين إلى القاهرة والإسكندرية للعمل كخادمين ونُدل وبوابين، فإن استكمال السد العالى فى عام ١٩٦٤ أعلن وفاة شعب النوبة. فبينما نُقل معبد أبو سمبل بتكلفة باهظة وحرص ما بعده حرص، لم يلحظ الكثيرون غرق الأرض العتيقة لشعب النوبة مع ضفتى النهر. يسلط عمل حجاج حسن أدول ضوءاً مشحوناً بالحنين على إرث النوبيين وطريقة حياتهم بالإضافة إلى توثيق المأساة الشخصية لأفراد تورطوا رغماً عنهم فى تغيير اجتماعى هائل: رقص النوبيين المكلل بالإيقاعات، ونساؤهم الجميلات، وحس الفكاهة المترع بالحيوية عند العجائز، والمركزية الشديدة لتقاليدهم وأرواحهم التى شاركوا فيما بينتهم. تعرض قصتان من هذه المجموعة، «زينب» و«ليالى المسك»، رؤية ريفية نافذة كما الحلم لعالم تبدد إلى الأبد تحت المياه القابعة خلف السد. وفى الوقت نفسه توثق قصتان أخريان، «جدة عديلة» و«أناس النهر»، لرحيل رجال تركوا نساءهم ليأخذوا بأسباب حياة يابسة. لا يملك أفراد الجيل الثانى والثالث ممن ولدوا فى مدن الشمال إلا حكايات الجدات التى تذكرهم بلغة عربية ركيكة بتراث راح وانقضى.

ولد حجاج حسن أدول فى الإسكندرية عام ١٩٤٤ لأبوين تركا موطنهما - قريتهما فى منطقة النوبة - متجهين شمالاً. اشتغل عامل تشييد فى مشروع بناء سد أسوان ثم خدم فى الجيش المصرى خلال حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر ١٩٧٣. بدأ الكتابة فى سن الأربعين ليكتب القصة القصيرة والرواية والمسرحية. فازت «ليالى المسك» بجائزة الدولة للقصة القصيرة عام ١٩٩٠.

عاش أنتونى كالدربانك فى مصر عدة سنوات، وهو معنى باللغة العربية وآدابها. ترجم رواية «رادوبيس» لنجيب محفوظ (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٣).

❋

Tales from Dayrut: Modern Arabic Stories

حكايات من ديروط: قصص عربية معاصرة

Mohamed Mustagab
Translated by Humphrey Davies

محمد مستجاب
ترجمة: هامفرى ديفيز

American University in Cairo Press" 2008" 210pp." $22.95



تحوى هذه المجموعة أقصوصة واحدة وأربع عشرة قصة قصيرة مترابطة. يتعمق بنا مستجاب من رواية «التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ» إلى صعيد مصر فى قرية ديروط الشريف مسقط رأسه حيث يصور عالماً يستبد به الفقر والجهل والأخذ بالثأر ومبادئ شرف لا سبيل إلى تغييرها. وهنا يستعين مستجاب بحس الكوميديا السوداء وسخرية خليقة بأعمال جوناثان سويفت: سخرية عالم ببواطن الأمور يدرى كل خافية فى مجتمعه. وعندما يتحطم سكون آخر اليوم بطلقة واحدة، يندمج الجمال المتناهى بالرعب، وعندما يجد رجل شرطة - ساعيا إلى حل لغز جريمة قتل - أشلاء لا تعد ولا تحصى من حوله، ينقلب العنف بكل سهولة إلى مسرحية هزلية. وفى المجمل يسبر خيال المؤلف السريالى من آن لآخر ألغاز مكان تتردد إليه النساء المغريات على طرقه المغبرة وقد يجد فيه أحد الرجال نفسه مسحوقاً كالدودة تحت رجل آخر. تترامى آفاق قريتى فى مقاطع أخرى من النص لتشمل دولاً أخرى (عمل المؤلف عدة سنوات فى الخليج العربى) حيث تفضى الحماقة وخداع الذات إلى نتائج لا تقل فى شؤمها. إن صوت مستجاب الأدبى - غير المعهود لقارئ الإنجليزية - صوت أصيل يبعث الاضطراب فى القلوب.

وُلد محمد مستجاب فى بلدة ديروط بصعيد مصر عام ١٩٣٨. توقف دراسياً عند مرحلة الثانوية العامة لكنه حاز مكاناً فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة وترقى إلى درجة مدير عام. نشر قصته الأولى فى مجلة الهلال عام ١٩٦٨. حاز جائزة الدولة التشجيعية عن رواية «التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ» عام ١٩٨٤، وتم اختيارها كواحدة من أجمل مائة رواية عربية خلال القرن العشرين. توفى مستجاب عام ٢٠٠٦.

❋

The Golden Years of Egyptian Film

السنوات الذهبية للسينما المصرية

Edited by Sherif Boraie

تحرير: شريف برعى

American University in Cairo Press" 2008" 240pp." $49.95



بلغت صناعة السينما المصرية أوجها ما بين العقد الرابع من القرن العشرين والعقد السابع منه. فقد أنتجت مئات الأفلام المعروضة بالأبيض والأسود. الكوميدية والدرامية والرومانسية، أفلام أضحت كلاسيكيات لا يطالها الزمن فى أرشيف السينما المصرية. إنها أفلام يعشقها الملايين ويشاهدونها المرة تلو المرة فى جميع الدول العربية. ومهما قدمت تلك الأفلام من مواضيع، يظل الحب دائماً هو الموضوع الأساسى - الحب المثالى، الحب المستحيل، انتصار الحب، فشل الحب. يجمع شريف برعى - ناشر قاهرى - أكثر من مائة صورة دعائية لما يربو على ثمانمائة فيلم مصرى رائع فى هذه المعالجة السخية ذات القطع الكبير. وفى درجات الأبيض والأسود البهية، راح النجوم المشاهير - من كازابلانكا إلى بغداد - يكشرون أو يعبسون، ينكمشون خوفاً أو يستنجدون، يحكمون قبضاتهم أو يدندنون بالنغمات، يتآمرون أو يعلنون الانتصار. إنهم نجوم أو مطربو الصف الأول: أم كلثوم وليلى مراد وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش؛ والبطلات: فاتن حمامة وسعاد حسنى؛ والأبطال: عمر الشريف ورشدى أباظة؛ والراقصات: نعيمة عاكف وتحية كاريوكا؛ والأشرار: توفيق الدقن ومحمود المليجى؛ والكوميديون: مارى منيب وإسماعيل ياسين. هذا فضلاً عن النجمة الطفلة فيروز وبطل الشعب فريد شوقى والمذهلة هند رستم. يقدم شريف برعى كتابه باللغتين الإنجليزية والعربية لينعم النظر بمقالات لرفيق الصبان ومصطفى درويش وياسر علوان إلى أجمل ما عرضته السينما المصرية. سوف يروق الكتاب محبى الأفلام الكلاسيكية فى كل مكان.

❋

Kallimni ʻArabi Bishweesh: A Course in SpokenBeginners Egyptian Arabic 1

كلمنى عربى بشويش: منهج للمبتدئين فى العربية المصرية الشفهية ١

Samia Louis

سامية لويس

American University in Cairo Press" 2008" $24.95pp." $24.95



درّست سامية لويس اللغة العربية خمسة عشر عاماً فى المعهد العالمى للغات بالقاهرة (ILI). تلتزم لويس بمنهج عملى يهدف إلى إبداع مجموعة من الكتب المبتكرة الألمعية لدراسة العامية المصرية - لهجة يدرسها الكثير من غير المتحدثين بالعربية ويفهمها الوطن العربى بأكمله. تستند الكاتبة إلى سنوات خبرتها كمدرسة لغة عربية ومطورة للمناهج التعليمية. وقد أضافت الآن إلى السلسلة ثلاثة كتب جديدة. تم تصميم الكتب وفقاً لتعليمات المركز الأمريكى لتعليم اللغات الأجنبية (ACTFL).

يدرب كل كتاب من كتب «كلمنى عربى بشويش» الطلبة على استيعاب دروس غنية البنية فى المهارات الحيوية مع التشديد على الاستماع والتحدث. تستخدم الكتب مواقف وتعابير من الحياة الواقعية. ويشتمل القرص

المضغوط المصاحب للكتاب على تسجيلات لحوارات وتمارين سجلها مصريون. يعلق ديفيد ويلمسين، أستاذ مساعد في الجامعة الامريكية ببيروت، على الكتب قائلاً إنها «توفر أفضل المقررات العربية المتاحة... فهي أفضل بمراحل من أغلب الكتب الأخرى».

※

The Loved Ones

المحبوبات

Alia Mamdouh

Translated by Marilyn Booth

عالية ممدوح

ترجمة: مارلين بوث

American University in Cairo Press" 2008" 288pp." $18.95



إنها الرواية الفائزة بميدالية نجيب محفوظ للأدب عام ٢٠٠٤. ترقد سهيلة المهاجرة العراقية في غيبوبة بأحد مستشفيات باريس. المحبوبات هن كوكبة الصديقات اللاتي يهرعن إلى فراش سهيلة من كل أنحاء العالم كي يطوقنها بدفء الصداقة الذي قد ينقذ حياتها في النهاية ويُمكنها من الانبعاث. تكشف القصص المحكية عن سهيلة أبعاد شخصيتها: إسرافها في كل شيء وحبها للرقص والنبيذ والشعر على الرغم من سنوات أساء فيها زوجها العراقي معاملتها وما استشعرته من قسوة النفي عن الوطن وما عراها من إحباط منبعه الابتعاد عن ابنها الوحيد. تتدفق ذكريات مدوية معذبة متحوتة بالعناد في حكايات متداخلة برواية عالية ممدوح الخامسة. وبعد أن تقع سهيلة - راقصة سابقة ساحرة لكنها تنزع إلى الاكتئاب - فريسة لغيبوبة، تلتف «المحبوبات» حول فراشها بالمستشفى ليرفعن الصلوات بالشفاء. كما يخلف نادر الكئيب زوجته وابنه الصغير في كندا ليعتنى بأمه المغتربة سهيلة. يستحضر نادر طفولة خنقها هوس سهيلة به ويتدبر رجولة يعذبها وطن مزقته الحرب التي أودت بأبيه. وفي نفس الوقت تلوم صديقات سهيلة نادراً لهجرانه لأمه ويؤكدن أنها ستعود من أجل ابنها. وبينما تغدق النساء كل الحب على جسد سهيلة الخامل بإلحاح ميلودرامي. يفطن نادر المحتار المحاصر الى إجلالهن لأمه فيعتريه اشتياق جامح إليها، اشتياق يحجب أفكاره عن أسرته الصغيرة.

تتراءى تأملات المؤلفة المكتوبة في المنفى حول أم وابن يقاوم حياة كاملة من الحرب والاغتراب في مثل تلون رقصات سهيلة وفي مثل غموض جسمها الصامت النائم. سوف يجد القارئ «المحبوبات» قصة محركة للمشاعر متعددة الأصوات: تسرد معضلات التشرد والترحال. حكاية مفككة وأحياناً متوجة تخلط عصوراً متباينة يتحد بها الماضي والحاضر والمستقبل ويتشابكوا وينصهروا. «المحبوبات» ترنيمة تمجد الصداقة وعطاء لا نهائي يجدد الحياة - إنها قصة عن الذاكرة والتاريخ تقف بقوة أمام النسيان.

وُلدت عالية ممدوح في العراق وتلقت شهادة في علم النفس من الجامعة المستنصرية عام ١٩٧١. عملت رئيسة تحرير مجلة الراصد من عام ١٩٧٠ وحتى ١٩٨٢. تعيش الآن في باريس. ألفت رواية «نفتالين: رواية عن بغداد» (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٥).

مارلين بوث مترجمة رواية «الباب المفتوح» للطيفة الزيات (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٢) ورواية «أوراق النرجس» لسمية رمضان (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٢) ورواية «حارث المياه» لهدى بركات (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٣)

※

Vintage Alexandria:

-Photographs of the City" 1860

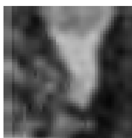
1960

إسكندرية العتيقة: صور للمدينة: ١٨٦٠-١٩٦٠

Michael Haag

مايكل هاج

American University in Cairo Press" 2008" 152pp." $39.95



يستعين مايكل هاج في كتاب «إسكندرية العتيقة» بصور عتيقة ترجع إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين. حصل على العديد منها من ألبومات عائلية شخصية. وهو يحيي في هذا الكتاب عالماً تبددت فيه إسكندرية العتيقة، تلك المدينة الأنيقة العالمية النابضة بالحياة، صاحبة أضخم ميناء في البحر المتوسط كان في يوم من الأيام ممراً مزدهراً بين مصر والعالم. سوف يتطلع القارئ إلى مواقع بيوت السكندريين القدامى وحدائقهم، وشوارع المدينة وشواطئها، ووجوه هؤلاء السكندريين المنسيين وقد عادت إلى الحياة: اليونانيين والإيطاليين واليهود وكل هؤلاء القادمين من شواطئ البحر المتوسط ممن أسهمت طاقاتهم وخبراتهم في تحديث مصر وتطويرها وزرعوا جذورهم العائلية في قلب المدينة. كانت هذه هي المدينة المترفة المثيرة التي احتفى بها كونستانتين كفافي وإي. إم. فورستر ولورانس دوريل، وقد تواجدوا أيضاً بين هذه الصفحات إلى جانب صور لمشاهد وأناس ألفوهم وخبروهم.

يتتبع كتاب «إسكندرية العتيقة» تطور المدينة وازدهارها، ويسبر حكايتها عبر الأحداث الدرامية لحربين عالميتين، وهو يوفر قبل كل شيء خلفية معرفية عن مكانة المدينة في التاريخ الثقافي للقرن العشرين، وذلك من خلال عيون المواطنين السكندريين العالميين أنفسهم. ومن بين هؤلاء المواطنين الذين أقاموا بالمدينة وظهروا بين صفحات الكتاب: أنتوني بيناكي (تاجر قطن يوناني شكلت مجموعته الفنية أساس متحف بيناكي الشهير في أثينا) وروبرت كوخ (عالم عزل فيروس الكوليرا وطور لقاحاً في أحد معامل الإسكندرية) وبينلوبي دلتا (كاتبة كتب الأطفال اليونانية) وكلود فينسيندون (الزوجة الثالثة للورانس دوريل) وفيكتور إيمانويل الثالث ملك إيطاليا وإيف كوون (الزوجة الثانية للورنس دوريل وموضوع روايته «جاستين») وصافيناز ذو الفقار (التي تزوجت بالملك فاروق تحت اسم الملكة فريدة) وودولف هيس (نائب هتلر الدارس في الإسكندرية) وجين دو ميناس (أفضل مترجمي تي. إس. إليوت) ومانفريد فون ريشتهوفين (البارون الأحمر) والمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد والمخرج السينمائي يوسف شاهين والنجم السينمائي العالمي عمر الشريف والملك حسين ملك الأردن وروبنا هازارد (رسامة تنتمي إلى حركة الانطباعية المتأخرة) وأحمد حسنين باشا (المستكشف والدبلوماسي المصري) ونويل كاوارد (كاتب ومفكر إنجليزي غني في النادي البحري بالإسكندرية وتجمهر حوله البحارة.) سوف يبث هذا الكتاب الفضول في نفوس القراء بصور أرشيفية تكشف عن القلب المنسي لمدينة عالمية عظيمة.

مايكل هاج كاتب ومصور يستقر في لندن. ألف كتاب «الإسكندرية: مدينة الذكرى».

※

What the Arabs Think of America

كيف يفكر العرب في أمريكا

Andrew Hammond

أندرو هاموند

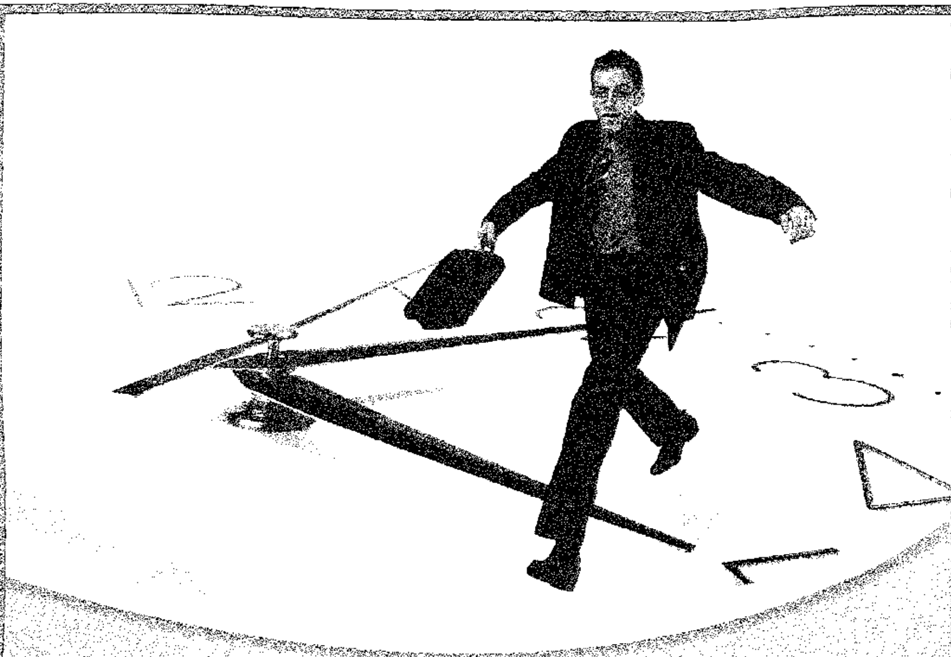
American University in Cairo Press" 2008" 258pp." $29.95



تستفز أمريكا والأمريكيون في هذه الأيام آراء حادة من العرب بشتى توجهاتهم، من السياسيين والصحفيين إلى العامة في شوارع الدول العربية. لا تبلغ أصواتهم دوماً الغرب إلا أن الصحفي البريطاني آندرو هاموند المقيم في الشرق الأوسط ينصت إلى أحاديثهم منذ ما يفوق عقداً من الزمان. فآراؤهم الواردة في هذا الكتاب مسموعة بكل وضوح وجلاء. تصطبغ الكثير من القضايا بالطابع السياسي. كيف يرى العرب الدعم الأمريكي لإسرائيل أو العلاقات الوثيقة بين أمريكا والسعودية؟ ما هو رد فعلهم على التدخلات الأمريكية في الشرق الأوسط واحتلال أمريكا للعراق؟ بيد أن التأثير الأمريكي على العالم العربي لا يقتصر على السياسة. ما هي آراء العرب في السينما والتليفزيون وموسيقى الهيب-هوب والراب في أمريكا. بل وكيف ينظر العرب إلى الأمريكيين أنفسهم وأسلوب حياتهم ومواقفهم وشخصياتهم؟ يدمج المؤلف في الكتاب حواراته مع أفراد من جميع أنحاء العالم العربي. وهكذا يُعبر كتاب «كيف يفكر العرب في أمريكا» عن الصوت الخافت لشريك يدخل في علاقة متأزمة. تتلون الآراء أحياناً بالغضب وأحياناً بالإعجاب ودائماً بالحماسة. وصفت مجلة ماالتيكالشيرال ريفيو الكتاب بأنه «رائع التوثيق جاء في وقته» فيما قالت عنه مضاوي الرشيد، مؤلفة كتاب «تاريخ المملكة العربية السعودية» إنه «الصحافة الملتزمة في أفضل حالاتها».

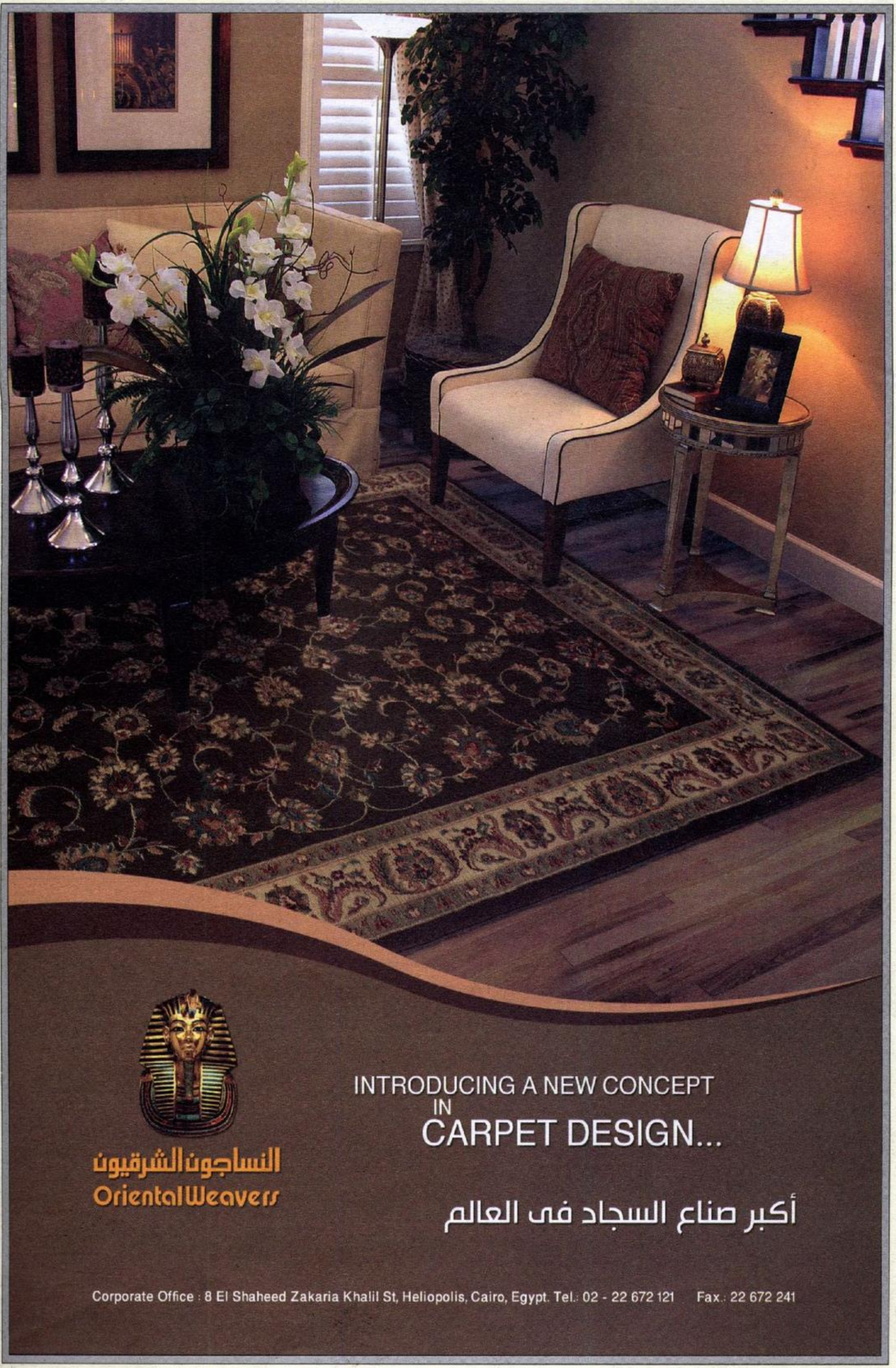
أندرو هاموند صحفي كتب كتابات موسعة عن الشرق الأوسط وعمل مراسلاً بالعديد من الدول من بينها مصر والسودان وإسرائيل وفلسطين والعراق. ألف كتاب الثقافة الشعبية في العالم العربي (دار نشر الجامعة الأمريكية، ٢٠٠٧).

※





أحدث إصدارات
دار الشروق
علاء الأسواني
نيران صديقة
محمد صلاح العزب
وقوف متكرر
فؤاد حجازي
الأسرى يقيمون المتاريس
حافة الليل
جمال الغيطاني
هاتف المغيب
دولة الفيس بوك
facebook
د. جلال أمين
فلسفة علم الاقتصاد
من هم اليهود وماهي اليهودية
www.shorouk.com email: dar@shorouk.com


النساجون الشرقيون
Oriental Weavers
INTRODUCING A NEW CONCEPT
IN
CARPET DESIGN...
أكبر صناع السجاد فى العالم
Corporate Office : 8 El Shaheed Zakaria Khalil St, Heliopolis, Cairo, Egypt. Tel.: 02 - 22 672 121 Fax.: 22 672 241